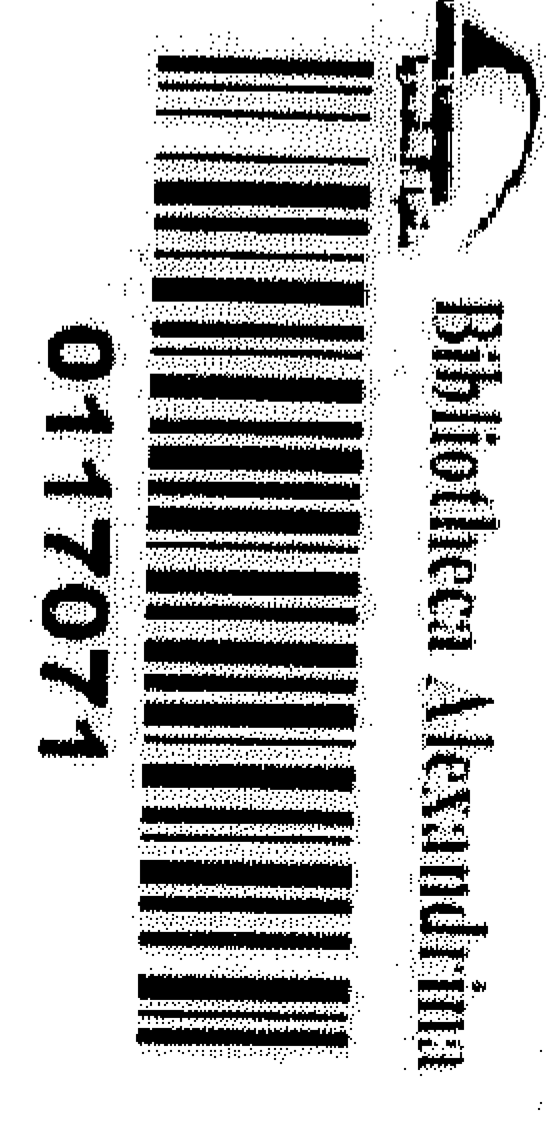
كارلوس فوينتيس

الرواية الطليعية 11



ترجمة
أسامة إسبر

كارلوس فوينتيس

الحملة

ترجمة : أسامة اسبر

العنوان الأصلي للكتـاب: The Campaign
اســـــــم المؤلـــف : Carlos Fuentes
اســـــــم المترجـــم: أســـامة اسـبر

الطبعة الأولى ـــ 1999

دار الطليعة الجديدة

سوريا ـــ دمشق ـــ ص. ب 34494
تيليفاكس: 2775872

الاخراج: هالـة قطـوم
صمم الغلاف: جمال سعيد
لوحة الغلاف للفنان العالمي: بول غوغان

الفصل الأول

ريو دي لا بلاتا

(1)

في ليلة 24 أيار من عام 1810، دخل بالتاسار بستوس غرفة نوم المركيزة دي كابرا، زوجة رئيس المحكمة الملكية العليا في ريو دي لا بلاتا، واختطف طفلها الحديث الولادة واضعاً مكانه طفلاً أسود، ابن عاهرة كانت قد جلدت لتوها.

الحكاية جزء من قصة أصدقاء ثلاثة – خابيير دوريغو، بالتاسار بستوس، وأنا، مانويل فاريلا – ومدينة تدعى بوينس آيرس حيث كنا نصارع للحصول على ثقافة، وهي مدينة مهربين متضايقين جداً من إظهار ثرواتهم. وعلى الرغم من أن هناك أربعين ألفاً منا، نحن سكان بوينس آيرس كما ندعو أنفسنا، فإن هذه المدينة قذرة، منازلها منخفضة وكنائسها كالحة. ترتدي مظهراً من الحشمة المزيفة والرياء المقرف. كان الأغنياء يدفعون رشوة للأديرة كي يخفوا بضائعهم المهربة وعمل كهذا كان لمصلحتنا، نحن الذين نحب الأفكار والكتب: بما أن الأقفاص التي تحوي كؤوس القربان والأردية الكهنوتية لم تكن تفتح على الحواجز الجمركية، كان الكهنة الأصدقاء يستخدمونها ليرسلوا إلينا كتباً ممنوعة من تأليف فولتير وروسو وديدرو... وكان دوريغو، المنحدر من عائلة من رجال الأعمال الأثرياء، يشتري الكتب، وكوني أعمل في مطبعة، تابعة لدار الأيتام، كنت أعيد طباعتها سراً، وكان بالتاسار بستوس، الذي من الريف، حيث يملك والده مزرعة كبيرة، يحول الكتب إلى أفعال. كان يريد أن يصبح محامياً في

ظل نظام يحتقر المحامين ويتهمهم بإثارة قضايا لا تنتهي، بالإضافة إلى الحقد والضغينة. وما كانوا يخشونه هو أن نثقف المحامين الكريوليين الذين سيتحدثون من أجل الشعب ويحققون الاستقلال. وكانت هذه مشكلة بالتاسار الحقيقية: كان عليه أن يدرس في بوينس آيرس دون جامعة ويعتمد، مثل صديقيه دوريغو وأنا، فاريلا، على الكتب المهربة والمكتبات الخاصة. وكانت السلطات تراقبنا. كان نائب الملك الأخير على صواب حين قال إن نشر الإغواء في بوينس آيرس ينبغي أن يتوقف مضيفاً أن هذه الرذيلة تبدو متفشية في كل مكان.

الإغواء! ما هو ومن أين يأتي، وأين سينتهي؟ إن ما يغوينا هو الأفكار وحين ينتهي كل هذا سأذكر دائماً بالتاسار بستوس الشاب يشرب نخباً في مقهى دي مالكوس وهو يفور بالتفاؤل. أغويَ وهو الآن يغوينا برؤية قصيدة رعوية سياسية، العقد الاجتماعي الذي جُدد على ضفتي نهر بوينس آيرس الموحلتين والمستنقعيتين. أوقفت روح صديقنا النارية الجميع عن العمل حتى الأولاد الذين كانوا يصبون ماء النهر في قدور فخارية ليجعلوه قابلاً للشرب والطباخين الذين يحملون دجاجات نصف مذبوحة وديكة رومية. شرب بالتاسار بستوس من أجل سعادة مواطني الأرجنتين محكوماً بقوانين إنسانية لا بتلك الخطة المقدسة المتجسدة في الملك. توقفت حتى العربات المحملة بالشعير المحصود حديثاً، والقش المقدر عليه الدخول إلى الإسطبلات، كي تصغي. أعلن أن الإنسان يولد حراً لكنه مقيد بالأغلال في كل مكان، وسيطر صوته على مدينة الكريبوليين والإسبان والكهنة والراهبات والمدانين والعبيد والهنود والسود والجنود برتبهم المتسلسلة... أغواه مواطن بخيل من جنيف تخلى عن أبناء الزنا على باب كنيسة.

هل بالتاسار بستوس يغوي؟ أم هل أغواه جمهوره، الحقيقي أو المتخيل، في شوارع مدينة لم تكد تغادر اختناق الصيف وهي مغلفة بالضباب الصاعد من حزيران إلى أيلول؟ أيار هو الشهر المثالي للتحدث، للإصغاء، للإغواء وللوقوع فيه في بوينس آيرس. أغرتنا فكرة أن نكون

شباناً، أن نكون من سكان الأرجنتين الذين يمتلكون كتباً وأفكاراً عالمية. أغرتنا كذلك فكرة جديدة للإيمان بالأمة وجغرافيتها وتاريخها. أغرت ثلاثتنا حقيقة أننا لسنا إسباناً يثرون من التهريب ويركضون عائدين إلى إسبانيا، وأغرانا أننا لا نشبه الأغنياء الذين يخزنون القمح ليرفعوا سعر الخبز.

لا أعرف في الحقيقة إن كنا يغوي بعضنا بعضاً. أنا نحيل وداكن، شفتي العليا كبيرة، أغطيها بشارب أسود شعراته الغليظة كالأسلاك ولهذا تبدو لي عدوانية كأنها تهاجم وجهي بلا شفقة. أدافع عن نفسي ضد هجوم الشعر حالقاً خدي ثلاث مرات في اليوم مستخدماً المرآة لأتأمل الغضب المتأجج في عيني الفاتحتين – اللتين ليستا هكذا فعلاً – الموضوعتين في كل هذا السواد. أحاول أن أعوض مظهري المتوحش بإيماءات هادئة وبهدوء كنسي تقريباً. أما خابيير دوريغو فقد كان دميماً، أحمر الرأس، شعره مقصوص حتى الجمجمة، وهذا جعله يبدو كشيء ليس هو: كصياد بشر، كمراب، ورجل دقيق في الحسابات، ويلخص ما تبقى جمال جلده الشفاني والمتلألئ كبيضة مضاءة من الداخل بلهب أبدي.

وبالتاسار...

تدق ساعات الساحات في أيام أيار هذه ونعترف ثلاثتنا كم نحن مسحورون بالساعات. نعجب بها، نجمعها، ونشعر هكذا أننا نمتلك الزمن، أو، على الأقل، لغز الزمن، كي نتخيله يعود إلى الوراء أو يأخذنا بسرعة إلى لقائنا مع المستقبل إلى أن نرفض تلك الفكرة ونعرف الزمن كله بأنه الحاضر: الماضي، الذي لا نذكره وحسب، وإنما الذي نتخيله أيضاً بقدر ما نتخيل المستقبل، بحيث يكتسب كلاهما معنى. أين؟ فقط هنا، اليوم، يخبر بعضنا بعضاً، بدون كلمات، حين نعجب بالمجوهرات التي يجمعها دوريغو بفضل نقود والده: ساعة على شكل عربة، مغطاة بقبة زجاجية، ساعة منبه، ساعة علبة سعوط.. وأمتلك كنزي الخاص الذي ورثته عن أبي، الذي، لسبب ما، لم يبعه وهو ساعة تمثال للمسيح:

الصليب يطغى على الأعمال كلها ويحدد، كتذكرة الموت، ساعات هوى المسيح وموته.

صرخ دوريغو حين أبهجتني ساعتي الدينية: «أيها المواطنان، تذكرا أننا الآن مواطنون». وهذا أغرانا وجمعنا سوية: اسم الجماعة هو المواطنون.

وبالتاسار؟

علمه في مزرعة والده مدرس يسوعي من الذين، رغم أن الملك طردهم، رتبوا عودتهم في ثياب دنيوية ليقوموا بمهمتهم الاستحواذية بيننا: علمونا أن أزهار وحيوانات أميركا اللاتينية موجودة، أن هناك جبالاً وأنهاراً أميركية، وقبل كل شيء، أننا نملك تاريخاً ليس إسبانياً وإنما أرجنتيني وتشيلي ومكسيكي...

وقف والد بالتاسار دون خوسيه أنطونيو بستوس مع التاج ضد الغزاة الإنكليز ووقف ضد بونابرت في إسبانيا. وهذا سر نفوذه الذي مكنه من الحصول على وظيفة لبالتاسار، طالب القانون، في المحكمة العليا في أثناء المحاكمات التي وجهت فيها تهمة الخيانة والتقصير إلى نائبي الملك سوبريمونتي ولينيرز ذوي السمعة السيئة. اتهم سوبريمونتي بالتقصير في واجبه وإهمال الدفاع عن الميناء أثناء الغزو الإنكليزي في 1806 و1807 حين هرب من الهجوم البريطاني وفر بالأموال العامة وترك الدفاع عن بوينس آيرس لرجال الميليشيات الكريبوليين الذين تصدوا للجنود الإنكليز في النهاية وحظوا بالأهمية التي تنامت كموجة طامية وصلت إلى قمتها في أثناء أيام أيار الثورية. وكانت سخرية تلك المحاكمتين أن لينيرز هو الذي قاد رجال الميليشيا الذين هزموا الإنكليز. ولكن حين تحركت الأحداث بسرعة نحو الاستقلال فقد لينيرز الشجاعة وتردد وتشاجر مع الجميع (عدا، كما قيل، محظيته الفرنسية، مدام برنيتشون) وتحول من كونه بطل الدفاع ضد الإنكليز إلى كونه شيئاً باطلاً في أثناء المعركة من أجل الاستقلال.

حين أصغى صديقي بالتاسار، الموظف القانوني، إلى الاتهامات الموجهة ضد البطل السابق، تخيل أنه ارتفع إلى منصب عظيم بفضل الروح

الجديدة للأحداث وسرعتها.كتب جميع هذه الأمور في السجل الذي أرسله إلي فيما بعد، في نقطة معينة من صداقتنا الطويلة والتي لا يمكن التنبؤ بها. بما أن لينيرز حوكم غيابياً، ينبغي علي أن أتخيله جالساً هنا، لمته المستعارة نصف مبودرة، قوي في يوم ما وضعيف في يوم آخر. وعلى ما يبدو، كل ما نحتاج إليه هو اعتراض واحد لنجرد البطل من أوسمته ونحاكمه. أنت تعرف، يا فاريلا، أتخيل ناراً هاربة تمر عبر عيني لينيرز، أراها وأتساءل إن كنا نحن الأصدقاء الثلاثة، من مقهى دي مالكوس، مطلعين على الأحداث. أعيش هذه الأيام بتوتر ولكنني أخشى من أنه مقدر علينا أن نستمتع بمجد غير مؤكد ستستنفده أرواحنا المستعجلة بسرعة.أكتب أسماء ثلاثتنا،اسمه: خابيير دوريغو. اسمك: مانويل فاريلا. واسمي، بالتاسار بستوس. أستطيع أن أرصد تاريخ أسمائنا لكنني لا أقدر أن أمنحها مصيراً نهائياً. وحين أفكر بثروات لينيرز، البطل ليوم واحد، الخائن في اليوم التالي، أريد أن أتجنب انحرافاً للقدر كهذا .مع ذلك، أسأل نفسي أحياناً سؤالاً مزعجاً: هل نستطيع توقع أي شيء عدا معرفة أن أمامنا مصيراً لا نقدر أن نسيطر عليه؟ ألن يكون هذا المصير الأكثر مدعاة للحزن الذي يمكن تخيله؟

تلقيت هذه الملاحظات من صديقي وتخيلته يقوم بمهماته كموظف في محاكمة نائبي الملك بصبر يستحق المديح.

ما لم أعرفه هو أن بالتاسار كان يكرر، بوسوسة، تعاقباً للأحداث.

ترأس جلسات المحكمة المركيز دي كابرا العجوز الجاف الشكاك. لم يحدق أبداً بالموظف بالتاسار، لكن بالتاسار انتبه جيداً إلى رئيس المحكمة محاولاً أن يقرأ أفكاره راصداً جميع حركاته. قبل كل شيء، وكما سنرى،حسده بالتاسار.

تابع بالتاسار الكتابة وتظاهر بأنه كان يفرز الورق بعد أن انتهت جلسة اليوم. حين طلب منه أن يغادر الصالة اعتذر متظاهراً أنه منشغل جداً وغادر من باب جانبي مقدماً من خلال إيماءاته انطباعاً بأنه يعرف طريقه

في البناء بشكل أفضل من أي شخص. كانت الأبواب الرئيسية مقفلة وكان عليه أن ينحدر في الرواق ويخرج من باب في الخلف.

سار عبر إحدى الصالات على إيقاع حذائه ذي الأبازيم الذهبية والكعب العالي، ضاماً السجلات على قميصه القطني ومبعثراً بين أسافل سترته الطويلة والفتات الذي تجمع في حجر بنطلونه المخيط من قماش النكين، بقايا اللفافة التي تناولها خفية. وبدلاً من أن يغادر المبنى دخل إلى المكتبة الفارغة، واختبأ بين الأكداس منتظراً، بنفاذ صبر، انطفاء الأضواء. أخبره والده سراً: خلف المجلدات السميكة التي تحوي أعمال آباء الكنيسة، هناك طريق سرييدخل منه رؤساء المحكمة العليا إلى غرفهم الخاصة، دون أن يراهم أو يعيقهم أحد. انتظر نصف ساعة أخرى، ثم حرك إصبعه على المجلد الرابع لكتاب القديس توما بحث في اللاهوت. ببطء وصمت انفتحت الحزمة – لاحظ بالتاسار أن المفاصل كانت مزيتة كما هو الأمر دائماً وبشكل تام. قاده الممر إلى فناء تظلله شجرة خوخ، لكن كانت هناك كرمة رمادية مغبرة سمحت لرجل رشيق أن يتسلق من الفناء إلى الشرفة. وبدا كأن النبات المتعرش دعا الجسد الشاب كي يصعد ويحتفل بقدوم أيار وانتهاء حرارة الصيف الرطبة التي لا تحتمل في ريو دي لا بلاتا، والتي تحول الملابس إلى جلد ثان دبق غير مرغوب فيه.

هب نسيم بارد بلمسة صقيعية في البلاتا وكأنه يريد أن يقمع الأرواح الحماسية للمدينة الثورية، التي تجددت من السرعة التي كانت تحصل بها الأحداث. في الثالث عشر من أيار حملت سفينة إنكليزية (دائماً إنكليزية) الأنباء: احتل الفرنسيون إشبيلية، لم يفرض نابليون السيطرة السياسية على إسبانيا وحسب، وإنما أيضاً السيطرة الاقتصادية. لم يعد هناك إسبانيا. لم يعد هناك الملك فرديناند السابع. ما الذي ستفعله مستعمرات إسبانيا في العالم الجديد؟ يمتلك نائب الملك الأرجنتيني قوة واحدة وحسب: نظم رجال الميليشيا لرد الغزوات البريطانية واستبدال نائب الملك غير الكفء. كانت الأفواج التي سحبت دعمها لنائب الملك

إدالغو دي ثيثنيروس قائلة: «لا تمثل أي شيء الآن»، في عشرين أيـار هـي رجال ضفة النهر، رجال السهول، الشرفاء، الذين تجمعوا حـول كورنيليـو دي سافيدرا، القائد العام للشرفاء، وأعطوه السلطة ليحكم. في 21 أيار ظهر حليف سافيدرا الخطيب الناري اليعقوبي خوان خوسيه كاستيي في بـلازا مايور مع ستمائة جندي مسلحين جيداً ويعتمرون قلنسـوات، أطلـق عليهـم الناس اسم «الفيلق الشيطاني» وأجبر نائب الملك أن يعقد اجتماعاً مفتوحاً في قصر المدينة حيث صفق بالتاسار بستوس لخطاب كاستيي باهتياج شديد...

«أسلوبه مذهل، سلوكه جسور وروحه جريئة» كما لاحظ صديقنا في تلك الليلة في مقهى دي مالكوس.

«ورسالته واضحـة جـداً: لم يعـد هنـاك سـلطة إسبانية عليـا. هكـذا، السلطة تعود إلى الشعب، إلينا. إن كاستيي هو التجسيد الكريبولي لروسو.»

وتجرأت علـى اقتحـام حماسته قـائلاً: «لا - لقـد ابتكـر تلـك الفكـرة فرانسيسكو سواريث منذ مائتي عام وهو عالم لاهوت يسوعي. انظر وراء كل فكرة جديـدة وستجد فكـرة قديمـة، والـتي يمكـن أن تتكشـف علـى أنهـا كاثوليكية وإسبانية - وهو شيء مؤلم كما هو الأمر بالنسبة إلينا.»

ابتسمت وأنا أقول ذلك، لم أرغب أن أجرح حساسية صديقي المتنـورة، ولكن في تلك الليلة لا شـيء كـان قـادراً علـى إطفـاء حماسـته الـتي كـانت فلسفية أكثر مما هي سياسية.

«طـالب سـافيدرا بسـلطة كليـة للمجلـس البلـدي». كاسـتيي طـالب بانتخابات عامة. ما الذي سنفعله؟

تدخل صديقنا الثالث خابيير دوريغو: «ما الذي تريده؟»

قال بالتاسار: «المساواة.»

جادل دوريغو كما هي عادته: «بدون حرية»؟

«نعم، لأنه يمكن أن ننتهي إلى الإعلان عن الحرية دون أن نتخلص من مشكلة اللامساواة، وإذا حدث هذا ستفشل الثورة. إن المساواة هي فوق كـل شيء.»

كان بالتاسار بستوس يكرر جملته حين توقف، للحظة فقط، في مركز الفناء المحاذي لجناح الإقامة في قصر المحكمة العليا، أمام الكرمة التي تصل إلى الشرفة خارج غرف الرئيس وزوجته. فُتح باب جناح الخدمة وقدمت يدان سوداوان صرة حية نائمة لكنها دافئة وتتنفس.

قال صوت المرأة السوداء: «لا أفهم لماذا ينبغي عليك أن تعقد الأمور هكذا يا سيدي الشاب».

«سيكون من السهل الدخول من مدخل الخدمة وأخذ...» بكت المرأة واتجه بالتاسار إلى الكرمة حاملاً الطفل بين ذراعيه. ما كان سيفعله لم يكن سهلاً لرجل نشيط، زائد الوزن دون أن ننسى أنه حسير. يمكن أن يشكل النبات المتعرش دعوة لجسد شاب كي يصعد ويحتفل ببرودة أيار لكن جسد صديقي بالتاسار، في سن الرابعة والعشرين، كان نتاج حياة اتسمت بكثرة الجلوس والقراءة والعزلة الاختيارية وبالاحتقار المتبجح لحياة الريف التي عاشها طفلاً والتي استمرت حياة لوالده وأخته هناك في السهول المعشوشبة. باختصار، ربى بستوس بنية جسم كانت، بالنسبة إليه، غير محلية، متحضرة فكرية ومتمردة: وهذا يناقض عادات الريف، والمستعمرة، والكنيسة وإسبانيا البربرية. اعترف بسخرية أن بنية جسمه لم تكن ملائمة لما كان يفعله: تسلق عريشة بعد منتصف الليل وهو يحمل صرة بين ذراعيه. بصيغة أخرى: رأى نفسه كمديني ومصقول ونادراً ما رأى نفسه رومانسياً.

لم يكد يضع قدمه على العقدة الأولى في الكرمة حتى أدرك أنه إذا لم يلاحظ أحد استكشافه الأولي السابق للممر فسيكون السبب في هذا أنه لا أحد يقدر أن يتخيل شيئاً جسوراً كالشيء الذي كان يفعله، لا أحد سيفحص الكرمة ليشاهد إن كان قد تم التسلق عليها. لقد نما النبات المتعرش وحده ولم يحتج للرعاية أو العناية. أما المروج فينبغي العناية بها وأشجار الدراق ينبغي أن تشذب. لكن لم يفتش أحد النبات المتعرش المتروك لغباره الظامئ، كي يكتشف ما فعله بالتاسار بستوس في ليلة الرابع

والعشرين من أيـار 1810: تسلق إلى شرفة زوجـة رئيـس محكمـة بوينـس آيرس العليا حاملاً طفلاً أسود بين ذراعيه، دخـل إلى غرفـة نومهـا، أخـذ الطفل الأبيض للرئيس وزوجته ووضع مكانه الطفل الأسـود الواصـل حديثـاً إلى العالم رغم أن مملكته هي مملكة مطابخ وضرب ولعنات.

(2)

نسـي إعـلان أن أوفيليـا سـلمنكا، زوجـة المركـيز دي كـابرا، رئيـس المحكمـة العليـا، قـد أنجبـت في أثنـاء الاضطرابـات في شـهر أيـار ذاك في بوينس آيرس. حين وصلت السفينة الإنكليزيـة الـتي حملـت الأنبـاء الـتي أفادت أن إشبيلية سقطت طفت ثلاثة قرون من العادة، من الإخلاص للتاج الأسباني، من التبعية لخطط تجاريـة وضعـت في إشـبيلية ومكتـب الآنديـز التجـاري، في الجـو، للحظـة دهشـة واحـدة، ثـم سـقطت وتحطمـت علـى الأرض: إذا لم يكن هناك ملكية في إسبانيا، أيمكن أن يكون هناك اسـتقلال في أميركا؟

ولد الطفل دون حـزن أو مجـد وفي أثنـاء الألم الظـاهر لأوفيليـا سـلمنكا التي وبخت زوجها لأنه أخذها من جنرال إقطاعية تشـيلي حيـث تمتعـت بالرفاهية والخدم الخلاسيين ومولداتها الهنديات، ليسـلمها لخـدم بوينـس آيرس السود. وهذا بالإضافة إلى الرحلة مـن سـانتياغو إلى ريـو دي لا بلاتـا التي استغرقت شهرين تقريباً.

«وكل هذا من أجل محاكمة نائبي ملك حكم عليهما مسبقاً بعدم الكفاءة وبالفشل في الحفـاظ علـى النظـام»، هـذا مـا قالتـه أوفيليـا سـلمنكا موبخـة زوجـها.

أذعن لوكاديو كـابرا لرغبـة زوجتـه التشـيلية الجميلـة والمستقلة في أن تستعيد اسم بتولتها. وشرحت لـه لمـاذا: «أولاً، يـا عزيـزي، لأنـه ينبغـي

علينا أن نبدأ بالدفاع عن حق النساء بالاحتفاظ بأسمائهن، أي شخصياتهن، ثانياً، لأنه إذا استخدمت اسمك سوف يناديني الناس لا كابرونا ولا أريد أن أعرف كابن أو بنت عاهرة.»

صاح زوجها الغاضب: «إنك تشيلية حتى العظم. لا تخدعي نفسك: سلمنكا هو اسم والدك وليس اسمك وكان اسماً لجدك. ما من طريقة تنجين فيها من اسم رجل أيتها الإوزة.»

«لم يكن هناك أوفيليا سلمنكا سواي»، قالت التشيلية الكرييولية الجميلة بكبرياء.

كان بالتاسار بستوس يشاهدها وهي عارية لأول مرة من خلال ستائر غرفة النوم الرقيقة، التي كانت مجرد حجاب أول على كون تضفي عليه الغموض عدة طبقات من حماقة الموصلين: التجعدات الدائمة على السرير المظلل وأيضا ناموسية البعوض التي أهمل الخدم نقلها، القماش الشفاف فوق المزينة حيث كانت أوفيليا سلمنكا تجلس عارية أمام المرآة مقدمة لعيني بالتاسار بستوس الحسيرتين، لكن المنذهلتين، جسداً مصاغاً كساعة زجاجية، كغيتار أبيض. كانت تدير ظهرها إليه لكنه انذهل من الكمال الدائري لردفيها المتماسكين، الثمرتين التوأمين تحت خصر أكثر تماسكاً ونحولاً وكأنه كان يمكن أن تتعايش في جسد إنساني واحد كمالات فريدة: خصر أهيف، ردفان مستديران متماسكان وناعمان، لكن ليس مثل الخصر. وليس هناك خلية لا ينبعث منها العطر، انسجام كامل دون أية ثنية، ردفان شهوانيان، توأمان للقمر. وهذا إذا فكرنا أنها أنجبت منذ عدة أسابيع.

بودرت جسمها دون مساعدة خادمات المخدع ومنعته البودرة من مشاهدة ثدييها بوضوح وهكذا عشق بالتاسار بستوس ظهرها وخصرها وردفيها وصورتها الظلية أيضاً ذلك أن أوفيليا سلمنكا، حين بودرت ثدييها، لم تقدم إلا نصف وجهها للتأمل المنتشي لساكن بوينس آيرس الشاب، القارئ التام للمثل البعيدة. كان يرغب أن يشاهد تمرداً رومانسياً

في ملامحها لكن ما أحبط رغبته هو التمام الكلاسيكي لجبينها الوضاء، أنفها المستقيم، شفتاها المكتنزتان، ذقنها الإهليلجي، وعنقها الطويل، الذي يشبه عنق طائر التم. كان الأمر مثل رؤية ليدا في الأسطورة: كان مسحوق الأرز هو طائر التم الذي غلفها وامتلكها وحجبها عن عيني المعجب بها محولاً إياها إلى ما رغبه أكثر من أي شيء آخر: مثال لا يمكن تحقيقه، العروس الخالصة للرغبة الخالصة، المحرمة على اللمس.

امتزجت قراءاته العاطفية لروسو مع التعاليم الباردة لآباء الكنيسة: كان بطل بالتاسار بستوس الفكري هو مواطن جنيف الذي طلب منا أن نمنح أنفسنا لعاطفتنا لكي نقدر أن نشفي أرواحنا، بينما لعن القديس يوحنا فم الذهب الحب المثالي الذي لا يكتمل لأن لهيب العواطف يزداد توقداً.

كان القديس يعرف أنه حالما نحصل على هدفنا الدنيوي تبرد العادة أي هوى. كانت المسافة بين الشرفة التي تجسس منها بالتاسار ورغب ودخل في صراع مع مشاعره وبين موضوع رغبته المتلئ، مغطاة، في تلك اللحظة، بسديم من الضباب والبودرة، جعلها، لسوء الحظ، أكثر حميمية مما كانت لهذا الشاهد البعيد على جمال أوفيليا سلمنكا، الذي لا يمكن الظفر به، والذي لم ينجح إلا في زيادة عاطفته.

كانت تلك هي المرة الأولى التي شاهدها فيها وهو يتجسس من الشرفة مكرراً الفعل الذي سيرتكبه من أجل العدالة.

في المرة الثانية كان يرافقها زوجها الذي سار فاقداً للصبر حول السرير، دافعاً الحجب النسيجية دون مساعدة خادمه. ربما كان موضوع حديثهما يستدعي السرية: كان المركيز يشكو أن زوجته أوفيليا لم تكن ترضع الرضيع وأن ولده منح لإحدى مرضعات بوينس آيرس. اشتاق لتشيلي وهنودها إذ أن ريو دي لا بلاتا كانت غاصة بالسود الذين يشكلون نصف السكان تقريباً. لا أريد أن يترعرع ولدنا محاطاً بالسود، قال الكريبولي العجوز، الذي وصل إلى منصبه الحالي من خلال إخلاصه الشديد للتاج. طلبت منه أوفيليا سلمنكا ألا يقلق لأن الأطفال السود لا يذهبون إلى المدرسة

مع البيض، لا هنا ولا في أي مكان. فقبل وقت ليس بطويل، جلد خلاسي في كتماركا حين اكتشف الناس أنه تعلم القراءة والكتابة.

قال المركيز، الذي بدا أنه مصنوع من الرخام، لزوجته: «إذا كانت شهيتك الملعونة للأشياء الجديدة والمرعبة تتطلب محفزاً، دعيني أخبرك يا عزيزتي أنه هنا، في بوينس آيرس، ومنذ شهرين، حكم على محظية سوداء، مصابة بمرض السفلس الفرنسي، لأنها تجاسرت على امتلاك طفل. ولقد حكم عليها بالجلد العلني وذلك كي تشفى من مرضها ومهنتها وأمومتها في الوقت نفسه».

«أنا متأكدة أن هذا شفاها من عهرها ومن السفلس»، هذا ما قالته أوفيليا ببساطة وبرودة حين أنهت ارتداءها لملابسها وكانت هذه المرة أكثر قرباً من عيني بالتاسار بستوس، الذي لم يترك وسيلة إلا واستخدمها، ليرى المشهد المثير كما حدث في المرة الأولى. حين شاهدهما معاً أدرك أن لون جلدها خزفي مثل زوجها.

كانت أوفيليا سلمنكا ترتدي ملابس إمبراطورة لكنها اتجهت عكس الموضة من خلال تغطية ثدييها بحماسة وكشفها، بدلاً من ذلك، لساقيها وتقويس عجيزتها. وليس هذا ما أثار بالتاسار بستوس حين رآها مرة ثانية وحسب، إنما أثاره أيضاً عنصران في تبرّجها: الأول هو شعرها الحليق وفق أسلوب المقصلة، الحليق حتى قفا العنق وكأنه يريد أن يفتح طريقاً للشفرة الثورية. كان العنصر الآخر هو الشريطة الرقيقة من الساتان الأحمر المربوطة حول عنقها كخيط من الدم المترف وكأن المقصلة قد قامت مسبقاً بعملها.

قالت أوفيليا سلمنكا لزوجها شيئاً بصوت منخفض فضحك قائلاً: «اصبري يا حبيبتي سنمارس الحب بعد أن نخمد الثورة.»

«حسناً إذن، تابع محاكمتك لنائبي الملك بحيث نقدر أن نعود إلى تشيلي بالسرعة الممكنة.»

«من الصعب جداً إقامة محاكمة حين تريد البلاد كلها قتلهما. ليس الوقت ملائماً من أجل العدالة.»

«إذاً ارتكب عملاً ظالماً. هذا لن يكون الأول في مهنتك، ودعنا نخرج من هنا.»

«نحن مرتاحان هنا وأنت أنجبت لتوك. هل تريدين فعلاً أن تسافري مع رضيع عمره شهران؟»

«بوسعنا إحضار مربية.»

«إنها سوداء.»

«لكن لديها حليب. وهذا مثل السفر مع بقرة. ثم إن هذا البناء يخيفني. أكره أن أعيش في المكان نفسه الذي تعمل فيه. إنك تحكم على كثيرين بالموت والسجن.»

«إنني أقوم بواجبي وحسب.»

«وأنا لا أحب الرجال الضعفاء. إنني أشكو من شيئين يا لوكاديو: إن ماضيك يثقل عليك كثيراً. وفي سانتياغو على الأقل لم تكن المحكمة ومقر إقامتنا في المكان نفسه.»

«ربما ستبهجك هدية يا حبيبتي.»

«أي شيء عدا الأزهار فأنا أكرهها وفكر بما تحبه فيّ.»

قال زوجها بنفاذ صبر: «ما الذي تريدينني أن أفعله؟ لقد أحضروني إلى هنا من تشيلي لأنني غير متحيز ومتحرر من التأثيرات المحلية.»

«حباً بالله! أعرف هذه النغمة جيداً. العدالة للأصدقاء. القانون للأعداء. أنت محق. ثمة اختلاف ولقد بدأت أضجر.»

«حسناً، ماذا أحضر لك إذا كنت لا تريدين أزهاراً؟»

«ضع خمسة وعشرين شمعة حول مهد طفلي وكل واحدة لعام من عمر أمه. ربما بهذه الطريقة نستطيع أن نبعد الأشباح.»

«طول حياتك؟»

قالت: «نعم. أنت فعلاً تتبنى النظرة الطويلة إلى الأشياء. كلما تقدمت في السن كلما ازداد خوفي.»

«أيتها المسكينة. وحين تموتين؟»

«ستنطفئ الشموع فوراً يا لوكاديو وابني سيصبح رجلاً. انظر إليه.»

نقش بالتاسار ذلك الحديث على روحه ولكن في الزيارة الثالثة والأخيرة لم يكن والدا الطفل هناك رغم أن الشموع الخمسة والعشرين كانت حول المهد. استبدلا المربية السوداء التي سلمت بالتاسار الطفل الأسود في الفناء.

بستوس، الحسير واللاهث، أزاح الستائر ودخل غرفة النوم. تحرك بسرعة: وضع الطفل الأسود قرب الأبيض في المهد وتأملهما لمدة ثوان. لقد أصبحا بفضله توأمين في الثروة ولكن للحظة واحدة فقط. أخذ الطفل الأبيض ولفه بأسمال الفقير ثم قمط الأسود برداء النسب الرفيع. عاد إلى الشرفة حاملاً الطفل الأبيض فاقداً للبصر، متعثراً حين بدأ الطفل – أيهما؟ – يبكي. لكن رنين الأجراس ورعد البنادق بين 24 و25 أيار 1810 أغرق صوت البكاء.

حين لمست قدما بالتاسار الأرض هز رأسه ذا الخصل العسلية كله مع عينيه العذبتين وأنفه الروماني. ولسوء الحظ كانت الصورة التي تخيلها صورة رجل بدين وحسير. كيف تقع تلك المرأة الرائعة في حبه؟ لقد عبدها على أية حال على الرغم من اختطافه لابنها، خصمه الأكثر إثارة للخوف، لكنه منح نفسه للهيام الذي امتلكه ولم يبحث عن شرح مقتنعاً أن الهوى الذي لا نمسكه من ذيله ونتبعه طول الطريق لا يظهر لنا وجهه أبداً ويترك، بدلاً من ذلك، فراغاً أبدياً في أرواحنا.

خدشته الأغصان. كان ثوب الطفل الخارجي مغطى بالغبار والأوراق الذاوية. ظهرت الأيدي السوداء من جديد مرتجفة هذه المرة عند مدخل الخدمة وتبعهما بالتاسار بستوس ناقلاً عبئه إليهما وقال بهدوء: «هذا هو الطفل الآخر. دعيه يعيش قدره الخاص.»

(3)

عاد بالتاسار من الطريق الذي سلكه لينفذ، كما اعتقد، صيغة من العدالة أكثر قسوة، فعلاً يمكن أن يعتبره الآخرون إجراميا. أراد أن يتجنب المغادرة من باب الخدمة هذه المرة لأنه كان خائفاً من معرفة المكان الذي أخذت إليه المرأة السوداء طفل أوفيليا سلمنكا. وكما قالت الظئر السوداء: إنه يعقد حياته مرة ثانية. عاد إلى المكتبة حيث نام دون أن يعرف أن الجدل الذي احتدم طول الليل في المجلس البلدي صف التجار الكرييوليين الكبار والمدراء الإسبان ضد المحامين والأطباء ورجال الجيش والفلاسفة من أمثاله. وحتى لو أنه لم يتم اختياره ليمثل الإرادة العامة في المجلس فإنه فعل شيئاً أفضل: نفذ الأفكار الثورية عملياً. فعل في الحياة الواقعية ما أعلن غالباً (أو قيل في الخطابات) حول طاولات مقهى دي مالكوس، الذي كان مكان اجتماعاتنا، مشهد المجادلات السياسية والفلسفية الأكثر سخونة في بدايات القرن التاسع عشر في بوينس آيرس.

هناك تذوق ثلاثتنا – بالتاسار بستوس، خابيير دوريغو وأنا، مانويل فاريلا – الأفكار مع المعجنات والشوكولاتة الحارة. كنا نعرف أننا مواطنون في مدينة كانت ثروتها، كميناء، تستند إلى تهريب السود والجلود والحديد، ستضيع الجلود والسود في الطريق، كما يقولون، وتعيد الظهور على رصيف الميناء، في الساحات، في المطاحن، والأسواق. كان الحديد يأتي من فرنسا لأنه ليس لدينا صناعة، وليس هناك حتى مناجم كما هو الأمر في المكسيك والبيرو. كل ما لدينا هو الخداع – الجلد، الصوف، اللحم المملح والشحم الحيواني متوفر بكثرة، لكن لا يمكن تسويق هذه المنتجات إلا وفقاً لنسب تحدد في مدريد وهكذا تتحول حتى الصادرات في بوينس آيرس إلى مهربات. لكن لا يتحدث أحد عن الثروات الكبيرة هنا، ومن المهم أن نشكو ونقدم أنفسنا كأنسباء أميركا الفقراء وهكذا لا نكشف الأساس الاحتيالي لثروتنا. وكان التاج يمنع الجامعات في المرافئ النشطة حيث

تنتشر الأفكار بسرعة وكان غياب النظام التربوي يدعونا إلى الخداع. وهكذا تعلمنا ثلاثتنا، بأنفسنا، وآمنا بالحلم السياسي نفسه الذي اسمه السعادة أو التقدم أو السيادة الشعبية أو القوانين المنسجمة مع الطبيعة البشرية.

كنا نتجادل كثيراً، إما في حرارة الأحداث أو بسبب مراكزنا الفردية. حولنا، حول طاولات المقهى الرخامية، كان الموضوع الرئيسي هو عدد الخيارات السياسية المفتوحة أمامنا بعد غزو نابليون لأسبانيا. هناك حزبان: واحد يعلن ولاءه للملكية الإسبانية والآخر يصر أنه لم يعد هناك ملكية، يتحدث الأول عن الاستقلال القائم فعلاً بينما يختبئ خلف «قناع فرديناند»، أي الولاء القديم لفرديناند السابع الذي اعتقله بونابرت. أولئك الموالون للتاج يدعمون كارلوتا، أخت فرديناند، وابنة تشارلز السادس التي لجأت إلى البرازيل مع زوجها يوحنا السادس البرتغالي. وهي تستطيع أن تحكمنا بينما كان شقيقها في أسر نابليون.

بستوس، فاريلا، دوريغو – كنا ثلاثتنا مترفعين على هذه المسائل السياسية الماكرة والمؤامرات السلالية. وكنا نتحدث عن الأفكار التي تحيا الحياة الطويلة وليس عن الصراعات السريعة الزوال. دوريغو يتبع فولتير، يؤمن بالعقل لكنه يعتقد أنه ينبغي ألا تمارسه إلا أقلية متنورة قادرة على قيادة الجماهير إلى السعادة. أما بستوس فيتبع روسو ويؤمن بعاطفة ستقودنا إلى استعادة الحقيقة الطبيعية وتجمع بين قوانين الطبيعة والثورة كحزمة قمح. إنهما وجهان للقرن الثامن عشر. وهناك واحد آخر لي أنا مانويل فاريلا الناشر. أتبع قناع ديدرو المبتسم، الاعتقاد بأن كل شيء يتغير باستمرار ويقدم لنا، عند كل لحظة من الوجود، ذخيرة نختار منها. إن حاصل الحرية في امكانية الاختيار هذه مساو لحاصل الضرورة. التسوية إلزامية. أبتسم برقة حين أصغي إلى صديقيَّ الدوغمائيين والمتقدين. سأكون راوي هذه الأحداث. سيحتاجني بالتاسار. ثمة لطف صريح فيه، عاطفة جامحة تتطلب مساعدة صديق. دوريغو، على أية حال؛ ملح ودوغمائي كسيده فولتير ولا شيء يوقد فيه المزيد من الاحتقار إلا الأنباء التي تفيد أن هناك

في المكسيك وتشيلي كهنــة يؤمنـون بأفكارنـا ويشـكلون مجموعـات للنقـاش وينشرون صحفاً ثورية. لقد تبنى شعار فولتير المضاد للكهنة: حطِّموا...

وكان هــذا يعـني أن مقهـى دي مـالكوس كـان جامعتنـا، وقرئـت فيـه بعلانية كتب مثل **العقد الاجتمـاعي وروح القوانـين وكـانديد وهليـوس الجديدة** وناقشها، بوسوسة، الشبان الذين كانوا يعارضون المـدراء الإسـبان والمحافظين الأرجنتينيين.

«يتحدثون في قصر المدينة عن الإرادة العامة للشعب.»

«كان ينبغي أن تشاهد وجوه الإسبانيين.»

«حتى أن أحدهم قال إنك لن تسمع أبداً هراء كهذا في اجتماع إسباني.»

صرح بالتاسار بسـتوس، معارضاً أصدقـاءه، أن الأفكـار العامـة لفولتـير وروسو ومونتسكيو كـانت جميعهـا صائبـة وجيـدة ولكـن كـل فـرد حـر في تطبيقها عملياً في حياته الشخصية والمدنية. قال صارخـاً: ليـس هـذا كافيـاً لشجب الظلم العام للعلاقات الاجتماعيـة أو حتـى لتغيـير الحكومـة إذا لم تتغير العلاقات الشخصية أيضاً. لنبدأ بتثوير سلوكنا، اقترح بستوس، ولكن في الوقت نفسه، ينبغي أن نغير الحكومة، اقترح دوريغو وفاريلا.

«لمـاذا تكـون القوانـين صالحـة في بلـد واحـد وغـير صالحـة في جميـع البلدان؟»

«أنت على صواب. ينبغي أن تتغير. إن القانون البشري كوني.»

«هذا ما ينبغي أن تفعله الأرجنتين – ينبغي أن نجعل قوانين الحضـارة كونية. يجب أن نأخذ على عاتقنا مجازفات السلالة البشرية.»

ضحكنا عليه قليلاً، بمودة. كان الجميع يعرفون أن بالتاسار قرأ جميـع كتب التنوير: سميناه كيشوت العقل، لكننا لم نعرف ما الذي كنـا نخشـاه أكثر: تشوشه الفلسفي الفصيح أم تهوره، قراره الكيشوتي لاختبار صلاحية قراءاته في الواقع.

«الآن يا بالتاسار آمل أنك لن...»

«اعمل معنا سياسياً يا بالتاسار.»

«معكما لن أفهم أبداً إذا كان القانون يشمل فعلاً جميع الطبقات. ثلاثتنا أبناء أصحاب مزارع ماشية، تجار، موظفون في نظام الملك. نجازف بخلط حريتنا بحرية الجميع دون أن نتأكد بأن هذه هي الطريقة التي تكون فيها الأمور حقيقية.»

«ينبغي أن تغير الحكومة.»

«الحكومة الجديدة ستغير القوانين.»

«سنرى إن كانت أفكارك ستصبح واقعاً.»

«تبدأ جميع الثورات في الضمير الفردي، وكل شيء آخر يشتق من ذلك.»

«إذن ماذا تقترح يا بالتاسار..؟»

بينما كان ينفذ خطته في تلك الليلة في غرف نوم الطبقة الأرستقراطية، كنت أنا – فاريلا – ودوريغو نعلن مجلساً سياسياً يرأسه كورنيليو سافيدرا، البطل في هزيمة الغزو البريطاني في 1807، والذي ولد قائداً عسكرياً، لكنه كان في الحقيقة محافظاً. رأى بستوس أن سافيدرا يريد الحرية للكريبيوليين وليس للسود والفقراء والمدوسين. كان القائد الآخر للمجلس هو بطل بستوس الشخصي خوان خوسيه كاستيي، رجل الأفكار العملي، الذي جاهد كي يجعل القانون والواقع يتزامنان. بيولوجياً، لم يعد شاباً، كان سافيدرا في سن الخمسين وكاستيي في الرابعة والستين. كان رجل الثورة الشاب هو ماريانو مورينو الذي أحبه الجميع، الذي لا يقهر، الراديكالي، الذي، في سن الثلاثين، جعل المطالب السياسية الأعظم ممكنة للثورة الأرجنتينية الناشئة: كانت التجارة الحرة ضرورية لرفاهية الشعب في ريو دي لا بلاتا. ألهم ماريانو مورينو الشاب والمتحمس والهش الحب في الجميع وسمعنا الرجال الأقوياء والجادين يقولون: «يسحرنا ماريانو مورينو». ظهرت صورته في جميع الأمكنة، دائماً يعاد لمسها لتزيل ندوب الجدري عن وجهه. لكن بستوس اشترك مع والده، مالك الأرض في السهول المترامية الأطراف، في شكوكه بمورينو: خاف أن تضحي المصالح التجارية لميناء بوينس آيرس – التي دافع عنها الاقتصادي الشاب باسم رفاهة الأمة – برفاهة الداخل.

قال خوسيه أنطونيو، والد بالتاسار: «من الذي سيشتري منتجات من لاريوخا إذا كان يقدر أن يحصل على الأشياء نفسها بسعر أرخص من لندن؟ إن الإنكليز يستطيعون، يا ولدي، أن يخفضوا أسعار حتى المعاطف والأحذية».

هز بالتاسار عرف خصلاته ذات اللون العسلي ولم يعر أي اهتمام للمجادلات الاقتصادية والسياسية: صرح، أثناء سهرنا في مقهى دي مالكوس أن مشكلة الثورة ليست أسعار المعاطف أو التنافس التجاري بين إسبانيا وانكلترة. إن مشكلة الثورة هي المساواة والعدالة. لماذا ليس هناك قوانين صالحة لجميع الأمم وجميع الطبقات؟ لماذا هناك قوانين تأخذ من البشر الذين يعملون وتمنح البشر العاطلين عن العمل؟

أضاف وقد غطى البخار نظارته: «هذه هي مشكلة الثورة.»

لكن مجلس الثورة الذي ترأسه سافيدرا وكاستيي ومورينو وبلغرانو منح السلطة كلها للعسكر والوطنيين. أزيل الموظفون الإسبان من المكتب وطرد نائب الملك والقضاة المتجولون إلى جزر الكناري – إلى أين أيضاً؟ – كان التاريخ يتحرك بسرعة لا يمكن قياسها لكن بالتاسار بستوس نام مريحاً رأسه على مقعد في المكتبة معزولاً عن الشغب الحاسم في الشوارع، راضياً أنه قام بواجبه.

ما حلم به أصبح حقيقة الآن. طفل أسود محكوم عليه بالعنف والجوع والتمييز سينام من الآن فصاعداً على سرير النبالة الناعم. طفل آخر، أبيض، منذور للعطالة والرشاقة، فقد جميع امتيازاته وسيربى الآن وسط العنف والجوع والتمييز الذي يعاني منه السود الذين سماهم الكريبيوليون «السلالة الملعونة.»

أعلن البطل الشاب لنا، نحن صديقيه، في مقهى دي مالكوس: «المساواة صالحة لجميع الطبقات. دون مساواة ليس هناك حرية: لا للتجارة ولا للفرد.»

محاطاً بالمجلدات المحظورة التي وافقت عليها الرقابة والتي أصدرت رائحة بخور خاصة وأصبحت جزءاً من كابوس حاول بالتاسار بستوس أن

يسقط في نوم العقل مستخدماً ذراعيه كمخدة. تردد كابوس العقل كالأجراس وصوت طلقات المدفعية في صباح 25 أيار في بوينس آيرس. وإذا كـان بوسـع بطل المساواة الثانوي أن يبرر، باسم العدالة، ما فعله، فإن العاطفة والـروح والجانب الآخر من التنوير سيقولون له: «يا بالتاسار بسـتوس لقـد وجهـت ضربة قاضية للمرأة التي تعتقد أنك تحبها. لقد ارتكبت إسـاءة ضـد طبيعـة المرأة الأكثر حميمية. أوفيليا سلمنكا أم وأنت خاطف حقير.»

استيقظ مصدوماً لأن كابوسه جاء تماماً حـين انسـكب طوفـان مـن ضـوء أيار عبر نوافذ البناء الطويلة المشبكة. استيقظ سائلاً نفسه لمـاذا اسـتخدم في حلمه كلمة كابوس بالفرنسية، هل لأنها امتلكت رنيناً أجمـل بهـذه اللغـة؟ منعه الوهج الذي خلفه من الإجابة. نظر إلى حـروف عنـوان الكتـاب الـذي نام فوقه وكأنها ذباب: منذ قرون شجب القديس يوحنا فم الذهـب الحـب غير المحقق لأنه يسمو بالرغبة ويوقع في الخطيئة.

(4)

ظن أنه نام وقتاً طويلاً – طول الكابوس – لكن الأمـر لم يسـتغرق حتـى عشر دقائق. لقد نفّذ الفعل الأكثر كراهية في حياته دون أن يحسب التأثـير الكامل لأفعاله، دون أن يتوقع، قبل كل شـيء، أن رؤيـة أوفيليـا سـلمنكا ستأسره بقوة يتعذر تجنبها. حلم بها – الجزء العذب من حلمه – الطريقـة التي حلم فيها تانتالوس بالثمرة والماء الذي كان يفلت من يده دائمـاً. المـرأة المعذبة: رغب بهـا، رغـب أن لا يملكهـا، بحيـث يسـتطيع الاسـتمرار في الرغبة بها، رغب ألا يكون قد فعل ما فعله، رغب – حالماً طول الوقـت – أن لا يكون عليه أن يقف أمامها أبـداً، قـائلاً: «هـذا هـو ولـدك يـا مـدام. أطلب منك أن تحبيني رغم ما فعلته بك.»

لم يكن يمتلك وقتاً، لأنه نظر، بوعي، إلى ساعته التي كانت تشبهـه – كريستال غير نافذ، جسد مستدير، بريق ذهـبي – وأدرك أن السـاعة هـي

الثانية عشرة والنصف ليلاً. كان الوهج على ظهره، مع ذلك، هو وهج ضوء النهار. لكن هذه لم تكن حرارة أيار بل شباط. وبدأت الكتب تصر بشكل يثير الشبهة. كانت الأوراق المهددة في الكتب المقدسة ترتد، تصبح أوراقاً ميتة. لم يكن صرير المجلدات والرفوف تلميحاً عما سيأتي وحسب وإنما أيضاً نتيجة الأوراق التي كانت تحترق فعلاً في الخارج: ركض بالتاسار بستوس، فتح باب المكتبة، أسرع إلى الصالة التي كانت تقود إلى الفناء وشاهد خصلاته النارية منعكسة في الساحة في ألسنة اللهب. التهب النبات المتعرش، اشتعل الموصلين، اشتعلت غرفة النوم. تجمع الخدم في الفناء مذعورين. نظر بالتاسار بستوس بشكل غريزي وبقسوة إلى الظئر السوداء بينهم. كانت هناك، للحظة وحسب، تهدهد طفلاً مقمطاً، لم يستطع أن يراه، بين ذراعيها. لكنها ذهبت عندئذ. ولم يستطع بالتاسار بستوس أن يقرر أن يتبعها أو يبقى حيث كان، وهذا ما فعله، مسمراً من مشهد النار المندفعة من شرفة غرف القاضي الرئيسية.

التهبت خمسة وعشرون شمعة،كل واحدة لعام من حياة الأم. التهبت الستائر. اشتعل المهد. وبدا الطفل الأسود الذي احترق وشوّه أنه طفل قتل في النار وحسب. حتى الأطفال البيض يتحولون إلى سود حين يحرقون حتى الموت.

(5)

صرح المركيز دي كابرا، القاضي الذي عينه الملك ليرأس المحكمة العليا كي يحاكم نائبي الملك سوبريمونتي ولينيرز: «ما سيحدث هنا هو أنه بدلاً من تحمل سلطة مدريد البعيدة، ستتحمل الأرجنتين الطغيان القريب لميناء بوينس آيرس.» تابع ثرثرته بعد العشاء في الاجتماع المميز للتجار الإسبان والكرييوليين الذين من الميناء: «عليكم أن تقرروا فيما إذا كنتم ستفتحون بوابات التجارة أو تغلقوها.على التاج أن يتخذ القرار حيال مستعمراته. إذا

أغلقتم هذه البوابات ستحمون منتجي الخمور والسكر والنسيج في الأقاليم البعيدة. لكنكم ستدمرون أنفسكم هنا في بوينس آيرس. إذا فتحتم البوابات ستزداد ثروتكم لكن الداخل سيعاني لأنه لن يقدر على التنافس مع الإنكليز. وهكذا سيرغب الداخل بالانفصال عن بوينس آيرس لكنكم ستحتاجون إلى القوة الاقتصادية والسياسية بحيث ستنشب حرب أهلية.في النهاية سيحكمكم الجيش.»

قال دون أدولفو موخيكا، تاجر القمح، مستاء: «العسكر؟ ولكن جميعهم ثوار ومتحالفون مع مجموعة المحامين المتآمرين والأطباء وموزعي المناشير الذين خرجوا من لا مكان».

أردف دون ريكاردو مايبا المشهور بتبرعاته للأديرة التي عبرت عن امتنانها من خلال إخفاء بضاعته المهربة: «حظي العسكر بالهيبة نتيجة هزيمتهم للإنكليز في 1806 وسوف يستمدون هيبة أكبر الآن من مقاتلة الإسبان. إن حلفاءهم هم طبقة المهنيين في بوينس آيرس – بشر لا أهمية لهم: موظفون، كهنة فقراء، ومجهولون آخرون».

«ليهزموا إسبانيا وعندئذ عليهم أن يقرروا بين هزيمة بوينس آيرس – أي جميعكم – أو هزيمة تجار الداخل الذين سيطلبون حماية من تجارة ميناء بوينس آيرس». هكذا اختتم الكلام الرئيس والقاضي الذي كانت سلطته واضحة للجميع من خلال الاحترام الذي قابله به حتى نائبا الملك. بعد كل شيء، سيقوم بنفسه بمحاكمة نائب الملك غداً. ولكن في ليلة أيار هذه لم يكن هناك نائب ملك في بوينس آيرس: لم يكن هناك إلا القاضي، كابرا نفسه. ولم تكن هناك حاجة إلى برهان إضافي لتحديد من كان هو.

«وماذا تنصح سيادتكم؟»

«ينبغي أن تحاولوا خلق طبقة جديدة من مالكي الأرض من صناع الداخل وتجار بوينس آيرس.»

صرخ موخيكا مهتاجاً: «ماذا تقول؟ مالكو الأراضي أعداء لنا، وعلى أية حال هم رعاة بقر جهلة ومتوحشون.»

تابع لوكاديو كابرا برشاقة وثقة: «أنصحكم أن تقسموا الأراضي العامة لتشجعوا تربية القطعان وإنتاج القمح. وعندئذ ستثرون من التصدير وسيضطر الداخل إلى الاستسلام لكم حتى ولو أراد الانفصال. يمكن إخماد الاضطرابات في توكومان ولاريوخا ولكن، في غضون ذلك، سيكون لديهم ما يأكلونه والوقت الذي يجعلهم معتادين على الفكرة. وطالما أن هذه الأرض الخصبة تنتج أيها السادة سيرضى الجميع... ينبغي أن تخصوا هذه البلاد بثروتها»، قال كابرا مظهراً كشرة مفاجئة وحادة صححها فوراً لأنها لم تكن ضرورية.

«سيادتكم رجل حكيم ومن الأفضل أن تحكمنا بدلاً من أولئك الرعاع الذين نسمعهم في الخارج...»

«أوغاد».

«حمقى مخدوعون».

أظهر هذا الاجتماع، أنه بين نائب الملك المختفي في جانب والمجلس الثوري في جانب آخر، كانت الملكية الإسبانية تقف بصلابة، معزولة بكبرياء، هي ورعاياها الأكثر ولاء، عن الفوضى المهيمنة. لكن تلك الفوضى لم تكن بطيئة في دخول الصالون، ذلك أن قواعد السلوك الإنكليزية كانت تؤسس نفسها في الريو لا بلاتا قبل التجارة.

بعد العشاء، انسحبت السيدات فاستطاع الرجال أن يدخنوا السيجار ويشربوا خمرة بوردو الفرنسية الحمراء. لكن ما إن نفثت السجائر حتى تحطمت القواعد: دخلت النساء كالنوارس متألقات في موضة الإمبراطورية المحتقرة – الأماكن التي تكشف بجسارة، والشائعة في باريس، غطيت باحتشام – في هياج كبير من صدمة تتاخم الأسى لكنها منسجمة تماماً مع الزئير والقصف المدفعي ورنين أجراس ليلة الاستقلال الطويلة تلك.

«لقد شبت النار، لقد شبت النار!»

نهض المركيز الخزفي متصلباً وهشاً: «أين زوجتي»؟

«أغمي عليها يا سيدي».

«إن قاعة المحكمة تحترق.»

«أتعنين يا مدام أن الرعاع أحرقوها.»

«متطفلون.»

«حمقى مخدوعون.»

«ماذا قلت أيها السيد الرئيس»؟

ضحك مثيراً كل أساليب الفضيحة: خمسة وعشرون شمعة، واحدة لكل عام...

(6)

توجب على بالتاسار أن يستدعينا للبحث عن الظئر السوداء في شغب ليلة أيار.حققنا مع الخدم المهسترين والباكين في المكان المحترق، وركضنا إلى الحارات الأقل احتراماً في الميناء، هددنا ونسبنا لأنفسنا وظائف ومهمات مختلقة وكنا نعبر كالمتوحشين خلال المواخير حيث كان الرجال يرقصون الفاندانغو مع نساء من سلالات غير محددة، أو بين حشود أطفال الطبقة العاملة الذين ولدوا من حب حر وترعرعوا مع الحيوانات دون منازل أو مدرسة. كانت بالنسبة إلى بالتاسار بستوس المدينة الأكثر حزناً في العالم في تلك الليلة حين كان الجميع يحتفلون.

على أية حال، لم نترك كوخاً نصف غارق على حافة المستنقعات إلا وفتشناه، لم نترك ماخوراً يهزه صخب زبائنه حيث يمكن لظئر أن تمنح الراحة لأخت مريضة منهكة التي بدورها ستهدهد طفلاً أشقر.بحثنا كل ساحة، كل زاوية، كل كوخ على طول النهر.

كان المقهى مغلقاً في تلك الساعة، في ذلك اليوم الاستثنائي، والمدينة حزينة، ولم نحظ بالراحة إلا في مطبعة الميتم حيث شربنا الشوكلاتة الحارة التي بدون زبد وتابعنا ما جمعنا معاً: الحديث.

سأل دوريغو، العقلاني، بالتاسار: لماذا لم تستبدل الظئر السوداء بنفسها الطفلين في المهد بما أنها تمتلك مدخلاً مباشراً إليهما. وتماماً بعد العملية أخبرنا بالتاسار، نحن صديقيه الحميمين، لا لكي يجعلنا مساعدين – لم يكن ينوي هذا – لكن لأنه كان يثق بنا في كل ما فعله.

كان الطفل الأسود ابن أخت الظئر، وهو لهذا – شرح صديقنا – ابن عاهرة مجلودة وقحة بما يكفي لتمنع من الإنجاب. كان خائفاً من أن ترتجف يد الظئر في اللحظة الأخيرة وتتغلب عليها العاطفة. قلت إنني اعتقدت أن بالتاسار، حين عرف بعملية الجلد، قرر أن يطبق العدالة بنفسه. لكن صديقي قال إن الأمر لم يكن هكذا أبداً، إنه لو جرت الأمور بشكل خاطئ لما أراد أن تعاقب الظئر كي لا يضاف ظلم إلى آخر. أراد أن يكون المسؤول الوحيد.

وهنا قال دوريغو ليثير صديقنا: «ليس بعد الآن بما أنك جعلتنا شريكين في جريمتك.»

تدخلت لأهدئ الأمور. واعتقد بالتاسار أن الأساس الفلسفي لأفعاله تطلب منه أن يقوم بها بنفسه. نظرت إلى دوريغو نظرة حادة وأضفت بجدية أن مسؤولية رجل حر تستثني أولئك الذين ينكرون الحرية من الاشتراك في الجريمة.

ابتسم دوريغو: «لماذا تخشى أن الأمور ستسير في الطريق الخطأ يا بالتاسار؟ حسناً، فكر وحسب، لقد حصل ذلك. مات طفلك الأسود، هلك في الحريق. وطفلك الأبيض، حتى ولو عاش في البؤس، فهو حي ويرفس.»

لم يتنازل بالتاسار ويجيب. كان يعرف أن دوريغو يحب أن يتكلم الكلمة الأخيرة وأن هذا لا يهمنا، وهذا لا يعني أن دوريغو على صواب. كنت أنا وبالتاسار نفهم بعضنا بشكل أفضل في الصمت. كنا يافعين جداً والحياة ستصبح سلسلة من القرارات الأخلاقية، واحداً بعد آخر.

صرخ دوريغو: «مات طفل والطفل الآخر حي. تعيش العدالة!»

ثم أضاف بسرعة: «بردت الشوكولاتة.» وكان كل ما قاله بالتاسار: «أنا ذاهب إلى مسقط رأسي.»

الفصل الثاني

السهول المعشوشبة

(1)

«إذا وجدتني ميتاً وثمة شمعة في يدي، هذا يعني أنني اعترفت أخيراً أنك على صواب. أما إذا وجدت يدي متصالبتين على صدري، متشابكتين بالشارة الكتفية، فهذا يعني أنني تشبثت بأفكاري ومت وأنا ألعن أفكارك. حاول أن تفوز عليّ.»

كانت هذه الكلمات، في ذهن بالتاسار، كافية لتشخيص والده، خوسيه أنطونيو بستوس. تذكره واقفاً وسط الزرائب والإصطبلات ومنازل العربات والمستودعات والمشاغل ومطاحن الدقيق ورعاة البقر يودعونه، أو وحيداً حين يخيم ليل كالموت، جالساً على كرسي مصنوع من الجلود، أربعة أوتاد، وجمجمة بقرة. يحبيه...

وهذه المرة سيكون هناك ليقول: «*كيف حالك يا ولدي، أهلاً بك في المنزل،أنت على الرحب والسعة دائماً هنا يا بالتاسار!*»

أو سيقول بدلاً من ذلك: «*وداعاً يا بالتاسار، لقد ذهبت، لم أعد هنا، لا تنسني يا ولدي.*»

كانت السهول تبعد أربعة وعشرين فرسخاً عن بوينس آيرس ويضاف إليها عشرون إلى برغامينو. تصل الأنباء والمسافرون متأخرين. من برغامينو إلى أرض والده، على الجانب الآخر من **الغزال ذي العين الواحدة**، يقطع مسافة طويلة على البغل. لكن بالتاسار بستوس كان يراقب العربات العابرة

المحملة بالأغطية وريش النعام والملح واللجم والنسيج على الطريق ذي الأخاديد العميقة التي ستأخذه إلى والده.

هل سيجده حياً أم ميتاً؟ سيطر الهاجسان على ذهنه وقلبه تدريجياً وهو يشق طريقه إلى منزل والديه. وبدا كأن عالماً شديد الانحدار، كئيباً وغامضاً لاقعر له يحيط به موحياً بأخبار بديلة - حياة، موت - أنباء لم تحضر مثلها غالباً الخدمة البريدية البطيئة أو غير الموجودة (غالباً كلمة أو ورقة).

مهدهداً من اهتزاز مركبة السفر كان بالتاسار بستوس يحاول أن يعثر على معنى في المدينة التي كان يغادرها ولم ير إلا تناقضاً ظاهراً: ولدت بوينس آيرس مرتين. أسسها في البداية بدرو دي مندوزا من المكاسب التي حصل عليها بشكل سيء من سلب روما، مع جنوده الذين يبلغ عددهم 1500 الذين كانوا يتحرقون إلى الذهب، مع نساء متنكرات بزي الرجال اختبأن بين القوات وكن جميعهن جيدات في إيقاد نار المعسكرات والمراقبة. ولكن في النهاية، هزمتهم جميعاً، رجالاً ونساء، الغارات الهندية الليلية على قلعتهم الضبابية، وبسبب غياب الذهب وحضور الجوع أكلوا الأحذية التي كانوا يرتدونها، وقال البعض إنهم أكلوا جثث الموتى. وفي النهاية مات مندوزا، الغازي الذي بدون غزو، من الحمى ورموا جثته في الريو دي لابلاتا. وكانت الفضة الوحيدة التي شوهدت في ذاك النهر، ذي الاسم السيء، هي خواتم مندوزا وهي تغوص إلى القاع.

لم تكن تلك المدينة إلدورادو. لقد هجرت وأحرقت وهدمت. بعد أربعين عاماً أسسها بدرو دي غاراي للمرة الثانية. بناها بشكل جدي، على طراز قشتالي، كلوح شطرنج، مستخدماً صليب مساح الأراضي. واجهت المحيط الأطلسي والنهر العكر التي تنزف فيه شرايين بوتوسي - جبل الفضة - المستنفدة. لم تكن إلدورادو وإنما مدينة حلم بها من أجل الذهب وربحت من أجل التجارة.مدينة حاصرها صمت المحيط الشاسع من جانب وصمت هذا المحيط الداخلي الذي يساوي اتساع المحيط من جانب آخر. كان

بالتاسار بستوس يعبر ذلك البحر الداخلي بالسرعة القصوى تهدهده الخطوة الطويلة الثابتة للأحصنة، حالماً بنفسه وسط صورة الأفق، وسط السهول المعشوشبة وقد اعتراه إحساس بأنه لا يتحرك إطلاقاً. كان الأفق دائم الحضور، أبدياً ولا يمكن الوصول إليه.

وهنا كان، وسط السهول المعشوشبة، متاعه بيديه، يحيطه فجأة قطيع من الخيول البرية، عشرات الآلاف من الخيول التي سكنت السهول كرعاع ينتشرون على الكوكب كله، السلالة الطبيعية للخيول التي تركها الغزاة الأوائل الذين هزموا. استولدت كيفما اتفق، كالسود في الميناء، نمت وتكاثرت بوحشية، برية، طويلة، لا تروَّض. وكان أسيراً وسط تلك الوحوش، غير قادر على الحركة، يشم تعرقها المتلألئ، الزبد اللاذع على لغدها، البول القارص لثلاثين أو أربعين ألف حصان دون أسياد يجتاحون وجه الأرض، يمنعونه من أن يتحرك إنشاً واحداً، يجبرونه على التخلي عن حقائبه المزدحمة بمجلدات روسو وهي يتوسل لقديسه الراعي، مواطن جنيف، طالباً العون: «أجد نفسي على الأرض وكأنني على كوكب غريب...»

استيقظ مجفلاً. كانت أحصنة العربة تعدو بنصف السرعة رابطة الجأش وكان المسافرون الذين يهربون من بوينس آيرس فاقدين لهدوئهم، وهم تجار إسبان ذاهبون لإنقاذ ما يقدرون عليه في كوردوبا وروزاريو وسانتافه أو ليلوذوا في الحصون والمعاقل المضادة للمد الثوري الذي كان بوسعهم رؤيته قادماً تحرضه العواصف الخطابية لمورينو وكاستيي وبلغرانو. لم يقدر الإسبان الأثرياء أن يتخيلوا ثورة في الداخل التقليدي وكانت جميع الشرور، التي هي الأفكار، تأتي إلى بوينس آيرس من البحر. لكن جميع البضائعكانت تدخل أيضاً إلى هناك – وتلك كانت التجارة. دفع ذلك التناقض التجار المحافظين إلى الجنون كما فعل التناقض الذي أقلق روح بالتاسار عندما غادر المدينة وأصدقاءه والثورة وكل شيء ليعود إلى الطبيعة، وفي الطبيعة عثر على «العزلة والتأمل» اللذين سيمكنانه أن يكون نفسه، دون عوائق، وأن يكون، بشكل صادق، ما أرادته الطبيعة أن يكونه.

كانوا يسرعون عبر السهول التي تخلو من الأشجار وكلما صادف وشاهدوا شجرة أومبو منعزلة كان الشيء الوحيد الذي يفكر به المسافرون (وغالباً ما يقولونه): «سوف نشنق جميعاً ونتدلى عن أغصانها.»

من ناحية أخرى، شعر بالتاسار بحرية لا حدود لها في السهل الشاسع. بدت روحه وطبيعته انعكاسين منسجمين لبعضهما بعضاً، منجذبتين بشكل متبادل كعاشقين. كان هذا هو الإحساس الذي نشده وقدره بتوتر كبير حين استيقظ من الحلم المزعج الذي شاهد فيه قطيع خيول برية. تأسف على حضور الإسبان المشتكين الثرثارين في العربة والذين منعوه من إكمال زواجه مع الطبيعة. وترك صخب العجلات على الأحجار وأخاديد الطريق إلى كوردوبا يصمه بحيث يحدث العشاء الأخير الذي يرغب به رغم العقبات، في صمت روحه الذي لا يخترق.

ما الذي سيقوله هؤلاء الرجال الذين لا يعرفهم والذين يسافرون معه إذا أخبرهم بماذا كان يفكر؟

ولكن بدلاً من أن يثيرهم بجملة طنانة: «أهلاً بكم في السهول أيها الأوغاد الإسبان»، بدأ بالتاسار يشعر بالأسف على نفسه. وبعد أن وحَّد نفسه مع ذلك الوجه من اللانهاية الذي هو السهل الأرجنتيني الكبير، كان يريد أن يحقق هدفه في ومضة: أن يوحِّد روحه مع الطبيعة الخالدة. كان قارئ روسو يعرف أن الروح، التي تعيد التوحد مع نفسها، بعد أن تطرح الزوائد، تستطيع، في النهاية، أن تستمتع بالكون، وتمتلك الجمال، الذي يدخل الروح، عبر الحواس الخمس.

والآن، وحيداً على ظهر بغل، في الطريق إلى مزرعة والده البائسة، امتلك أخيراً فرصة أن يتصور ما الذي أعاقه الحضور الصاخب للإسبان المحتقرين في أثناء الرحلة من بوينس آيرس. ومع ذلك، سمح له الضجيج الذي حوله وحلم القطيع الوحشي بعشاء رباني أكثر يقيناً، رغم أنه معاق، لم تسمح به عزلته على ظهر البغل، حيث السهول، شقوقها، أشجار دراقها، فراسخها الكثيرة من التربة الكلسية الصلبة التي لا يسكنها إلا

النعام المجنون، والتي بدت له كحوادث متعارضة وكئيبة جداً. لم تعد السهول مرآة الله على الأرض. والآن، بدلاً من العشاء الرباني الذي رغب به كثيراً، كان كل ما شاهده في الأفق هو المشكلات والتناقضات والخيارات التي لا يمكن الدفاع عنها وكانت جميعها تحتشد في روحه المتفتحة أكثر مما ينبغي.

غادر بوينس آيرس حاملاً متاعاً قليلاً: حقيبة مصنوعة من الأغصان، مظلة وثلاثة أو أربعة من كتبه المفضلة: **هليوس الجديدة، العقد الاجتماعي، الاعترافات، أحلام يقظة السائر المنعزل**. لم يكن الطفل المختطف بين متاعه. اختفت الظئر مع شقيقتها، أم الطفل الأسود التي جُلدت. بحث عنها مع صديقيه لكن محاولاتهم فشلت. وفت المرأتان بوعدهما لبالتاسار بستوس: سيعيش ابن المركيز دي كابرا حياة ابن عاهرة مريضة جلدت علناً. هكذا ستتحقق العدالة بالنسبة إلى بالتاسار. هل ستتحقق بمعاناة أم الطفل الأبيض؟ أظلمت ضفتا الطريق حين حاول أن يبرر، لنفسه، ما قام به كي لا يفوز عل صديقيه الجدليين بحجج سوفسطائية: كان وحيداً على ظهر بغل، مع مظلة وحقيبة مصنوعة من الأماليد وكتب مواطن جنيف. لم يكن هناك أحد ليتحدث معه إلا الطبيعة التي حاول أن يتوحد معها بحرية ومتعة. الشخص الذي عوقب يعاني بحيث أن الشخص الذي كوفئ يمكن أن يعيش حياة سعيدة. هذا هو العرف. لكنه كان عرفاً جزائياً جديراً بباكاريا Baccaria الإيطالية المحتفى بها، وليس بمواطن جنيف الحر بشكل كامل، روسو. لم يكن ناجحاً تطبيق العرف على الذي يعاني، وهو في هذه الحالة امرأة شعر نحوها بالتاسار بستوس، الوحيد، الذي يمتطي ظهر بغل، والذي يبلغ الرابعة والعشرين من العمر، بعاطفة كانت تكبر كل يوم ولا يمكن لجمها.

ألا تستحق أوفيليا سلمنكا إخلاصاً فورياً وغياباً للذات غير اللذين استدعتهما أفكار بالتاسار بستوس - وجان جاك روسو - حول الطبيعة والعدالة؟ اخترقت ظلال الضفاف روحه حين أجاب لنفسه أن هذا كان

صحيحاً. لن يعثر على الطبيعة والعدالة أبداً إلا من خلال شخص حقيقي، شخص محبوب، وخاصة إذا كان ذلك الشخص أوفيليا سلمنكا كما أصبح واضحاً في كل لحظة من ذاكرته ورغبته. مع ذلك، لم يستطع أن يرى نفسه ينتزع الطفل من الظئر وشقيقتها ويعيده إلى المركيز دي كابرا وخاصة بعد أن مات الطفل الأسود. ليس هناك شيء يمنح لهما بالمقابل: كان هذا خطأ. ستكون الأشياء مرة أخرى كما كانت من قبل. سامحيني.

لم يعثر عليهما. لكنهما كانتا ستبصقان كلماته في وجهه: لا شيء يمكن أن يكون كما كان. نحن العبيد عبيد أكثر مما كنا أمس، أكثر فقراً وإذلالاً. والأسياد أكثر غروراً وقسوة وانعدام حس. يستحقون ذلك الألم الذي سببته لهم. سيبقى الطفل معنا ولا يهم إن مات الطفل الآخر، ليبارك الرب مصيره. إنه في الفردوس. أما طفل العاهرة المرتفعة الثمن هذا سيعيش حياة ابن عاهرة رخيصة.

ماذا يستطيع بالتاسار البائس أن يجيب على هذا.

لكنني أحب أوفيليا سلمنكا.

سمع ضحك المرأتين السوداوين بين صرختي طائر. سمع ضحك صديقيه، دوريغو وأنا، فاريلا، ينز من حقيبته. حتى البغل توقف وشحج ضاحكاً عليه بأسنانه الضخمة البيضاء كالذرة الجديدة.

يقول رعاة البقر: إن الشيطان يعيش في حقول الذرة.

(2)

كان خوسيه أنطونيو بستوس ينتظره هذه المرة عند مدخل المزرعة. كان بالتاسار ممتناً ومرتاحاً. ما الذي يهم في النهاية إذا انتظره والده ميتاً بشمعة أو بدونها، بمسبحة أو بلا مسبحة. لقد ودعه وهو جالس على عرش الموت الذي يفضله رعاة البقر من أجل الحديث وهم يشربون المتة ويدفعون الأسى. لكن والده كان ينتظره هكذا، على قدميه، وسط المشاغل والمستودعات والأحصنة ورعاة البقر والدجاج... طالما أنه جاء ليمكث.

كان المسافر يرغب أن يسأل والده: «كيف عرفت أنني قادم؟»

أعاقت هذا السؤال عينا خوسيه أنطونيو بستوس، الكئيبتان والمجوفتان، المركبتان في لحم كان مرة متورداً لكن العمل في مربى الماشية والسهول حوّله إلى جلد. وكان خوسيه أنطونيو بستوس قد عرف لتوه. شعر الابن بالسخافة وهو يجلس على البغل مشوشاً قرب الأناقة المتغطرسة لوالده. كان الشاب موضوع نظرات ساخرة من رعاة البقر الأشداء والأقوياء ذوي الوجوه الجائعة الذين راقبوه حين وصل.

هبط عن ظهر البغل وقاده إلى البوابة الكبيرة التي تفصل الطريق والخارج عن العالم الداخلي، ملكية خوسيه أنطونيو بستوس وأولاده. بني المنزل كقلعة: كان محاطاً بخندق مائي ليصد هجوم الهنود وثمة برج مراقبة في مركزه. كان برج المراقبة الشيء الوحيد المرتفع ويطل على عالم شاسع لامبال وخطير.كان البهو القمة الدافئة والباردة للمجمع البسيط. هناك أمضى بالتاسار فترات الأصيل الطويلة في أثناء طفولته (حين كان لديه طفولة) ولكن خوسيه أنطونيو يفضل الآن أن يتنزه في الخلف، حول البئر، قرب نوافذ المنزل، حيث يستطيع أن يتأمل من هناك مرجاً صغيراً من البرسيم. كان العجوز يتذكر، يتابع المراقبة فيما يسير بالتاسار نحوه.

خطا خوسيه أنطونيو خطوة واحدة خارج ملكيته وخذلته رجلاه. انثنت ركبتاه وأمسك عموداً بينما راقبه رعاة البقر دون أي تبدل في تعابيرهم. ركض بالتاسار إلى والده ليساعده. تنحى البغل واتجه نحو الطريق. أعاقه راعي بقر يضحك بينه وبين نفسه. أدرك بالتاسار أن الجميع كانوا يضحكون عليه وعلى والده، الرجل الذي يقولون إنهم يحبونه ويحترمونه. فر بالتاسار من هذه الوحشية حين كان في سن السابعة عشرة كي يدرس في بوينس آيرس ويصبح رجل زمنه، لينقذ نفسه من وحشية رعاة البقر. وكانت كلمة راعي بقر تشبه كلمة gaucherie الفرنسية التي تعني الخطأ وغير الملائم.

قال خوسيه أنطونيو بابتسامة جلدية كجلده حين أسند ثقله على ابنه: «أترى؟ يبدأ الموت في الساقين؟»

أجاب بالتاسار: «ستأتي معي يا أبي». ثم صاح برعاة البقر: «أدخلوا حقائبي إلى المنزل.»

كان يحب أن يأمرهم ويشعر بذلهم. وقد وبخه والده بنعومة من أجل ذلك. الفضيلة تبدأ في المنزل. إذا أردت أن تكون عادلاً ابداً من أولئك الذين يقومون بخدمتك. لكن بالتاسار نظر إلى رعاة البقر كقطيع مغولي وكان كل منهم جنكيز خان بتاريخه الخاص من العنف والخرافة والغباء، النوع الذي كان فولتير يحتقره دائماً. لم يستطع بالتاسار أن يتصور مستقبلاً يحتوي رعاة بقر. لقد أفسدوا نظرته الرومانتيكية إلى الطبيعة. لا يخزهم ضميرهم حيال ذبح ثور أو وهق حصان أو قتل إنسان.كانوا عملاء هولوكوست غير منتج ترك الريف منقطاً بالجثث. ولقد أساؤوا إلى حساسية بالتاسار أكثر لأنهم كانوا بدواً لن يرسلوا جذورهم في أي مكان، نفياً متنقلاً لحياة الاستقرار التي ربطها بالحضارة.

ماذا عن الطبيعة إذن؟ بالنسبة إلى بالتاسار، تتألف الطبيعة مؤقتاً من زياراته المتقطعة إلى مسقط الرأس. كانت عودة مفيدة إلى أصوله، محرضاً للحركة إلى الأمام نحو مستقبل سعيد، حر ومزدهر ودون خرافات. هكذا فقط ستنقذ الطبيعة من الأوغاد الإسبان أو رعاة البقر المتوحشين الذين يستغلونها.

كان هذا موضوع حديث الابن الضال حول طاولة العشاء في مزرعة والده. اجتمع الرجلان المختلفان جسدياً لتناول العشاء في ضوء الشموع الذي شع في عيني بالتاسار الباهتتين بذكرى الشمعات الخمس وعشرين حول مهد وليد أوفيليا سلمنكا. ذكرى، منذرة أيضاً. تلك المتعلقة بشمعة واحدة في يد والده الميتة، والده الذي سيقول له من العالم الآخر: «لقد كنت محقاً يا ولدي.»

حول المائدة، في المنزل العائلي، لم يكن الأمر هكذا. لم يكن هناك أحد على صواب. كان بالتاسار شاباً مندفعاً أقنعته الأفكار التي سمعها مؤخراً

وأذهلته. كان الأب مثل وضعية جسمه: يجلس على جمجمة بقرة لكنه مفعم بالنشاط وحيوي في آرائه، يقف عند مدخل المزرعة، على الحد الفاصل بين ما كان له وما كان للجميع، يقف باستقامة لكن مسحوقاً من الموت الذي جاء إليه عبر الأرض والذي بدأ في قدميه.

«آمل أنه يعمل هكذا وأن يستغرق وقته ليصل إلى قلبي وعقلي. ما أزال أريد أن أرى ما سيحدث. أريد أن أرى إن كنت محقاً يا ولدي.»

تخيل بالتاسار والده كرجل على العتبة بين الحياة والموت وأيضاً بين العقل واللاعقل، بين الاستقلال والاستعمار، بين الثورة والثورة المضادة. كان أحياناً يسأل نفسه فيما إذا كان سيفضل أباً شقيقاً من دينه، ليشاركه أفكاره وحماسته. لكنه كان يجهل الجواب وقبل أخيراً والده الذي حولته الشمس وجردته مع مرور الزمن من بشرته الأوربية ليصبح ما هو عليه: بطريرك عصابة متوحشة من رعاة البقر وسيد صناعة ناشئة. صناعة مهددة. وربما كان هذا الأسلوب من التعايش مع الأضداد هو ما منح خوسيه أنطونيو بستوس نبرته العادلة الغريبة وتعاطفه الذي كتعاطف النبي سليمان. كان قاضياً كريماً في أرض وزمن يصرخان من أجل التسامح. وإذا كان بالتاسار يطالب بالعدالة في المدن وقادراً على تطبيقها كما فعل في ليلة 24 أيار في بوينس آيرس، ما الذي كان بوسعه أن يقوله لوالده، مالك الأرض والقاضي في الأقاليم البربرية للداخل؟ وإذا توجب على الابن أن يكون عنيداً في المدينة، ربما يتوجب عليه أن يكون مرناً في الريف. كان هذا اختلافاً بين الجلد الخزفي للمركيز دي كابرا وزوجته والجلد الجلدي المصبوغ لخوسيه أنطونيو بالتاسار.

نظر بالتاسار، الممتلئ الجسم، الحسير، ذو خصلات الشعر البرونزية، إلى صورته المنعكسة في المرآة الزجاجية ذات الإطار الذهبي والتي عكست غرفة العشاء بكآبة، ولقد رأى نفسه كمزيج بين الاثنين، بلا شكل وبالكاد خارج المدينة وبحاجة إلى مساعدة الآخرين كي يقدر على الحياة. كان بحاجة إلى البغل لأن عربة البريد لا تتوقف هنا، وإلى رعاة البقر ولو

ليأمرهم كي يدخلوا حقائبه إلى المنزل فقط. كان يحتاج إلى الخدم لأنه لم يكن يعرف كيف يرتب سريره ويثبت زراً أو يكوي معطفاً، وإلى الطباخين لأنه لا يعرف حتى كيف يقلي بيضة، وإلى والده ليهاجم أفكاره، لا كعدو، وإنما كمحاور متعاطف وسقراطي. ولكن، بصراحة، لم يكن يعرف إن كان يحتاج إلى شقيقته سابينا، التي سيكون حضورها شبحياً، إن لم يكن واقعياً بالحاح.

كانت سابينا تشبه والدها عدا تلك النبالة الغريبة فيه التي كانت صرامة مؤلمة فيها. كان بالتاسار النكد يريد أن يقول حين يكرهها – وهذا ما يحدث دائماً خاصة حين يكونان معاً – خادمة عجوز شكسة، ناضجة قبل الأوان، ولدت خادمة عجوز، راهبة خائبة الأمل... لكن إحساسه بالعدالة جعله يعدل ذلك الرأي وخاصة حين كان بعيداً عنها في بوينس آيرس. وقال لنفسه إنها مقيدة كما هي في الريف، امرأة لوحدها، في منزل مليء بالرجال، محكوم عليها أن تعيش بين رعاة بقر متوحشين، لا يمكن لشخصيتها أن تكون عكس ما هي عليه.

لن تجلس إلى مائدة مع الرجال. لم يوقفها أحد، هي التي أوقفت نفسها. ولقد أصرت على خدمتهما. هكذا، كانت حاضرة وغائبة أثناء وجبات الأب والابن. أحياناً لا ينتبه بالتاسار لحضورها، وفي أحيان أخرى كان حضور سابينا يحدد فحوى مجادلاته. كان يعرف ما الذي ستقوله، وهي واقفة هناك بطبق من اللحم المشوي يرتجف بين يديها، حاملة ملقط الخدمة بمنديل فظ مزين برقعة داما حمراء:

«لقد فقدنا الحماية. تركتنا أنت وأفكارك تحت رحمة العناصر. كان لدينا الملاذ الذي تمنحه المستعمرة وكنا تحت حماية التاج. كان لدينا الخلاص الذي تمنحه الكنيسة. لقد تركتنا أنت وأفكارك تحت رحمة الرياح الأربع. أي أذى سببته لنا!»

هذه الأشياء، التي قيلت بين فترات تقديم الطعام، لم تساعد بالتاسار بستوس على الهضم. عبثاً بحث في صرامة شقيقته عن اتزان والده. مع ذلك

كانت سابينا وبالتاسار نتاج الدافع إلى التوازن الذي يسم خوسيه أنطونيو بستوس.

كان خوسيه أنطونيو بستوس ينتبه إلى كل ما يمر ويتمتع بحاسة سادسة للعثور على الأشياء، إما بالاستقراء أو بالاستنتاج، وكان بوسعه أن يستفيد حتى من نثرة معلومات لا قيمة لها تصادفه في أثناء قراءة الصحف التي نادراً ما يقوم بها، من الرسائل القليلة أو من خلال الملاحظات أو الثرثرة أو النوادر (في معظم الأحيان) وأحياناً حتى من أغاني رعاة البقر، ليقيد النهايات المفتوحة، ليتذكر أو يصل إلى نتيجة ما، ليتوقع ويقوم بالفعل. كان أساس معرفته هو الشبكة المتنقلة لرعاة البقر الذين يحميهم وهم يطوفون السهول المعشوشبة. كانوا يخبرونه أكثر من أي شخص آخر. وحين كان شاباً، وحالما اكتشف فكرة العصر، طبقها على الحقيقة الاقتصادية لحياة الريف بطرق عديدة. وفي نطاق ملكيته أسس صناعة نسيج ومعدن صغيرة، وفي الوقت نفسه، وسع أراضيه المستأجرة تحسباً لحصول ازدهار في تربية الماشية. حضر نفسه ليتحمل أو يتمتع بانفتاح أو انغلاق التجارة مع العالم الخارجي. نظر إلى بوينس آيرس كسوق لبضائعه لكنه كان يخشى من التنافس الأجنبي الذي سيجعلها مرتفعة الثمن. بقي منفتحاً في التجارة مع البيرو العليا، مصدر المعادن الضرورية للمشغل الذي يصنع المهاميز والعربات والمحاور والمفاتيح. وتزوج امرأة باسكية شابة، والتي هي كما قيل ابنة الغزو الثاني الذي ضاعف في أو حوالي 1770 عدد التجار الإسبان في ميناء بوينس آيرس، التجار الذين دفعتهم الإصلاحات البوربونية إلى التجارة الحرة. لم يغيِّر وصول ماريا تيريزا إيتشيغاراي – مايته الشابة، الذهبية الشعر، الممتلئة والحسيرة – إلى السهول المعشوشبة، الحياة الاجتماعية في الإقليم البعيد. كان الإقليم هو الذي غيرها. رفضت السيدة مايته، ذات الجسم المنزلي العقيم، أن تستخدم النظارة. كان عليها أن تبحث عن كل شيء – بيضة، كرة صوف، قطة، إبرة، شبشبها – من خلال الانحناء لتحدق من مسافة قريبة، وأصبحت تلك الحالة في النهاية طبيعية لها.

توقفت زوجة خوسيه أنطونيو بستوس، المحدودبة والعمياء، عن التحدث مع البشر الذين كانوا جميعاً يتوقفون مستقيمين في المسافة، وبدلاً من ذلك تابعت مونولوجات مع النمل في أيامها العملية وفي أيام الحلم كانت تتحدث مع العناكب التي كانت تقترب وتتدلى فوق عينيها، وتغيظها وتجعلها تضحك من صعودها وهبوطها الفضي وتجبرها على أن تتخيل وتبتكر وتتمنى أحياناً لو أنها كانت متشابكة مع تلك الخيوط الدبقة والرطبة إلى أن تمسك في مركز شبكة بلا غضون كالنسيج الذي في حانوت زوجها الذي يذهب لتصنع منه المعاطف والقمصان وملابس أخرى لرعاة البقر.

كان النمل، من ناحية أخرى، يخرج جانبها العملي، المجتهد، وكان هذا حين تصبح هي وسابينا شكوكتين وتتفحصان التموين المخزون في الخزائن وتحسبان مستوى اللصوصية بين الخادمات رابطتين كل شيء بانهيار السلطة وانحطاط العادات وغياب احترام الكنيسة وأخيراً انحلال السلطة الاستعمارية. نابليون في إسبانيا، الإنكليز في بوينس آيرس والنتائج المريعة: إطاحة الملك فرديناند عن عرشه، هزيمة الإنكليز، لا على يد نائب الملك، وإنما على يد الميليشيا الأرجنتينية المؤلفة من (رعاة البقر بلا شك) .جميع هذه الأنباء أنهت النملة في السيدة مايته وحتى العناكب التي فيها لم تكن قادرة علي تعويض رعب كهذا. وبالفعل، خانتها العناكب، ورأت في أحلامها عالماً بلا كنيسة أو ملك، عالماً ممزقاً. وكانت ستلعن نفسها لأنها غادرت إسبانيا ولكنها كانت تتذكر أن إسبانيا هي في يد نابليون وشقيقه السكير «جو بتل» وعندئذ يتوقف قلبها.

وتوقف بشكل دائم ذات أصيل حار في صيف 1808 وورثت سابينا يقينيات وآلام أمها كلها. عدا أن الابنة الأقوى، المنتصبة القامة، الغريبة عن النمل والعناكب، حولتها إلى عقيدة ومعارك. كرر خوسيه أنطونيو: «إنها تشعر بغياب الحماية لكنها لا تعرف كيف تعبر عن أفكارها بمصطلحات معقدة. تتحدث عن إسبانيا والكنيسة والملك وكأنهم سقف المنزل، ويتعمق خوفها: نحن نغادر إمبراطورية تقليدية كانت مطلقة

وكاثوليكية من أجل حرية عقلية وعلمية وليبرالية وربما بروتستانتية. ينبغي أن تحاول فهم مخاوفنا. إنها محقة. الأمر مثل كونك تحت رحمة العناصر.»

ندم بالتاسار على ذلك، بدلاً من قبول التقاليد أحضر الثورة إلى المنزل (الذي فقد الحماية وأصبح من الآن فصاعداً بلا سقف). كان يريد، مع ذلك، أن يسأل والده: أيمكن أن يوجد أحدهما دون الآخر؟ أيمكن أن يكون هناك تراث بدون ثورة؟ ألا يموت التراث إذا لم يجدد ويهز؟ لم يكن قادراً على صياغة شيء لا يفهمه بشكل كامل، لأن سابينا كانت هناك، تعجل حدوث كل شيء، مقدمة له الخيار الأخير: هل أنت موال لأسرتك أم موال لثورتك؟ شقيقته، القوة التقسيمية، قدمت نفسها كممثلة «لما سيجمعنا معاً». ترك بالتاسار في موقع الشخص الذي يوقع الشقاق. لم يبد والدهما مستاء من الدور الذي منح له: دور الحكم بين الأخ والأخت.

«لقد علمتني كل ما أعرفه.»

رتب أن يقول ذلك الشيء الكثير لوالده، وكانت النية عاطفية، ولكن الامتزاج مع العاطفة كان مكراً رائعاً. ارتجف خوسيه أنطونيو بستوس وهو يسمع. امتلك ابنه ثقافة يسوعية. كان معلم بالتاسار الشاب هو جوليان ريوس، العضو المسن في الجمعية، الذي نبذ عادته وعاد إلى الأرجنتين، مسقط رأسه. ترك اليسوعيون الذين طردوا من إسبانيا ومستعمراتها في 1767 فراغاً كبيراً خلفهم. احتج البشر على الطرد وتظاهروا في الشوارع وبكوا.. وانتقم يسوعيو الأميركيتين من إسبانيا. أبحروا إلى ساحل إيطاليا وطلبوا اللجوء من البابا. منعهم البابا، الخائف من الإساءة للبوربونيين، في البداية من النزول. بقي الأخوة المقدسون في السفينة طول أسابيع تحت رحمة الأمواج والمد ودوار البحر والأرق غير قادرين على تصديق ما يحصل لهم.

في النهاية، قبل البابا نصيحة جيدة: يمكن أن يحتقر الملوك بشكل جيد ذكاء اليسوعيين، لكن البابا يمكن أن يستفيد منه. وغالباً ما يحدث الأمر بطريقة أخرى، الآن لتفتحْ روما ذراعيها لما رفضته مدريد ولشبونة. وقد قيل إن اليسوعي السابق جوليان ريوس عاد إلى الأرجنتين دون لباسه

الديني لكي يخدع السلطات الاستعمارية. وكمثل جميع يسوعيي العالم الجديد، درّس التاريخ القومي والجغرافيا القومية، نباتات وحيوانات الأمم الوليدة من إسبانيا الجديدة إلى تشيلي ومن ريو دي لا بلاتا إلى نيوغرانادا.

وبالإضافة إلى أنه منح طلابه وعياً قومياً، فقد أعطاهم دون جوليان، المجرد من ردائه الكهنوتي، كتباً حظرتها الكنيسة والسلطة: روح القوانين، العقد الاجتماعي، كتاب ديدرو الراهبة وكتاب فولتير كانديد... وهذا أساس ثقافة بالتاسار المناقضة لثقافة شقيقته. لقد تركت الفتاة لإرشادات أمها الفاقدة للوعي وللفضيلة العاطفية لوالدها. لكنها كانت عنيدة، حسدت أخاها، وقرأت أكثر مما يتوقع من شخص مسجون في المنزل. وبالمقارنة مع شقيقها، كانت تقرأ كتب الصلوات اليومية والنشرات الكاثوليكية والمواعظ. وقد خلقت بنفسها ثقافة مضادة من أجل أن تتحدى أخاها الأصغر بشكل أفضل.

أراد أن يراها بطريقة مختلفة، أجمل وأرق وأفضل ولم تكن تسمح بذلك.

«قرر: هل أنت مخلص لأسرتك أم لثورتك؟»

توقفت عن كونها طائر التم الذي أراد أن يعثر عليه وأصبحت مرة ثانية البطة الصغيرة التي ستكونها دائماً، مانحة والدها هكذا الفرصة ليكون مرة أخرى كريماً ومنصفاً.

«إن أختك تعني أنه يمكن أن توجد خيارات أقل وحشية من هذه التي نمر فيها. حاول أن تفهمها.»

(3)

سار بالتاسار إلى الخارج نحو الريف المفتوح ليفكر بما يمكن أن تكونه تلك الخيارات وكيف يمكن أن يحل ما حصل مسبقاً. قبل حقيقةَ أن

التاريخ، مزيج الأفكار والحقائق والرغبات الذي قاتل من أجله أو ضده، لا يكون إلا في رفقة الآخرين، في شيء يتم الاشتراك فيه مع الآخرين. ولقد أزعجه أنه فكر دائماً أن *النحن، الآخرين* كانتا الافراط، الزائد وغير الضروري. ولكن قراءته لجان جاك أنقذته آنذاك (وبنفس الطريقة قصص الفروسية على نمط دون كيخوته، قال دوريغو وأنا، فاريلا، ضاحكين) لنخبره أن الشعور بالاستياء في المجتمع – أو رؤية المجتمع كإطراح، كإفراط – ليس خطيئة بل فضيلة لأنه يظهر أن المجتمع كان في حالة سيئة.

هنا، في السهول المعشوشبة، نظر في المسافة، نحو مندوزا والجبال: بدت السلسلة العظيمة كأنها وحش أميركا الجنوبية النائم، كوجر بظهر أبيض شاسع وبطن أسود، يستلقي منتظراً فرصته الوحشية. وقبل حقيقة أنه رغم أنه ولد هنا فإنه كان عائداً لا ليمكث بل ليستريح، ومن هذه البقعة سينطلق نحو تلك الجبال، حيث، ربما يمكن أن يصنع التاريخ، ربما يمكن أن تتوحد الطبيعة مع المجتمع مرة ثانية.

لا أكون حراً في المجتمع إلا حين أتوقف عن الحاجة إليه لأنني قمت بتحويله بنفسي.

ولسوء الحظ، كان مقيداً إلى مجتمعه. لم يكن سيده، كان خاضعاً له. زج نفسه في الثورة الأرجنتينية وأنجز فعل عدالة جسوراً وشخصياً جداً، مهماً بالنسبة إليه كما كانت مهمة كتابة البيان بالنسبة إلى ماريانو مورينو أو الإطاحة بنائب ملك بالنسبة إلى كورنيليو دي سافيدرا. لقد تاجر بالتاسار بستوس بمصير طفلين. لكنه لم يكن يخدع نفسه. استبدل ظلماً بآخر وحسب. هكذا تحدث إليه فعله الأكثر راديكالية، والذي تبعته أزمة ضميره الأكثر سرية. وهكذا، بعد أن تناول مع والده العشاء، الذي أعدته أخته، استحضر العزلة الناقصة لريف الأرجنتين، الذي هو مقدمة للجبال وعزلتها النقية. تخيل الآنديز غرفة صدى لروحه، متحررة ومتصالحة مع النظام الطبيعي.

عندئذ، بدأت الأمور تحدث.

كان الشيء الأول رؤية أوفيليا سلمنكا تطارده. أدخلت المرأة المشتهاة نفسها بينه وبين الطبيعة محتلة الفضاء المادي كله. كانت كائناً خرافياً ساحراً ودائماً تجلس مديرة ظهرها له،لكنها لم تعد تجلس بل تقف في حلمه، الليلة، لسان لهب أبيض، حضوراً كلياً، تومض، تنحني تدريجياً، فاتحة ساقيها ببطء لتكشف من الخلف، عضوها الذي لا تمكن مقاومته، عضو المرأة الكاثوليكي المعبود والمتخيل، والمخترق من جميع الزوايا. كان لا يمكن اختراق الجبال: كمثل رؤية أوفيليا سلمنكا، عارية وتقدم نفسها من الخلف. كانت تدعو وتدعو... عندئذ استدارت المرأة ومنحته، بدل جسدها الذي حلم به، وجهها الذي يخشاه: كانت غرغونة، تتهمه بعينين بيضاوين كالرخام وتحوله إلى حجر ظلم وتكرهه...

حين استدار بالتاسار بستوس عن تلك الرؤية التي تعوم بين عينيه والجبال، شعر للمرة الأولى بتحذير من روحه: *إن أوفيليا سلمنكا تعرف كل شيء وتكرهه وقد أقسمت أن تنتقم منه.*

بالإضافة إلى ذلك، وجد نفسه يحدق في عينين وحشيتين كعيني حبيبته المرغوبة. كانت هناك ميدوزات أخرى في العالم: رعاة البقر الذين تجمعوا حوله في الظلام، حين كان كل ما أراده هو أن يبقى وحيداً مع الطبيعة وصورة أوفيليا. شوشه وحيره وجودهم وجعله ليس ضد الجبال أو الليل أو رغبته بامرأة ولكن ضد الرجال الآخرين. ماذا كانوا يفعلون؟ قدموا له ناراً لكنه لم يكن يدخن. رغب لو أنه يقدم لهم لهب عود ثقاب كالذي حمله خابيير دوريغو داخل ساعة في أثناء الجلسات في مقهى دي مالكوس لكن خياله المسكون لم يأخذ من السماء إلا شمعة كالشمعات الخمس وعشرين حول مهد طفل أوفيليا سلمنكا المخطوف. ولم يكن هناك شك أن بالتاسار، بسبب تلك السلسلة من الهلوسات،قدم لرعاة البقر ضوءاً خيالياً مأخوذاً من الليل ومحمياً من ريح الجبال الخفيفة باليدين المطويتين لابن السيد وكأن هناك لسان لهب يشتعل فعلاً.

لم يضحك رعاة البقر.

«لا تسخر منا أيها السيد الشاب.»

«لا تناديني هكذا، أنا مجرد مواطن.»

ضحكوا، وحين ضحكوا شم بالتاسار في نفسهم الجمعي رائحة نتنة كرائحة الجراء الضالة. كانت هناك نتف طعام في تلك اللحى السوداء الدغلية أو التي بلون النحاس والتي تبدأ عند العنق وتتسلق تقريباً إلى الجباه – وهي امتداد للشعر الذي يغطي الأذنين والخدين ويترك فقط الأفواه مفتوحة والتي هي كجراح ناجمة عن وفرة متناقضة ظاهرياً. كانوا حمراً ودمويين كاللحم الذي يأكلونه، وكشفوا صلابة ريف غير معينة حيث يأكل البشر كل ما لديهم ولا يأكلون أبداً ما يريدونه فقط. اليوم يوجد أكثر من الكفاية، ولكن غداً يمكن ألا يكون لدينا أي شيء.

شعر بتعاطف عميق مع مسقط رأسه. لكن أحد رعاة البقر منعه من مد هذا التعاطف إليهم. راعي بقر شاب، يعرف ما ينوي القيام به، أمسكه باليد التي استخدمها بالتاسار لحماية الضوء الخيالي. حاول المواطن الشاب أن يسحب نفسه من حلم يقظته ويزرع قدميه في التراب الصلب وفي صلابة عادات هذا العالم. ما الذي أدهشه؟ كان كل شيء مألوفاً له. إنه ينتمي إلى أرض الغبار هذه كما ينتمي إلى أرض الأفكار التي كانت أرض الأب جوليان ريوس أو أرض دخان التجمعات في مقهى دي مالكوس. رفع عينيه فلم يجد الجبال وميدوزا، والطبيعة والجنس المحظور. ما عثر عليه كان مرآة. بدا راعي البقر الذي يمسكه من يده كبالتاسار، بالتاسار قذر، جائع، رغم أنه أشبع اليوم من لحم ثور ميت. وجهه المستدير، تحديقته البعيدة، شعره بخصلاته التي صقلتها العناصر نفسها التي كانت تخيف سابينا.

حدق بالتاسار إلى ذلك التوأم الشرير وامتلك حضور الذهن ليعيد تلك الضغطة، أمسك رسغ راعي البقر، دفع كم الرجل إلى الوراء وكشف الجراح القاسية في ساعده. جاءت ثقافة بالتاسار الريفية، المرفوضة والمتوحشة إليه، وشعر بالقرف لأن سمح لنفسه بأن تهيمن عليه أصوله التي يحتقرها – خاصة لأن الحكمة الريفية هي التي كانت ستنقذ الحضور الحضاري.

أصدر راعي البقر الشاب نخرة مخنوقة مثل بالتاسار، لوى ذراعه وغطاه بالكم. في البداية نظر الآخرون باحتقار إلى راعي البقر الشاب، ثم بشفقة، ولقد خصوا بالتاسار بستوس بالشيء نفسه ولكن بشكل منعكس. أولاً الشفقة ثم الاحتقار. كان يعرف ما يفعله. أظهر لرعاة البقر الآخرين أن هذا الشخص الذي تجرأ على لمسه كان، إن لم يكن جباناً، على الأقل غير كفء، ترك نفسه يجرح بسهولة في شجارات في مربى الماشية أو المخزن العام. هل كان رفاقه يعرفون ذلك مسبقاً، محتفظين بما يعرفونه لأنفسهم، وقد أهانهم أن شخصاً متطفلاً، هو الآن ابن خوسيه أنطونيو بستوس، قد عاد ليقول لهم: أعرف أن هذا الرجل لا يمتلك موهبة في القتال بالسكين؟ إنه راعي بقر غبي، ابن المدير قال هذا لتوه لرعاة البقر. لا يعرف كيف يحمي نفسه. ألا تعرفون هذا يا ذوي الرؤوس المسدودة؟ أي نوع من المزاح هذا؟

ظهر خوسيه أنطونيو بستوس على باب المنزل، مرتدياً معطفه الأصفر. من يعرف كم يعرف رعاة البقر. من يعرف إن كانوا فعلاً رفاقاً. كانوا جميعاً متشردين. ربما التقوا منذ بضع ساعات، وبعد بضع ساعات سينفصلون ويتبعثرون في السهول الشاسعة. وحَّدهم بالتاسار بستوس في دعم راعي البقر الشاب الذي أظهر لهم عدم كفاءته، الذي أذله، لأن سر الرجل لا ينتمي إلى رعاة البقر وحسب. ربما سيغنيه شاعر معيباً الشاب الغبي ذا الوجه المستدير والخصلات النحاسية. أيمكن أن يكون هو أعمى قليلاً دون أن يعرف ذلك؟ ليس هناك أطباء عيون في الريف. لا يمكن أن يشبها بعضهما كثيراً، بالتاسار وراعي البقر الذي بلا اسم: جرح خالص مخفي.

منع الحضور المنتصب للعجوز في معطفه الأزرق أية عاقبة لما حدث. اندفع رعاة البقر مغمغمين ومتذمرين. سيقابلون يوماً آخر. نظر بالتاسار إلى والده وأدهشه أن مجرد حضور العجوز يمكن أن يهيمن لمسافة، مبعثراً أولئك الريفيين الأشداء حتى ولو ذهبوا مترددين. أيمكن أن يكون صحيحاً ما قالوه في بوينس آيرس؟ *إن الذين يربون الماشية في الداخل هم جهلة*

كرعاة بقرهم. بشر أدنى، إنهم كريبوليـون مـن الطبقـة الثانيـة، ولا تمكـن مقارنتهم مع تجـار المدينـة المتمدنـين. نظـر إلى والـده مـن مسـافة. لم يكـن خوسيه أنطونيو بالتاسار هكذا. ولم يكن فقط أن بالتاسار كـان ابنـه وأحبـه كما كان. لم يكن خوسيه أنطونيو بستوس هكذا. لكن سلطته، التي ظهـرت آنـذاك، مذكـرة رعـاة البقـر أنـه يراقـب دائماً، أنـه الأب، أنـه السـلطة الوحيدة، أيمكن أن تكون أكثر من رمز سلطة في أرض تتجاهل قوانين المدن البعيدة، أرض تركت نفسها تحكم برمز بطريركي؟

نظـر إلى والـده الـذي كـان يقـترب كشـخص لم يفهمـه أبـداً مـن قبـل. بطريريك أقوى من قوانين اليوم والغد. لم يعرف بالتاسار إن كـانت جميـع الدساتير الليبرالية في العالم تستطيع أن تكون أقـوى مـن حضـور بطريركـي بسيط.

«لا تخرج في الليل، الجو بارد جداً، يمكن أن تمرض.»

هذا ما قاله بالتاسار للـدون خوسـيه أنطونيـو بحنـان مسـتخدماً صيغـة رسمية ناسياً للحظة أن يعامل والده بالاحترام المعتـاد: كـان العجـوز مليئـاً بالكرامة وقوياً وفي الوقت نفسه سريع التأثر، تحـت رحمـة العنـاصر، كمـا قالت سابينا، وكأن والده في تلك اللحظة كان، في الحقيقة، ابنه. وهـذا مـا كتبه لدوريغو في بوينس آيرس.

نظر خوسيه أنطونيو إلى غياب الاحترام لدى ولده. عزا ذلـك إلى مـا رآه لتوه. الاتصال الجسدي الذي لم يحصل مثله بين يـدي ابنـه ويـدي راعـي البقر. لم يرغب أن يقر أن الشيخوخة تحول الوالدين إلى طفلين.

ضحك العجوز بينه بين نفسه قائلاً: «لا تقلق. حين يقول الأطباء إنـني مريض، أؤمن بذلك، لأكون مهذباً وحسـب. حـين لا أفعـل ذلـك يشعرون بالإحباط ويعودون إلى كونهم رعاة بقر. يجب أن تحترم ألقـاب النـاس. إن الحصول عليها يكلفهم كثيراً. على أية حـال، نحـن نعيـش حيـاة صحيـة هنا، لا نحتاج إلى أطباء والناس يعيشون فترة طويلة. الشيء الوحيـد الـذي يقتل الشبان هو المعارك بالسكاكين أو السقوط عن الخيول.»

قال بالتاسار عائداً إلى نبرة الاحترام الملائمة: «من الجيد أن أراك بصحة جيدة يا أبي.»

«كل ما ترك لي هو المتع الصغيرة لسن الشيخوخة كمثل الخروج لرؤية النجوم. الليالي جميلة هنا. حين كنت طفلاً أحصيت النجوم ولم أفهم أنها لم تكن قابلة للعد. وبعد أن كبرت قليلاً، تابعت عد الليالي حين يطلع القمر حتى وجدت أنها في التقويم. فما الذي ترك لنا؟ من يعرف».

قال بالتاسار بحرج، شاعراً بأنه غير كفء، كراعي البقر ذي الذراع المجروحة: «لستَ كما يقول الناس في بوينس آيرس عن مربي الماشية.»

«مربي ماشية متوحش؟ كريبيولي بربري؟ لا. أعتقد أن لدي بضع أفكار. لا أريد أن أفقد إيماني تماماً. كم يكون جيداً حين تبقي إيمانك قوياً.»

أمسك الولد رسغ والده، بالطريقة التي أمسك بها رسغ راعي البقر منذ لحظة: «لقد احتفظت بحواسك يا أبي مع إيمانك.»

ضحك خوسيه أنطونيو بقوة: «خمس منها تركتني منذ وهلة. بقيت السادسة، لكنها ذكرى خالصة»

«إذن دعني أضف سابعة والتي هي ذكاؤك.»

صمت الأب لحظة ثم قال إن الشيخوخة تقدم متعاً صغيرة ولم يضع كل شيء. وشبكا ذراعيهما وسارا نحو المنزل.

بدت سابينا كأنها تنتظر أخاها بعد أن ترك العجوز نائماً في غرفته. كان مندهشاً وحاول أن يرى الجمال في دمامتها ولم يستسلم حيال هذا الأمر.

«ألم يسألك بعد؟»

«ماذا؟»

«إن كنت تريد أن تصبح تاجراً أو مربي ماشية. المسكين لديه أوهامه. ألم يذكر المتع الصغيرة لشيخوخته؟»

«نعم.»

«هذا ليرى المشهد. يريدك أن تختار.»

«لا أقدر.»

«بالطبع تستطيع. ستكون تلك الثورة الملعونة مهنتك.»

وسألها بالتاسار غاضباً وقد بدت له أكثر بشاعة من قبل: «وماذا عنك؟»

«تعرف جواب هذا أيضاً. لا تلعب دور المغفل. بينما تذهب إلى ثورتك سأبقى هنا لأعتني بالعجوز. وإذا لم أقم بذلك من الذي سيقوم به؟ ينبغي أن يفعل ذلك أحد ما.»

شعر بالتاسار بالتوبيخ. كانت عينا سابينا في تلك الليلة مليئتين برغبة محترقة.

«وكيف أذهب يوماً ما إلى مكان ما بعيد أيضاً.»

فيما بعد، توقفا ونظرا إلى بعضهما كأنهما غريبين ليشاهدا إن كان بوسعهما أن يحبا بعضهما فقط بتلك الطريقة: «كم أرغب لو كان بوسعي أن أكون مثل أمي – كان كل ما تعرفه هو صناعة الحلويات. تلك التي صرفت على الشموع من أجل الكنيسة أكثر مما صرفته على طعام الأولاد. كم كانت منزعجة حيال كم من الأشياء ستترك لنا، كم ستترك من الأكواب، وأطقم الشاي، وأطباق الفضة. وليس لنا وحسب. فكرت بالأجيال القادمة وكم كانت واثقة في الوقت نفسه، بأنه حالما تدفن هناك تحت شجرة الأومبو، سوف تعود لترى ما حدث لقدر العسل، والكعك وملعقة الشاي الفضية.»

قال لها بالتاسار فاهماً المقارنة التي كانت تعقدها بين حياتيهما وأيضاً الخوف الكامن خلف كلماتها: «لماذا لا ترحلين؟»

«والدي لا يقولها، لكنه يفضل أن يمنحني لرجل كريبولي ما كربة منزل على أن يراني متزوجة من مولّد. المشكلة هي أنه ليس هناك كريبوليون رغم كل هذه المساحة الهائلة.»

نظرت إليه باحتقار وغنج مر وحكت، دون وعي، فخذها.

(4)

«لو كان بوسع أصدقائي أن يشاهدوني فقط عالقاً هنا في مربى الماشية سيفرحون من أجلي ويشعرون، في الوقت نفسه، بالشفقة»، قال العجوز لنفسه بفكاهة، متذكراً، على الأرجح، الأيام التي كان ينشط فيها سياسياً في بوينس آيرس، حين شعر أنه من الضروري الدفاع عن التاج الإسباني ضد الإنكليز. ولم تقدر عدم كفاءة نائب الملك أن تجعله يغير رأيه بأن الأفواج الكرييولية كانت تدافع عن الشيء نفسه الذي يدافع عنه نائب الملك.

«قاتلت ضد الإنكليز البروتستانت وليس ضد الإسبان الكاثوليك. وكان هذا كأننا نقاتل ضد أنفسنا.»

حاول بالتاسار، في أثناء إقامته، أن يراقب ويفهم حياة والده. وكانت حياة لم يردها لنفسه: إقطاعية، معزولة، دون قوانين معروفة، ودون سلطة سوى تلك التي استولى عليها البطريرك. وعلى عكس إقطاعيين آخرين، كان خوسيه أنطونيو بستوس ممتازاً ويلجأ إلى التمثيل المسرحي ويطالب بحقوقه البطركية. مارسها بحكمة، بحس من الشرف الشخصي يثير الإعجاب، وبالنتيجة، انتبه عالمه الفوضوي إلى ذلك وقدم له الطاعة. لم يكن الأمر سهلاً كما قال في أحد الأيام لبالتاسار، لا لكي يتباهى بأنه يعلم ابنه، لم يكن سهلاً أن يحظى باحترام الرجال الذين كان رزقهم اللحم المدخن، احترام منادي البلدة الجوالين، والخيالة والقضاة والنواب الملكيين، النساخ وموظفي المحاكم، تجار الخيول والمجرمين المعروفين. كان عليه، كما قال، أن يترك لكل منهم كلمة طيبة، قليلاً من الشفقة وسبباً ما لكي يخشونه. قال خوسيه أنطونيو بستوس: بدون البطريرك سيلتهم الجميع بعضهم بعضاً، ليس بسبب الجوع، وإنما بسبب الشبع. هذا هو لغز هذه الأرض وأيضاً تناقضها.

قال خوسيه أنطونيو: «أهناك شيء لا ينتجه هذا الريف؟ بوسع الرجل أن يسترجع تعويضاً أكبر بعشرين مرة من قيمة عمله هنا. ليس هناك

غابات للاستئصال، كما في أميركا الشمالية. تستطيع أن تزرع مرتين في العام وتقدم الحقول نفسها الحنطة عشر سنوات دون أن تستنفد، والشيء الوحيد الذي يجب أن تنتبه إليه هو ألا تزرع كثيراً في البقعة ذاتها. إذا فعلت ذلك سيكون المحصول وافراً ويرعى القطيع لوحده.»

توقف الأب مبتسماً وسأل ابنه: «ألست قلقاً على ريف كهذا»؟

«بالعكس، أنت تؤكد تفاؤلي.»

«سأكون أكثر حذراً. ريف يكون فيه كل ما تفعله هو أن تبصق على الأرض لتنتج. يمكن أن يكون ضعيفاً، نائماً، مغروراً، راضياً وغير نقدي...»

ما كان يخشاه بالتاسار هو أن يكون على والده، البطريرك، السلطة المحترمة والساخرة، أن يظهر قوة بأسلوب درامي، قسري، ومسرحي لكي يستعيد سلطته.

جاءت الفرصة في ذلك الشتاء حين نشر الأنباء مستطلعان، يمتطيان حصانين، من الريف إلى المستودع العام، إلى المشاغل والحصن، وافادت الأنباء هي أن الكلاب البرية عادت. تذكر بالتاسار حلمه في مركبة السفر. كان يعرف أن قطيعاً من الخيول البرية يمكن أن يحيط برجل أياماً ولا يسمح له بالمرور، أو يجر خيول البريد معرضاً حياة المسافرين والسائقين للخطر. قال خوسيه أنطونيو: هذا أسوأ. ماذا؟ تعال وشاهد الليلة.

جمع العجوز جيشاً صغيراً من رعاة بقره الأفضل والأشرس. جمع رجاله وأمرهم بإحضار القطيع المبعثر وتقييد الحيوانات بالسياج، وأمر فرقة من رعاة البقر بجمع الخيول الكهلة التي لا فائدة ترتجى منها. سيذبحون الخيول الهرمة عند الوهد تماماً وراء حصن مربي الماشية، كي لا تفتقد الكلاب البرية رائحة الدم الطازج.

امتطى خوسيه أنطونيو بستوس حصانه الأفضل وأمر بالتاسار أن يركب فحلاً شبه محطم لكي ينظر إليه رعاة البقر باحترام. تبعهما رعاة البقر على أحصنتهم السريعة واتجهوا جميعاً إلى التجويف، حيث كانت عقبان السهول تدور فوق البقعة التي ذبحت فيها الخيول الهرمة. أمر خوسيه

أنطونيو أن يحاصر المكان بحرص قدر الإمكان وعندئذ على الرجال أن يهاجموا دون رحمة الكلاب البرية التي ستلتهم اللحم الطازج الدموي. والكلاب المنذهلة والنابحة، ذات الخطوم والأعين الحمراء التي أعمتها المشاعل، لم تستطع أن تميز سيداً، لكنها ستهاجم بنفس الوحشية التي تهاجم بها مجموعاتها المرعبة القطعان. وبعد أن تقتل بالرماح والهراوات، تقذف أجسادها فوق الأحصنة الميتة حتى لا يبقى متر مربع واحد في التجويف غير ملطخ بالدم والموت.

نظر خوسيه أنطونيو إلى ولده: «ألم أقل لك إنه يوجد هنا وفرة كثيرة. يترك اللحم فقط ليتعفن في السهل والكلاب تهرب لأنها تأكل بشكل أفضل في البرية. في يومين تتراجع قرنين إلى الوراء. إنها طاعون. لم يحدث هذا منذ وقت طويل. ثم بدأت تقترب من البلدات. لقد فقدت أي خوف ولذلك علينا أن نلقنها درساً.»

أمر الجميع أن يتجهوا إلى الكهوف القريبة.

هناك عثر خوسيه أنطونيو ورجاله على مقبرة الكلاب المليئة بالعظام التي ومضت في الليل. عظام أبقار وبغال وأيضاً عظام كلاب ماتت هناك مجنونة، متوحشة، متخمة من الطعام. وأمر البطريرك أن يختم الكهف بالملاط.

كانت مهمة فعالة وسريعة وفهم بالتاسار كبرياء رعاة البقر وتجدد احترامه للبطريرك العجوز. لم ينظر رعاة البقر إليه. ما الذي فعله أقل من أخته، التي عثروا عليها واقفة في حفرة تصريف المياه، حين عادوا. كانت مغطاة بالدم، مع خدم ونساء المنزل، والجميع متورطون في فعل غير مؤكد وغامض. شاهد بالتاسار سابينا ملطخة بالدم وسكيناً في يدها، تقطع حناجر الكلاب التي كانت تقذفها إلى الحفرة المليئة بالجثث. راقب شقيقته وهي تحمل مدية بقوة ومهارة عشرة رجال وأدرك فجأة أنها كانت تحب السكاكين. وكم كانت متعتها هائلة حين كانت تغرز سكينها في حنجرة كلب حتى المقبض ممسكة عنق الحيوان بين إبهامها وسبابتها، أصابعها

الأنثوية الملتهفة والعنيدة. بأية متعة كانت تنتزعها وتغرزها في أحشاء الحيوان مكررة إيماءة المتعة، الحب الذي يخشى الاقتراب من جسم العدو، من حرارة الوحش.

«سابينا!» صرخ خوسيه أنطونيو مرعوباً حين شاهد ابنته. مررت يدها فوق فمها لتلطخه بالدم ثم ركضت إلى مربى الماشية دون أن ترمي سكينها.

في تلك الليلة، سمع بالتاسار الصوتين الخامدين والمجروحين والحادين للأب والابنة: صدى شجار الأسرة ذاك، الذي لا يستطيع الزمن أو الجدران إسكاته.

انتظر في الصالة خارج غرف النوم. انزعج الأب حين شاهده هناك فقال بالتاسار وهو يمسكه من كتفه، متحدثاً إليه بألفة: «أتريد أن تعرف شيئاً؟ كنت دائماً خائفاً من أن أحبك كثيراً، لكن لم يكن لدي شيء أتحدث معك حوله...»

تنهد العجوز وضغط على يد ابنه.

«لم تكن كلاباً متوحشة، بل كلاب مربى الماشية وأمرت بإحضارها إلى هنا كي لا تصبح مثل الأخرى». لم يعرف بالتاسار ما رآه والده في عينيه لكن العجوز كان مرغماً أن يقول: «فعلت ذلك بسبب الطيبة... لا تريد أن يحل بنا مكروه... إنها امرأة تفكر بالمستقبل، تماماً مثل أمها.»

(5)

راقب خوسيه أنطونيو بستوس ولده وهو يراقب حياة الريف دون أن يشارك فيها. لم يسأل أبداً السؤال الذي قالت سابينا أنه سيسأله: هل قررت؟ ماذا تريد أن تكون؟ مربي ماشية أم تاجراً؟

كان يعرف أن والده يعتبره طفلاً خاماً، عذراء، دون جاذبية جسدية، يمتلك ولعاً صبيانياً بالأفكار العصرية، ينتظر اللحظة المؤاتية للاستقرار،

متأصلاً بغرابة في الشيء الذي قال إنـه يمقتـه: هـذه الأرض، رعـاة البقـر، البربرية، شقيقته المعادية. لم يكن خوسيه أنطونيو يريد أن يعترف بالسبب الكامن خلف إحساس ولده المتجـدد بالتـأصل. اعتقـد بالتاسـار أنـه عجـوز وهكذا كان يتمدد هذه المرة معه قبل أن يتخذ القـرار الـذي سـيأخذه بعيـداً عن هنا. مربي ماشية أم تاجر؟ والأخبار الـتي كـانت تصـل إلى الداخـل في الأشهر التاليـة اتخـذت القـرار لبالتاسـار. ولكـن، قبـل ذلـك، قررخوسـيه أنطونيو بستوس أن يغير نبرته، أن يجبره.؟

كتب خابيير دوريغو من بوينس آيرس: نـائب الملـك السـابق، لينـيرز، أعدم هو والأسقف وأمين الصندوق. نظـم لينـيرز ثـورة مضـادة وانضـم إليـه جميع الناقمين. كان هناك الكثير – إن طرد الملك الحالي يوضح أن السـلطة لم تعد تسكن في إسبانيا ولكن في بوينس آيـرس والأمـة الأرجنتينيـة. أقسـم الملكيون بأنهم سينتقمون. التجار الكريبوليون ليسوا سعداء. التجـارة الحـرة تحطمهم. لا يستطيعون أن يتنافسوا مـع إنكلـترة. أنتـم يـا سكان الداخـل ينبغي أن تنظروا إلى أنفسـكم في المـرآة. وإذا كـان التجـار لا يسـتطيعون أن ينافسوا فكيف سيفعل ذلك منتجو الخمرة والنسـيج والأدوات؟ لكـن شـعبنا ساخط أيضاً، تابع دوريغو، لأن كورنيليو سافيدرا فرض كونغرسـاً محافظـاً معارضاً لممثلي ماريانو مورينو المتطرفين وأجبر الذين يتبعون مورينو منا على مغادرة الحكومة وماريانو مورينو نفسه نفـي نفيـاً مموهـاً إلى إنكلـترة. ولقـد أجلت أفكارنا في التقدم والتحول السريع.

رمت تلك الرسالة بالتاسار بستوس في إحباط كبير إلى أن جاءت رسـالة أخرى مـني، أنـا فـاريلا الـذي يعمـل في الطباعـة، أخبرتـه أن سـافيدرا، الجيش، والمحافظين أسسـوا لجنـة أمـن عامـة لاستئصال مفجـري الثـورة المضادة. «هاجمت اللجنة الملكيين والمحافظين والمتطرفين على حـد سواء». أخبرته أن «الملكيين ينشدون الآن مساعدة مسلحة من إسـبانيا لإعـادة فتـح المستعمرة. وهكذا مدت الحكومة الاضطهـاد علـى جميـع الإسبان فـاعتقلوا ونفوا وأعدموا. تآمر المحافظون ضد الحكومة الكريبولية ولقـد أعـدم التـاجر

مارتن ألثاغا مع أربعين من شركائه المقربين. ومتطرفو مورينو الذين هم بلا قائد يضطهدون الآن أيضاً. ابك أيها الصديق الصغير: وثننا، ماريانو مورينو، الشاب المتألق واللطيف، مات في سن الثانية والثلاثين على ظهر السفينة التي كانت تقله إلى إنكلترة. من تبقى؟ أرسل بطلك كاستيي ليقود الجيش الشمالي في المكان الذي يتوقعون أن الهجوم الإسباني سيحصل فيه. وهنا في بوينس آيرس، يا بالتا، نحن تابعي مورينو الشبان، نلتقي ثانية – بعد أن قمنا بالاحتياطات – في المقهى القديم دي مالكوس. نحن نستعد لدعم برناردينو ريبادابيا، الذي يبدو أنه التجسيد الأكثر تطرفاً لأفكارنا عن التقدم. لقد اشتقنا إليك يا بالتا العجوز وينبغي أن تكون معنا هنا».

راقب خوسيه أنطونيو بستوس ولده منتظراً ردة فعله وأن يطلعه على الأنباء التي اطلع عليها من مصادره الخاصة. «طغيان بوينس آيرس المركزي – لم يتصنع خوسيه أنطونيو في لفظ الكلمات هذه المرة – في نزاع مع الجميع». اضطهد الإسبان لكونهم إسباناً وحسب. دمر في البداية رجال الأعمال ثم أعدمهم رمياً بالرصاص. قطع أعناق المثقفين الليبراليين في الوقت نفسه الذي قوّى فيه الجيش ومنحه السلطات السياسية. أهذا ما تدعوه بثورة من أجل الاستقلال يا بالتاسار؟ أمن المفترض أن يملأ هذا العنف الفراغ الذي تركته إسبانيا؟

أجاب الابن: «نعم، لكن الثورة خلقت أيضاً نظاماً تربوياً جديداً وأعلنت حقوق الإنسان، تماماً كما حدث في فرنسا. ولقد اعتبرت تجارة الرقيق السيئة مخالفة للقانون».

قال خوسيه أنطونيو مثبتاً عينيه على العيدان الفضية لقرعة المته: «وأصدرت قانوناً يدعى حرية البطون يصرح أن جميع أبناء العبيد الذين يولدون من الآن فصاعداً أحرار».

«وما السيء في هذا؟» سأل بالتاسار مندهشاً، معبراً عن شكه، وقبل كل شيء هو أن هذه المحاججة تحصل. لم يرفع الأب والابن صوتيهما أبداً وكان هناك شيء ما أكثر من سياسة الثورة هو في خطر الآن.

«اقرأ ما يقولونه في *بوينس آيرس غازيت وحسب*». سحب الأب، وقد نزل عند ذلك الاتهام المضاد الغاضب، ورقة الأنباء من بين كومة الأوراق على مكتبه. «ينبغي أن يستمر السود في الخدمة، لأن العبودية، رغم أنها لم تكن عادلة، منحتهم عقلية عبودية. من صار عبداً، تقول الصحيفة، سيبقى عبداً دائماً. وتقول هذا لتهاجم قوانين العبودية الأسبانية، التي هي الشيء الأكثر إثارة للسخرية. اقبل الأشياء كما هي وحسب! سنمنحك حريتك تدريجياً! لقد نقشت عليهم عادة العبودية إلى الأبد، لن تسمح لهم أن يصبحوا أحراراً، وهكذا سنقدم لهم الحرية بقطارة العين! بطون حرة، ولكن حين نقول هذا وحسب. أولئك الذين كانوا عبيداً من قبل سيبقون عبيداً.»

كانت حجة بالتاسار الوحيدة هي أن القوانين المتعلقة بالسود اعتنت أيضاً بتربية السلالة التي عانت من الخضوع فترة طويلة. «ولكن لا يزال عليهم أن يبقوا في منزل السيد حتى يبلغوا العشرين حتى ولو ولدوا أحراراً»، قال والده راداً بحجة معاكسة.

أحس بالتاسار بألم عميق وبليد في كلمات والده وكأن أفعى لدغته. كان هناك ثلاثون ألف عبد في الأرجنتين، ولكن بالنسبة إليه كانوا مجموعين في امرأتين سوداوين، ظئر وأختها، التي حملت طفل أوفيليا سلمنكا المختطف.

كان علي وشك أن يصبح محترماً مع والده: اختطفت طفلاً أبيض تاركاً مكانه طفلاً أسود. أية مفاجأة ستواجه القاضي وزوجته لو عثرا عليه في ذلك المهد الأرستقراطي! لكن، بعد صدمتهما، ما الذي كانا سيفعلانه؟ هل كانا سيربيانه كابن لهما أم يعيدانه إلى العبودية؟ كانت الحكومة الكريبولية ستدير ظهرها لمسألة العبودية وتعالجها على الورق فحسب. كان لدى قارئ روسو هاجس شق رأسه كصاعقة: ستكون هناك حرية دون مساواة.

«عاد رئيس المحكمة العليا والمركيزة إلى تشيلي. بدت رائعة وهي تغادر المحكمة مرتدية السواد ومعلنة الحداد على ولدها الذي هلك في الحريق الشرير الذي نشب في 25 أيار. لم يفكر أحد أن هذه حادثة. قالت جماعة

الثورة المضادة أن أحد الرعاع الليبراليين دخـل إلى مقر الإقامة كجزء من إرهاب يعزونه لنا. لو كانوا فقط يعرفون أن كل ما فعلناه هو أننا حاولنا مواجهة المشكلات الكثيرة التي حامت دون حل طيلة ثلاثة قرون في أقبية المستعمرة! ماذا كان الشيء الأفضل: أن نواصل تجاهلنا لها أم أن نسلط عليها الضوء، نقر بها ونقول: انظروا! ثمة مشكلات، صعوبات، تناقضات. إن إخلاص الثورة يختلط بإرهابها، أيها الأخ بالتاسار. وقد حدث الشيء نفسه في فرنسا. ذكّر أي شخص يجادل ضدنا بهذه الحقيقة»، هذا ما كتبه صديقه دوريغو.

قال بالتاسار لوالده: «لقد حصل الشيء نفسه في فرنسا.»

أجاب العجوز بهدوء: «تعتريني مخاوف حقيقية حول حرية الأمة ووحدة بلداننا. كنت سأفضل الحل الذي اقترحه آراندا، وزير تشارلز الثالث: أن نشكل فيدرالية تجمع بين إسبانيا ومستعمراتها تكون مستقلة وموحدة وقوية لا تضعفها التجاوزات غير الضرورية والنزاع المهلك».

أجاب الابن: «لم تكن الأمور ستتحسن لولا الثورة، ففي فرنسا لولا الثورة التي انتزعت الامتيازات من الملك وطبقة النبلاء لما تخلوا عنها. إن الملك هو الذي أطلق العنف. أنت محق – إن اتفاقية حضارية كانت أفضل. لكن لم يحدث الأمر بتلك الطريقة، لا هناك ولا هنا. ما يهمني هو أننا نعزز بعض الحقوق للأغلبية، حيث، من قبل، كان هناك كثير من الحقوق لقلة فقط. إذا أنهينا إساءة واحدة، امتيازاً واحداً، ستكون الثورة مبررة.»

صفق العجوز أنطونيو بستوس صامتاً بإيماءة ولكن دون أن يصفق بيديه الصفراوين كمعطفه، خطوطهما بارزة في الظلال المرفرفة للشموع التي توشك على الانطفاء أثناء إحدى المحادثات الطويلة بعد العشاء. لم تكن تلكما اليدان نحيلتين كالرقاقات بل صفراوان كالمعطف البطركي، ليستا بلون الخزف كيدي أوفيليا وزوجها. عنى التصفيق: «برافو! أنت تخاطبني وكأنني حشد». كانت كلماته متشددة لكنها رقيقة.

بعد ذلك قال الأب بنبرته المعتادة: «أفترض أنك اتخذت قراراً إذن».

كذب بالتاسار قائلاً: «نعم.»

أدرك أن خشونة والده الغريبة في أثناء نقاشهما السياسي لم تمتلك هدفاً سوى أن تجبر الابن على أن يصل إلى قرار. فهم بالتاسار في تلك اللحظة أن والده لم يرد أن يغيظه أو يسيء إليه وإنما أراد أن يجبره على الوصول إلى قرار. مجبراً على مراجعة خياراته، كان على بستوس الشاب أن يختار، كما قال لنا في رسالة: «لن أبقى هنا ولا يهمني إن دمر التاجر مزرعة الماشية أو سيطرت السهول على بوينس آيرس». يهمني أمران: «أن أشاهد أوفيليا سلمنكا ثانية وأن أحضر الثورة إلى أولئك الذين لم يتحرروا بعد. ولكنني لا أقدر أن أحدث فيها انطباعاً قبل أن أقوم بالعمل. ولهذا سأبدأ بخدمة الثورة. سأنضم إلى كاستيي والجيش الشمالي لأدعم اندماج الجمهورية ضد القوات الملكية».

«غداً سأذهب لأنضم إلى الجيش الثوري في البيرو العليا.»

تنهد العجوز وابتسم ومد يداً لم تعد الشمعة قادرة على تدفئتها بعد الآن. «هل تؤمن هكذا بقوة بالانتصار الأخير لمثلك»؟ أحسدك على إيمانك. لكن لا تخدع نفسك وإلا فسوف تعاني كثيراً. آمن، لكن كن مخلصاً. هل تستطيع القيام بذلك؟ هل أنت قادر على تعديل سلوكك قبل أن تغير العالم؟

جلس بالتاسار بستوس قرب كرسي الرجل العجوز الهزاز وأخبره بما حدث في ليلتي 24 و25 أيار في بوينس آيرس: «لا تصدق من يخبرك أن الثوريين أضرموا النار. أنا أضرمتها يا أبي. كانت ناتجة عن حالتي الخرقاء. أوقعت شمعة دون أن أدرك ذلك حين كنت أستبدل الطفلين. أنا الطرف المذنب. سببت موت طفل بريء.»

(6)

كانت سابينا وراء الباب ولا يعرف المرء أبداً إن كانت تصغي بشكل سري وتتجسس على الأب وابنه دون أي عذر وكأنها تقول: منحتني

الحياة القليل بحيث أستطيع أن آخذ ما أريده. كان بالتاسار لا يزال لا يؤمن أن الأب وابنته كانا متوحدين في حصارهما لشخص عديم الأهمية بنظر الأسرة والعالم مثله: مثالي رومانطيقي، شخص غير جذاب جسدياً، غبي، يحب امرأة لا يمكن الحصول عليها، عميل للعدالة الأكثر عمى والأكثر طوباوية. أيمكن أن يكون فعل الإخلاص ذاك مع والده أنه على الأقل قد أنقذه؟ مقت نفسه، وبالتالي مقت الحضور التطفلي لشقيقته أكثر من ذلك، حين تخيل شبكة من الاشتراكات الممكنة في الجريمة والخدع الفعلية.

قالت سابينا حاملة شمعة بيدها: «ألم يسألك بعد»؟

«يسألني عن ماذا؟»

«إن كنت تريد أن تصبح تاجراً أو مربي ماشية»؟

«لا تكوني منافقة. لقد سمعت كل شيء.»

تابعت سابينا دون أن تصغي لشقيقها كأنها تقرأ سطوراً من مسرحية.

«يريدك أن تختار.»

«لقد سمعت كل شيء. لا تستمري في التظاهر. لقد أعددت هذا المشهد وكأننا في مسرح. حسناً. انتهى الفصل الأول. قولي شيئاً جديداً من فضلك».

«قلت لك إنني أريد أن أخرج من هنا أيضاً.»

«لكنك لا تستطيعين. يحتاجك العجوز. ضحي بنفسك من أجله إذا رغبت ومن أجلي أيضاً. هناك دائماً ابن أناني وآخر يضحي. انتظري إلى أن يموت ثم ارحلي.»

بدأت تضحك. لا، ليست الأخت الوحيدة التي تستطيع أن تعتني بوالدها وتضحي بنفسها من أجله. كان لدى العجوز دزينات من الأبناء. ما الذي فكر به المسكين الصغير بالتاسار؟ ألم يكن يعرف قوانين الريف؟ إن بطريركاً مثل خوسيه أنطونيو بستوس كان بوسعه أن يحصل على ما يشاء من الأطفال من نساء المزرعة إن لم تكن زوجته الشرعية كافية وخاصة إذا كانت غير ممتعة كالمسكينة ماريا تيريزا إيتشيغاراي التي أنهت أيامها

منحنية كعصا الراعي، تحدق بالأرض إلى أن نسيت وجوه النـاس ومـاتت. كانت ممتلئة ومصابة بقصر البصر. «مثلك.»

كان خوسيه أنطونيـو بسـتوس يمتلـك فوجـاً مـن الأطفـال المبعـثرين في السهول والجبال لكن قانون الريف كان عصياً علـى الخطـأ: إذ أن العجـوز يقدر أن يعترف بولد واحد وحسب.أما بالنسبة إلى الآخرين فإن هذه الأرض التشردية ستبتلعهم.

«أنت الولد الوحيد الشرعي يـا بالتاسـار»، قـالت سـابينا وكأنهـا غـير شرعية، وكأنها، بعد أن ولدت،كانت تموت كل ليلة في السرير الذي حكم عليها أن تكون فيه وليس لديها وقت لتعاود الولادة في اليوم التـالي. «لكنـك تبدو تماماً كأمي. إن راعي البقر الذي تحديته منذ فترة وجيزة يبـدو تمامـاً مثلك، ألم تلاحظ ذلك؟ أنا التي أبدو كأبي، لا أنت.»

قال بالتاسار مرتبكاً: «لا أعرف عـن مـاذا تتحدثـين. يجـب أن يكـون هناك أي عدد من أطفال أبي يبدون مثلك ومثله.»

شعر أنه يفقد نفسه في الشيء الـذي يمقتـه أكـثر مـن غـيره: «التـبرير الذاتي. ورغم أنه يمقتها، فقد كان يفضل أن يكون صادقاً مع سابينا الـتي كانت جافة وداكنة كأبيهما، كما كان مع والده قبل أن يحبه.»

«أعرف أنك سمعت كل شيء. فكري بـالأمر قليـلاً وسـاعديني.» أحـب امرأة لن أحظى بها أبداً قبل أن أفعـل مـا ينبغـي علـي فعلـه. سـأنضم إلى كاستيي في البيرو العليا يا أختي العزيـزة. ولكـن الآن فقـط، متحدثـاً معـك هنا – وأشكرك من أعماق قلبي – هل أفهم أنه ينبغـي علـي أن أفعـل كـل شيء أستطيعه لأنقذ الطفل البريء. سأرسله إليك، إلى هنا، لكي تعتني به. هل ستقدمين لي هذه الخدمة؟

«ما كل هذا الشيء عن طفل بريء؟ أتريدني أن أبقى هنـا أسـيرة حتـى بعد أن يموت العجوز؟ عن ماذا تتحدث؟»

لم تكن هذه شكوى أو سؤالاً. كـانت فقـط مقولـة عـن الحقيقـة المهلكـة المتعذر تجنبها التي هيمنت على حياتها. وعندما وصلت معلومـات جديـدة

في الأيام التالية، استطاع الأخ والأخت أن يثبتا النظر على عيني بعضهما أثناء العشاء أو حين أحضرت سابينا قمصاناً مكوية حديثاً إلى غرفة النوم حيث كان بالتاسار يحزم حقائبه. وفي الحقيقة كانا ينظران إلى الزرائب والحقول وحسب حيث أصبح رعاة البقر مهتاجين من الأنباء. أصدرت حكومة بوينس آيرس قانوناً ضد البدو. ينبغي على رعاة البقر أن يهجروا تجولهم البربري وعاداتهم التي لا فائدة منها ويستقروا في المرابي أو المزارع أو في الصناعة. وسوف يمنحون بطاقة هوية وبالمقابل عليهم أن يبرزوا شهادات توظيف وسيحكم على منتهكي القانون بالأشغال الشاقة أو الخدمة العسكرية.

توجب على خوسيه أنطونيو بستوس أن يقرأ القانون بصوت مرتفع لرعاة البقر الذين استدعوا إلى بوابات مدخل المربى. الرجال المشعرون، الذين لا توجد ثغرة في جلودهم المتبلدة سوى وميض أعينهم وأسنانهم والذين أصغوا وكأنهم يستعدون لمعركة، أيديهم على أحزمتهم أو تستريح على مقابض خناجرهم. ولمعت أيضاً شفراتهم ومهاميزهم وأبازيم أحزمتهم معمية البطريرك الريفي العجوز أكثر من الأشعة الرقيقة لشمس الشتاء التي كانت تغوص وراء السلسلة الجبلية باكراً، وكأنها ضجرة من قوانين البشر. وبينما كان يقرأ التصريح الصادر عن الثورة الكريبولية نظر العجوز بستوس في الأعين التي قالت: «أيها العجوز، أنت لا تمتلك فائدة بالنسبة إلينا. لا تقدر على إنقاذ طريقتنا في الحياة. ضع راعي البقر خلف السياج وستقتله. لنر إن كان هناك أحد بيننا يتولى المسؤولية ويرسلك أنت وبوينس آيرس وهذه القوانين مباشرة إلى الجحيم. من يعتقد هؤلاء البشر أنفسهم؟ أيعتقدون أنهم يستطيعون أن يملوا علينا من هناك؟ ربما عليهم أن يذهبوا إلى هناك ويحكموا أولاد القحاب. إذن من يتولى قيادة رعاة البقر؟ لنر من يريد أن يكون رئيسنا. أياً كان سنتبعه حتى الموت ضد العاصمة وضد القانون وضدك لكي نحافظ على حرية الطواف أحراراً كما كنا دائماً.»

عندئذ رأى بالتاسار الموت في خوسيه أنطونيو. أساء له القانون الليبرالي كما أساء لرعاة البقر ولكن هذا كان نصراً للابن وأفكاره: كان الأمر وكأن

خوسيه أنطونيو، الواقف ثابتاً في الهزيمة كان ميتاً يحمـل شمعـة بيـده. في ملامحه عالم مكتف ذاتياً يموت، عالم بطيء كالعربات التي يسـافر فيهـا، عالم وصل بينه النجارون والخبازون والخياطات وصانعوا الصابون والشـموع والحدادون ورعاة البقر. وولد جميعهم تقريباً وجاءوا ليموتوا هنا، لكن ذلـك الإخلاص في الجوانب المتطرفة للحياة كان يستند إلى حريتهم في الحركـة، في الحصـول علـى حصـان والبحـث عـن ثروتهـم حـاملين ممتلكـاتهم علـى ظهورهم أو بين أرجلهم: الفرس، المهاميز، الأسلحة والحلي. كانت النساء تشتري والهنود يروضون بالكحول والعسل ولكن رعاة البقـر كـانوا يعـودون دائماً إلى سيدهم الحقيقي لكي يولدوا من جديد أو يموتوا ثانية. كل مـا مـر عبر العينين المتـألمتين لخوسيه أنطونيـو بسـتوس، الواقـف هنـاك بمعطفـه الأصفر، يرسم إشارة الصليب فوق صدره برشاقة غير مبال بالتفكك البطـيء واللامرئي لمستودعاته وإسطبلاته وعرباتـه وصوامعـه وأديرتـه. كـان رعاتـه دائماً هنا حين يحتاجهم شرط ألا يجبرهم على البقاء.

في تلك الليلة كان بالتاسار هو الذي توقف قبل أن يدخل غرفـة العشـاء ليستمع إلى حديث أبيه وشقيقته.

«وبما أن رعاة البقر سيسجنون مثلي الآن لماذا لا تمنحني لأحدهم؟»

«اهدأي.»

«سيقفل على الجميع. نحن جميعاً متشابهون الآن.»

«بوسعك الذهاب إلى بوينس آيرس أو منـدوزا متـى شـئت.لدينـا أقربـاء وأصدقاء.»

«يجب أن تفكر وأنت تضحك، حسـناً، حصلـت علـى سـكاكينها مـن أجل التسلية، المسكينة تسلي نفسها بقتل الكلاب بخنجر قبضته مصنوعـة من عضو ثور...»

«سأصفعك يا سابينا.»

«من الأفضل لـك أن تركـل قـبر زوجتـك. لقـد تضـاءلت الفقـيرة حتـى اختفت. أتعتقد أنني مثلها وأنني سأتخيل أن عظمتي تكمن في أنني صغيرة

وحسب؟ لا شيء يعزيني يا أبي، لا شيء، لا شيء عدا فكرة مزعجة كانت دائماً في خلفية ذهني، وهي أن أمي يجب أن تكون قادرة على الهوى، فقط مرة، خيانة زوجية واحدة، إنجاب طفل آخر... هذا يعزيني حين أرى راعي بقر متوحشاً له وجه أمي وذراعه مليئة بندوب ناجمة عن جراح من سكين.»

«اهدأي يا ابنتي، أنت تهذين.»

«ألا يكسر أي شيء وقارك؟ هل تقول دائماً ما تعنيه بوضوح – أنك لا توافق، أنني مخطئة، أنني مجنونة، وأنني مومس في عقلي.؟»

«إن سلوكي هو تراثي يا ابنتي. اهدأي. تبدين وكأن السحر استحوذ عليك.»

«هذا هو الأمر يا أبي. لقد سحرني العالم.»

(7)

«أذاعت الحكومة قانوناً آخر جيداً»، قال بالتاسار لسابينا بينما كان يحزم حقائبه متناولاً القمصان التي قدمتها له. «معظم رعاة البقر هؤلاء سينتهون في الجيش كونهم متمردين. ثم سيطلبون أن تفتح المهن في الجيش للجميع. سيأتي سلك ضباط الثورة من جميع الطبقات والمناطق. لم يعد بوسعها أن تكون مقتصرة على الطبقات العليا.»

«سترى أن قطاع الطرق هؤلاء سيموتون أو يسجنون بسبب الفرار»، قالت أخته وهي تسلمه بوطاً عتيقاً.

«خذه، يقول والدي إنه هدية. لقد أحضر له الحظ الجيد. إنه من هنا وقد صنع من كفل البغال».

«إنه يبدأ بمنحي ممتلكاته الدنيوية»، قال بالتاسار مبتسماً ببعض المرارة.

ثم افترق الأب والابن بعناق وقال بالتاسار إنه مـن المسلي التفكير أنـه بينما هو يذهب إلى الحرب يفرض القانون على رعاة البقر أن يبقوا في مربى الماشية تماشياً مع أوامر جيدة.

قال خوسيه أنطونيو بستوس: «بهذه الطريقة لن أكون وحيداً أبداً.»

ضمه بالتاسار إلى صدره بشدة وقبل يده: «انتظرني يا أبي.»

ضحك العجوز بجفـاف قـائلاً: «لـنر، في أوقـات السـلام يدفـن الأبنـاء آباءهم ولكن في أوقات الحرب يدفن الآباء أبناءهم.»

«إذن اجعلهم يدفنوك قربي يا أبي.»

«وهكذا، في هذه الحالة، يمكن أن تكون أنت الذي يرحـب بـي حـاملاً شمعة في يده؟»

«لا لأنهم لن يدفنوني في أرض مقدسة.»

«حسناً، وداعاً أيها المواطن بستوس وحظاً جيداً.»

ثم جاء أمر مـن المجلـس السياسـي في بوينـس آيـرس يقضـي بانضمـام بالتاسار بستوس إلى الجيش في البيرو العليا، وهكذا ما كـان قـراره الخـاص تحول إلى إلزام فرضه عليه الآخرون.»

الفصل الثالث

إلدورادو

(1)

لم يقدر شيء على تهدئة أرواحهم في الفوضى الهائلة للجيوش إلا الطبيعة العارية والقاسية ذلك أن المتمردين والإسبان هزما بعضهما بعضاً عدداً متساوياً من المرات. ولقد ألغى الجيشان بعضهما ولم يبق بوسعهما الاعتماد إلا على حرس المؤخرة السياسي والعسكري – سلطة نائب الملك في البيرو للملكيين وجمهورية بوينس آيرس الثورية للوطنيين.

«أية فائدة لنا في هذا الموقف»، سألت في رسالة تلقاها بالتاسار بستوس حين التحق بالجيش الذي كان يتجمع في خوخوي ليستعد للهجوم على البيرو العليا وذلك تنفيذاً لأوامر صدرت عن المجلس السياسي لبوينس آيرس. ولم يكن بالتاسار يعرف ماذا يجيب. وصل بين نصرين وبين هزيمتين. لم يكن قد وصل حتى إلى النجد المرتفع وكان يواجه قرارات لم يتخذها أبداً من قبل. انضممت أنا ودوريغو إلى المجلس السياسي لألبار – وأكدنا له أن ألبار كان قوياً وحاسماً وجذاباً – ومعتقدين أننا نقدم معروفاً لصديقنا، وضعناه على رأس فوج ثوري. خبير عسكري؟ «لا تقلق يا عزيزي بالتا. ستحصل على النتيجة الأفضل. ما تملكه، على أية حال، هو شيء لا يملكه أحد آخر: الحماسة الثورية وإحساس بالعدالة. دون فضائل كهذه، لن تكون الثورة إلا مجرد حرب أخرى». في ذلك الوقت لم نكن نعرف أن أوامرنا تزامنت مع أمنياته.

كانت حرب عصابات: تابع بالتاسار تكرار ذلك المصطلح الذي نحت حديثاً – الذي وصل مؤخراً من إسبانيا التي ثارت ضد نابليون – بينما كان حاجب يساعده على ارتداء بزته المؤلفة من بوط أسود وبنطال أبيض ومعطف خارجي مطرز وقصير وقبعة بثلاث زوايا مع عقدة شريط القبعة الثلاثي الألوان. كان رجال العصابات القوة الوحيدة المتاحة للثورة من أجل أن تجعل الطريق إلى البيرو العليا مفتوحة ولتعزز الحكومة الثورية في الإقليم الذي كان بخيلاً وظالماً، ولكنه كان ضرورياً لازدهار بوينس آيرس بسبب مناجمه. كانوا رجال العصابات الذين تنظموا تلقائياً بين سانتا كروز دي لا سييرا وبحيرة تيتيكاكا. سيقدمون الدعم للقوة الثورية التي تقاتل الإسبان. لم يكن هناك إمكانية أخرى. قاطعوا تدفق المواد التموينية والطعام، كمنوا للإسبان وقطعوا خطوط الاتصالات بين النجد والسهوب. كانت أوامر الملازم أول بالتاسار بستوس: تعاونوا مع العصابات.

لم يمتلك بطلنا الغافل وقتاً للاحتجاج أو الابتهاج: أفتقد للقدرة العسكرية فأنا لا أرى جيداً، وزني زائد ثم إنني مولع بالعدالة لا بالحرب. وسألنا أنا – فاريلا – ودوريغو في رسالة بعثها إلينا: «لماذا لا تأتيان إلى هنا وتقاتلان. ما الذي أفعله بحق الجحيم – أنا السمين، الأعمى، المتيم بكتبه – في هذه الأمكنة الوحشية والمنعزلة؟ ماذا تفعلان في بوينس آيرس؟ تصلحان ساعتيكما؟ حسناً، انتبها جيداً إلى هذا: نحن في منطقتين زمنيتين مختلفتين.»

في الحقيقة، لم يكن هناك زمن، فبين حياته المسترخية في مربى ماشية والده في السهول ووصوله العاصف إلى تشوكيسكاكا، كان هناك أكثر من مجرد المسافة المكانية. ثمة قرون أخرى وأحلام أخرى، مهما كان إنكاره لذلك، ولقد ظهرت، بفوضى متدفقة، في مسار بالتاسار بستوس. لم يكن هناك قتال. لم يكن على جندي الاستقلال المرتجل أن يقود أبداً تشكيل معركة، وأكثر من مرة تجمدت في فمه كلمة «نار». ولبست المتاريس الغرانيتية للجبال أشكال بشر أعداء وكان بوسع ظلال الأصيل أن تعود إلى

الحياة بطرق تهديدية. ولكن لم يكد بالتاسار يصعد من السهول الأرجنتينية إلى النجد البيروفي حتى كان شاكراً للعزلة المعادية والثابتة لتلك المشاهد القمرية. قال لنفسه أكثر من مرة: كانت عنصر الانسجام والهدوء الوحيد في عالم فقد عقله. ولم يكن لصخب المثلين علاقة بالهدوء الكئيب لذلك المسرح. لم يكن هناك أحد لتطلق عليه النار في تلك الحملة المؤلفة من الأوهام.

وصل بالتاسار بستوس إلى البيرو العليا في أثناء فترة الانقطاع بين إسبانيا والاستقلال. أعدمت القوات الإسبانية على الفور الضباط الوطنيين وأعدم الوطنيون الضباط الملكيين. لكن الانتقام تأجج: قدمت الإدارة الاستعمارية مرشحين أكثر وأفضل لفرق الإعدام - أمناء إمدادات، مراقبين، قضاة (محكمة ثابتة أو متجولة)، محامين وكتاباً بالعدل. وأعدم نساخ دون محاكمة في ساحة بوتوسي. وفي مدينة لاباز «الشقية والبربرية» الانفجارات، النهب والإباحية، والفرار، هذه ما كانته العادة. اختيرت النساء من أجل أكثر الحفلات صخباً، وانضممن إلى صفوف الاستقلال «كحجة للتخلي عن الدين والحشمة، وليقدمن أنفسهن للمتعة بشهوانية قصوى.»

كتب له دوريغو: «ينبغي أن تفرض النظام. لا يجوز أن يضحي جيش الثورة بهيبته من خلال ارتكاب الجرائم أو التغاضي عنها.» النظام؟ أنا؟ انفجر بالتاسار بستوس في قهقهة مرة وهو ينشد ممراً للعدالة جديراً بالمديح وسط ذلك العماء: كانت جدران البيرو العليا ملطخة بدماء الكريبوليين والإسبان - رجال بيض مثله، كتب بالتاسار لصديقنا دوريغو - كانوا ضباط وقواد الجيوش الثلاثة: «الإسباني وجيش العصابات وجيش المجلس السياسي لبوينس آيرس.» كان الحشد الكبير للجنود مؤلفاً من دم مختلط وكان الهنود وحوش العبء في الجيوش الثلاثة. أدركت عيناه الحسيرتان ذلك لكنه لم يكن في موقع لتوزيع العدالة مهما كان ما تشاهدانه. أدار البيض حروب العصابات وقتل بعضهم بعضاً. مات المهجنون في المعركة

وكـان الهنـود يقدمـون الطعـام والعمـل والنسـاء. استغل الجميـع، تطـوع الجميع، والجميع نهبوا. حين وصـل إلى النجـد ردد بالتاسـار مكـرراً دون توقف: لا يمكن أن ينقذنا جميعاً إلا العدالـة، والعدالـة تعـني النظـام دون استغلال، المساواة أمام القانون. كان يبحث عن محكمة يعلن منها حقيقتـه ويرتب كلمات وأفعال العدالة ضـد عمـاء الـدم المسـفوح وقبـل هـذا بـتردد وحسب من أجل أن يسمح بولادة عالم آخر.

دخلت الأسلحة التي غنمت من القوات الإسـبانية سـاحة سـانتا كـروز دي لا سييرا فجراً مزعجة هدوء الجبال. وغزت الخيول الـتي أطلقـت مـن الإسطبلات شوارع سويباتشا في منتصف الليـل مغـيرة إيقـاع الكواكـب. وفي سوق كوزكو تبادل مقاتلو العصابـات في أيوبايـا محصـولاً مـن أوراق الكوكـا مصادراً مقابل مؤن غذائية لكي يستخدمها المقاتلون. أما مرابي الماشية التي خلفتها الأوليغاركية الريفيـة فقـد احتلتهـا العصابـات وحولـت إلى ثكنـات لجنرالات الحرب المحليين، لرؤساء تافهين بدوا من كل قمـة جبـل، مـن كل واد، وتقريباً مـن كـل رعـن علـى الطريـق كـأنهم يعلنـون استقلالهم، جمهورياتهم الصغيرة، كما دعاها بالتاسار بستوس عن صليبه – الجمجمة – صعوده إلى سقف أميركا.

وهناك كان، هذا الذي مـن المينـاء المتنـور لبوينـس آيـرس، بـأوامر مـن رجال الثـورة، ليقيـم علاقـات مـع سلسـلة مـن جـنرالات الحـرب القسـاة والمتهوريـن والمتغطرسـين، الأخويين ظاهريـاً، والأنـانيين، الذيـن شـعروا جميعاً أنهم يمتلكون الحـق في أن يـأخذوا أي شـيء: المرابـي، الحيـوات، النسـاء، المحـاصيل، الهنـود، الخيـول، العربـات ومسـاراتها باسـم الاستقلال. ولكن وكما قال له الزعيم خوسيه فيسـنتي كامـارغو الـذي كـان يسيطر على الطريق بين الأرجنتـين والبـيرو العليـا: «هدفنـا هـو أن نحـرر أنفسنا من قوانـين وقمـع إسـبانيا، لا أن نسـتبدلها بقوانـين وقمـع بوينـس آيرس». وهكذا كان الأمر في تلـك الأعـوام بـين 1813 و1815. ولكـي أطلـع بالتاسار على مستجدات الأمـور كتبـت لـه: «كـل واد يسـفح مـاءه في نهـر

بيلكومايو، كل سلسلة جبال، كل وهد، وكل جمهورية صغيرة مركز مستمر للعصيان المسلح.»

على أية حال، لم يكن من الضروري شرح أي شيء ذلك أنه بين تاريخا وبحيرة تيتيكاكا، بين سويباتشا ونهر سيبي سيبي، شعر بالتاسار أنه ممثل سلطة جديدة بعيدة وطاغية كإسبانيا. محب الانتقام ميغيل لانزا في الجمهورية البالغة الصغر أيوبايا، خوان أنطونيو ألباريز دي أريناليس على طرق ميثكيه وباليغراند، الحاذق والمجنون قليلاً، الأب إلديفونسو دي لاس مونييكاس إلى الشمال من بحيرة تيتيكاكا، البطريرك المهيب والكريم إغناسيو وارنز، الذي رحب بأولئك الذين دخلوا ملاذه المنيع في الجبال، مانويل أسنسيو باديا وخوانا أثورداي دي باديا الطائشان – أعلن كل منهم استقلاله وسلطته ضد قوتين فاسدتين وبعيدتين هما إسبانيا وبوينس آيرس.

صادر جميعهم المحاصيل والماشية وجندوا الخلاسيين من البلدات والهنود من الجبال، نهبوا مزارع الماشية واغتصبوا النساء لكنهم قطعوا أيضاً خطوط اتصال الجيش الإسباني وجردوه من تموينه وهاجموه ليلاً هنا وهناك معتمدين على عنصر المفاجأة، غير قادرين على هزيمته في هجوم أمامي، لكنهم استنزفوه بجراح صغيرة، مستمرة، قاسية ومفاجئة. وفتحوا الطريق، قدموا مناطق استراحة، طعاماً ومواد تموينية لجيش التحرير، الذي، بدون الجمهوريات البالغة الصغر، جنرالات الحرب المحليين وقواتهم من العصابات، كان سيموت من الجوع عند كل بداية، ويضيع في هلوسة ذلك النجد الشبيه بوجه القمر المختبئ بشكل دائم. كانت هناك أيضاً الهجمات الأسبانية المضادة. دون طعام أو اتصالات، دون جنود تكميل، بعيداً بشكل لا يصدق عن قاعدة بوينس آيرس، كان جيش التحرير الذي كان بالتاسار بستوس يقود فيه مئتي متطوع من مناطق الأرجنتين الشمالية، غير قادر على الاستمرار ليلة واحدة لولا جنرالات الحرب المحليين. لكنهم رفضوا كل ما أحضره بالتاسار بستوس إلى البيرو

العليا، بينما بحث هو، بصبر كاهن، عن الفرصة لإعلانه. وقدم له الفرصة في النهاية الأب إلديفنسو دي لاس مونييكاس في ساحة أريكاخا المحصنة على الشاطئ الشمالي لبحيرة تيتيكاكا. لم يتحمل الزعماء الآخرون بلاغة بالتاسار الثورية، واتخذت قراراتهم العنيدة التي بدت لا تدحض في المكان نفسه حتى ولو كانت نتيجة تخطيط طويل. كانوا يعرفون دائماً ما يريدونه: الخيول والمحاصيل. إذا لم تنفذ أوامرهم فوراً سيخسرون الحرب، وكان الأمر في تلك البساطة. كان النصر اسم طلباتهم المنفذة. وحين تنفذ أوامر جنرالات حرب العصابات فوراً تبدو أرواحهم كأنها ما كانه الاستقلال. وبعد أن تحدث بالتاسار معهم وراقبهم في بداية الدوامة التي أثارها هؤلاء الرجال، لم يجد فيهم ذلك الشق الصغير الضروري للشك، وبدون شك، لم يكن هناك خطاب للعدالة.

«اجمعوا مائة هندي لنقل المعدات»، أمر مانويلا سينسيو باديا على الطريق إلى تشوكيسكاكا.

«أطلقوا النار على كل إدارة أورورو»، أملى ميغيل لانزا من عرشه الغابي بين كوشابامبا ولاباز. «سوقوا الماشية خارج المزارع وأحضروها إلى هنا»، قال خوسيه فيسينتي كامارغو فارضاً إرادته على الطريق إلى الأرجنتين. «افتحوا الممرات الجبلية لجميع رجال العصابات المجروحين الذين يجيئون إلى كروز»، أمر وارنز السمح التفكير. قال الأب إلديفونسو دي لاس مونييكاس، وهو يصفق بيديه ويعصر عينيه ليغمضهما: «أريد امرأة لكنني لا أستطيع، سينتهك هذا قسمي بالطهارة...»

شاهده بالتاسار يصل راكباً بغلاً كمشهد من رواية سرفانتس على مسرح يشبه النجد الرئيسي لإسبانيا. كان جافاً، مرتفعاً، كئيباً وذا تجاعيد. كررت إسبانيا في مستعمراتها: الكاريبي الأندلسي، قشتالة المكسيكية، إكسترامادورا التي تشبه كوزكو. بدا إلديفونسو لاس مونييكاس أيضاً كأرضه الإسبانية والأميركية، لكنه كان قشتالياً في بنيته الجسدية وأندلسياً في إيماءاته وعينيه. كاهن ثوري: ابتسم بالتاسار مصدوماً، ليس صدمته

الخاصة، لكن الصدمة التي ظن أن صديقنا اليعقوبي خابيير دوريغو سيشعر بها. لم تنج نظرة بستوس من الأب دي لاس مونييكاس.

كان أول شيء قاله: «هل أقف كثيراً. لا أريد أن أسبب فضيحة. لكن حتى اسمي يجذب الانتباه في النهاية، كلمة مونييكاس تعني دمى وبالتأكيد أنا أحب النساء الجميلات. وهكذا لماذا لا تقوم أفعالي بالشيء الكثير؟ هل تحدد أسماؤنا شخصيتنا أم هل أفعالنا هي التي تضفي المعنى على أسمائنا؟ دع أفلاطون يحذر هذا.» وضحك الكاهن الثوري.

قال بالتاسار بستوس: «يجب أن يرشدنا القانون جميعاً»، قافزاً وعلى وشك أن يسفح كوب المته الذي سافر معه من السهوب. من الذي أخبأه بين قمصانه البيضاء في حقيبته: والده خوسيه أنطونيو، شقيقته سابينا، أم راعي البقر الصديق والظريف؟ «قسمك مثال للجميع أيها الأب.»

فتح عيناً ونظر إلى بالتاسار بمزيج من السخرية والفضول: «وأنت، ماذا تريد أن يمنع ذلك القانون؟»

«أريد العدالة. أنت تعرف ذلك أيها الأب.»

«ليس الأمر بنفس الطريقة. رغبتك والقانون لا يتعارضان.»

«لكن رغبتي وحقيقتي تتعارضان.»

ولم يلمع آنذاك إلا الفضول في عيني الكاهن الثوري المستطيلتين والضيقتين: «إذا منحتك فرصة للعدالة، هل ستمنحني فرصة للحب أيها الشاب؟»

احمر بالتاسار وقال، لكن دون فكرة ثانية: نعم، وانفجر الأب إلديفونسو دي لاس مونييكاس في ضحك لا يمكن السيطرة عليه قائلاً: «خطر لي أن الأمر ينبغي أن يكون بالعكس أيها الشاب، ينبغي أن أمنح العدالة، ويجب أن تتعلم عن *النساء المانحات للمتعة*، كما قال خوان رويث، كبير كهنة هيتا، ذو الدم الحار مثلي منذ بضع مئات السنين».

رفع طرف ردائه، كما كان يفعل دائماً حين يتخذ القرارات المتعلقة بالله والإنسان على حد سواء، وقال للملازم أول المندهش إنه لا يعرف ما

يقصده مواطن بوينس آيرس الشاب عن العدالة، أما هو، الكاهن، فيؤمن بوفرة البركات التي تربطها النصوص المقدسة بالعدالة البشرية أو الإلهية. ترك رداءه يسقط إلى طوله الطبيعي ثم كسا صدره بحزام الطلقات والشارات.

في اليوم التالي استدعى الأب إلديفونسو بالتاسار إلى ساحة أيوبايا الرئيسية حيث وجد حشداً من الهنود ينتظره. قال الكاهن وهو يستدير نحو بالتاسار: «لا يصدقونك إلا وأنت على ظهر الحصان. امتط الحصان أيها المغفل إذا أردتهم أن يصدقوا ما تقوله.»

توسل وجه بالتاسار المندهش طالباً سبباً.

«الحصان سلطة، أيها المغفل. لقد هزمهم الحصان. ليس هناك كلمة في هذه الأرض دون حصان.»

«أريد أن أحضر لهم العدالة لا المزيد من الهزائم»، احتج بالتاسار الذي يرتدي من أجل المناسبة معطف الاستعراض بطياته العريضة، وضفيرة ذهبية، وكتافيات، وقبعة ذات زوايا ثلاث وعقدة شريط القبعة.

قال الكاهن بنبرة حاسمة: «ليس هناك عدالة دون سلطة.»

أخذ بالتاسار نفساً عميقاً ونظر إلى الأعلى وكأنه ينشد الوحي في الكلية القمعية للنجد: الجبال لون واحد دون لون، رمادية كمثل التربة النقية قبل لطخ الثلج والمطر وأبواط الجنود، ضربات المعدنيين، وحتى قبل العشب. أرض دون زخرف، عارية، وكأنها تتوقع أنها ستنبعث يوم القيامة من احتياطي جبال الإيمارا. ثم خفض عينيه، وهناك كانوا: الرجال والنساء والأطفال الذين رآهم فقط وهم يطبخون ويحملون ويعتنون بالحقول ويرضعون ويدفعون عربات الأسلحة وعلى جباههم علامة السيور الجلدية المتعرقة لأكياس سماد الغوانو وأوراق الكوكا أو الفضة التي حملتها أكتافهم ووازنتها رؤوسهم.

كان بالتاسار بستوس ينتظر هذه الفرصة وشكر الأب إلديفونسو لأنه منحها له. خرج بعض الضباط الجمهوريين من الثكنة مع بعض رجال العصابات. وفي المسافة توقفت بعض العربات وأخرج رجال يرتدون قبعات

مرتفعة لماعة رؤوسهم وخلع بعضهم القبعات التي كانت تحميهم من الشمس لكن هذا سخن جباههم التي تمسكها أحزمة جلدية. كانت قبعاتهم كرؤوسهم التي كانوا يمسحونها، باحتقار معتاد، بأكمام معاطفهم وهم يلمسون النعومة المخملية للقبعات. وبدت على جباههم علامة أربطة أكياس السماد.

قال لهم جميعاً، لأن ذلك العالم، بالنسبة إليه، كان كل العالم الموجود في تلك اللحظة، أن الثورة المتنورة كانت ترسل من بلاتا - التي سماه الغزاة الإنكليز الريفر بليت - نهر الفضة، النهر المضيء، إلى هذه الأرض التي تتألف أحشاؤها من فضة حقيقية. أمره المجلس السياسي لبوينس آيرس - قال بعد وقفة ملمحاً أن الاستعارة لم تكن إلا تمهيداً والتمهيد مجرد استعارة - أن يحرر هنود النجد من العبودية، وهو الشيء الذي يقوم به الآن رسمياً. الحصان، القافز، أراد أن يلتف وفعل ذلك،لكن بالتاسار لم يدر ظهره لجمهوره أبداً. كانوا جميعاً حوله، صامتين، هادئين، صابرين. وهكذا شعر الخطيب بالقوة وبالراحة وهو يتحدث عن العدالة للبشر المظلومين بينما هو يمتطي أحد أعاجيب الطبيعة، الحصان الأسود المتألق - وراكبه الفصيح. رفع بالتاسار المرسوم ليراه الجميع وهو يمسكه بشدة - على الرغم من أن الورقة الصلبة ألحت على الالتفاف، متخذة الشكل المربح الذي حملها فيه، مربوطة بشريطة حمراء، منذ أن أرسلها دوريغو مع رسول إلى خوخوي - قرأ المرسوم بصوت مرتفع: لقد ألغيت جميع المفاسد، حرر الهنود من دفع الجزية، ستوزع جميع الأملاك وتؤسس المدارس والهندي مساو لأي مواطن أرجنتيني أو أميركي.

شاهد بالتاسار بعض الهنود يركعون، فترجل ولمس رؤوسهم المغطاة بالقبعات الهندية وقدم يده لكل منهم وقال لهم بصوت، لم يتعرف عليه هو نفسه، صوت دائم العذوبة كان يدخره للمرأة الأولى التي أحبها، أوفيليا سلمنكا، التي امتزجت صورتها الشقراء، العارية والمعطرة، بصعوبة، مع صورة هؤلاء البشر الذين يرتدون الأسمال والذين بلا تعابير، الذين رفعهم

من وضعية السجود قائلاً لهم: لا تفعلوا ذلك أبداً مرة أخرى. نحن متساوون. لا تركعوا ثانية أبداً. انتهى هذا. جميعنا أخوة. يجب أن تحكموا أنفسكم. يجب أن تكونوا مثالاً. أنتم أقرب إلى الطبيعة منا...

أمسك الأب دي لاس مونييكاس بالتاسار من ذراعه قائلاً إن هذا رائع وكاف وأنه سمع. في تلك اللحظة، رد بالتاسار بقوة لم يعرفها من قبل، كما لم يعرف الرقة التي تجلت فيه لتوها.

«هذه كذبة أيها الأب. لم أسمع. كم من هؤلاء الهنود يتحدث الإسبانية؟»

«قلة. وتقريباً لا أحد، هذا صحيح»، قال الكاهن دون أن يغير تعابيره، وبينما هو يحدق، لا إلى بالتاسار، وإنما إلى العربات التي توقفت عند حافة الساحة.

«لكنهم يعرفون الحقيقة من نبرة صوت المتحدث. لم يتحدث إليهم أحد من قبل هكذا».

«حتى أنت أيها الأب؟»

«نعم، لكن فقط عن العالم الآخر. وآمل أنه يمكن العثور هناك على العدالة التي أعلنتها. ليس هنا على الأرض. تحدثت معهم عن الأرض. إنها لم تنتم إليهم أبداً».

هز كتفيه ونظر ثانية إلى العربات.

«ولا تنتمي إلى أولئك البشر الذين هناك أيضاً. لكن، من ناحية أخرى، أعتقد أن هؤلاء الهنود يمتلكون السماء.»

«من هم؟»

«الكريبيوليون الأغنياء. يعيشون من الميتا mita.

«وما هذا؟»

لم يظهر دي لاس مونييكاس حتى ابتسامة. قرر أن يحترم هذا المبعوث من المجلس السياسي لبوينس آيرس، أن يحترمه حتى لو شعر نحوه بالأسف.

«الميتا هي الحقيقة العظيمة واللعنة العظيمة على هـذه الأرض. إن الميتـا تشرع عمل الهنود الإجباري في المناجم. يهرب كثير منهـم فعـلاً، ويلـوذون بالمزارع، حيث يبـدو المـالكون كـأنهم فرانسيسـكيون بالمقارنـة مـع مراقـبي المناجم.»

قبل الكاهن كتفيته.

«لا. هذا رجـل ديـن متمـرد يتحـدث إليـك. هنـاك شـيء أفضـل لهـذا الشعب. كل ما آمله فقط هو أن نقدر أنا وأنت على مساعدتهم. مـن ناحيـة أخرى، انظر إلى وجوه أولئك التجار ومالكي المزارع هناك. أعتقد أننا فقدنـا ثقتهم لتونا.»

«لماذا جاؤوا؟»

«لقد نبهتهم: تعال واسمع صوت الثورة. لا تخدعوا أنفسكم.»

«ولكن حين يقال كل شيء ويفعل هل ستصبح صديقي أم عدوي؟»

«لا أريد لأحد أن يخدع نفسه.»

«لكنني أعتمد عليك في تطبيق تلك المرسومات التي أذعتها.»

«أنت يا ولدي؟»

«ليس أنا بل المجلس السياسي لبوينس آيرس.»

«كم يبدو هذا بعيداً. ما دام نائب الملك في ليما، والملك في مدريـد، فـإن قوانين جزائر الهند الغربية...»

«أنا من الداخل أيها الأب إلديفونسو وأعرف سلوك هذه الأرض: نحـن نطيع القانون، لكننا لا ننفذه. أعترف أنك القانون هنا، كما ميغيل لانزا في الغابة وأريناليس في باليغراند، و...»

عصر الكاهن مقدمة ذراع بالتاسار: «كفى! هنا أنا كاهن متمرد يتحـدث إليك وحسب. أنا وأولادي الذين لا يبلغ عددهم إلا مئتين ولكنهم لم يسموا الكتيبة المقدسة من أجل لا شيء.»

«حسناً. فقط أنت أيها الأب. حاول أن تطبق القانون هنا.»

انفجر الأب إلديفونسو ضاحكاً وعانق بالتاسار.

«أترى؟ لقد عهدت إلي بالقانون لكنك لم تعثر لي على امرأة. وبخلافك أنا أحفظ جميع الوعود.»

قال لبالتاسار إن بيوريتانيي بوينس آيرس، مثلهم مثل المحافظين في لاباز، مرعوبون من السلوك اللاأخلاقي للنساء اللائي شوشن حرب الاستقلال بحملة من الدعارة. ضحك متذكراً بعض الاعلانات الأخلاقية التي فقد الجنس الناعم بموجبها كل بهجته حين خضع للفوضى. وبالنسبة إلى إلديفونسو بدا البيورياتنيون المحافظون والبيوريتانيون الثوريون بلهاء على حد سواء. منح الله الجنس للرجال والنساء ليس من أجل التناسل وحسب وإنما أيضاً من أجل الاستجمام. ولكن لتكون بشرياً من المهم أن تمارس الجنس مع التاريخ، جنساً بمعنى، جنساً مع الأسلاف، مع الجوهر، هل فهم الملازم أول الشاب؟ الجنس، حرفياً، كقربان مقدس، كجسد ودم وعاطفة مستمرة وعقل، بالتالي، بتاريخ... وإذا كان تحرير مدينة مثل كوزكو تفوح بالسجون والزنزانات والدم والموت مسموحاً، إذن من المسموح على حد سواء تحرير الجنس، الذي يفوح أيضاً بسجونه الخاصة...

«بمعنى آخر أيها الملازم أول، إن قسم الطهارة قابل للتجديد، وهذا هو قانوني. وهنا كاهن متمرد يتحدث إليك. أنت، من ناحية أخرى، لا تواجه قيوداً كهذه، وبدلاً من ذلك تفرضها على نفسك كأحمق. كنت أراقبك طول أيام. لا تأخذ شيئاً إلا إذا قدم إليك. انظر أيها الملازم العزيز القادم من بوينس آيرس، لنعقد صفقة. سأقسم لك، على رأس أبنائي المئتين بأنني سأنفذ مرسوماتك حتى ولو كلفنا ذلك بيضاتنا. ولكن عليك أن تعدني بأن تفقد عذريتك الليلة. لا تحمر الآن، أيها الملازم أول. إنه مكتوب على وجهك، ومرئي بسهولة من طريق بعيد. ما تقوله : لي القانون، ولك امرأة. أو من الأفضل أن نقول: لي قانونك، ولك امرأتي. إن كاهناً متمرداً يضمن ذلك.»

«لماذا تفعل هذه الأشياء؟» سأل صديق أبينا المرتبك.

«لأنك أصبحت جزءاً من جنوني، حتى دون معرفة ذلك. وهذا يدعو إلى السرور دائماً.»

(2)

ينبغي على الإنسان أن ينام دائماً في الموقع نفسه الذي ولد فيه وإذا مات قبل أن يستيقظ ستنتهي حياته كما بدأت. كل شيء دائرة ولن يكون لها معنى إن لم تنته حيث بدأت، وبالتاسار الملتف طول تسعة أشهر داخل رحم أمه، عيناه مغمضتان وركبتاه تلمسان ذقنه، يتوقع أنه حين ينتهي كل شيء سيبدأ من جديد. صوت معروف ومجهول في آن كان يقول ذلك في أذنه. لقد أصغى دائماً لذلك الصوت، وهو يصغي الآن إليه. كان جديداً وقديماً.

حين فتح عينيه، شاهد نساء يجلسن على الأرض ينسجن ويصبغن الملابس الصوفية. ثم نام من جديد وربما أغمض عينيه وحسب. على أية حال حلم. انفصل رأسه عن جسده في الحلم وذهب ليزور حبيبته أوفيليا سلمنكا. أين هي الآن؟ هل عادت مع زوجها إلى تشيلي؟ تندب موت ولدها؟ أما يزال الجميع يعتقدون أن الطفل الذي مات حرقاً هو طفلهما؟ لا يمكن التعرف عليه بسبب ألسنة اللهب؟ يمكن التعرف عليه رغم كل شيء؟ وإذا كان الأمر هكذا ليس ميتاً بل مفقوداً وحسب؟ هل ستبكي أوفيليا صارخة: «أين ولدي؟» وبالتاسار يحلم: «أين يمكن أن تكون أوفيليا؟»

كانت النساء ينسجن وسط الدخان ويصبغن الملابس صابرات وبالتاسار يحاول أن يميز وجوههن لكن عيناه خذلتاه. أم خياله؟ ثم ينجو رأسه ثانية، محلقاً، قافزاً، مصدراً ضجة مضحكة إلى أن يضرب ظهر المركيز زوج أوفيليا سلمنكا وكأن الأرستقراطي النائم لم يقدر على قيادة جسد زوجته النائم، وجاء رأس بالتاسار رغم الزوج، إلى ظهر المركيز وقد استدعاه حلم أوفيليا الحار، أوفيليا التي لم تعرف بالتاسار. استيقظ الملازم أول مذعوراً ومتألماً وجاءت إليه النساء لتهدئته، لهدهدته، وأحضرن له كوباً يتصاعد منه البخار.

«إنه حساء معد من كندور فتي يصارع الجنون ويحرر أحلامك.»

نام شاعراً بالقرف من جسمه. فيما بعد انصهرت ناره فيه دون أن تلوث نفسها أو تفقد انفصالها، دون أن تدمره. اقتربت النار من جسمه وانضمت دون أن تدمره. الطفل الذي في المهد المحاط بخمسة وعشرين شمعة لم يمتلك حظاً كهذا. انتصرت النار. التهمت الطفل. ومع ذلك لمست تلك النار بالتاسار، تغلغلت والتهمته، لكنها لم تدمره.

«نحن خائفون من النار. لقد أحرقونا بالنار. ينبغي علينا أن نبتكر ناراً لا تقتل.»

عندئذ شاهد فتاة تعجن دقيق الذرة وتحضر الأرغفة في زاوية. حين استيقظ بالتاسار شاهد أن حشيته محاطة بالرماد، وفي الرماد شاهد بوضوح آثار حيوان. حاول أن ينهض لكنه لم يقدر. كان مقيداً إلى السرير. كان مقيداً إلى نفسه. قيدته ضمادات رمادية إلى السرير، إلى نفسه، إلى حلمه عن الرماد، وإلى آثار الحيوان. مع ذلك شعر أنه حر. جسده المقيد، المغطى بالرماد، المقيد بنوم عميق، كان في الوقت نفسه أكثر الأجساد حرية على الأرض. عامّ، لكنه ملكٌ للأرض، التي هي ملك الهواء. استمتع بجميع العناصر: الأرض التي شدته إلى الأسفل والهواء الذي رفعه إلى الأعلى والنار التي ثارت دون أن تدمره والماء الذي ميّع كل إنش من جلده دون أن يكسره. كان كل شيء ممكناً ويتعايش مع بعضه بعضاً. ولم يكن هناك أحياء أو معلقون في العالم إلا هو والفتاة التي تعد الخبز . ولم يكد يوحّد جميع العناصر حتى أصبح العالم ملموساً. وحين حاول أن يتصور تلك العناصر اكتشف إلى جانبه امرأة لم تكن أوفيليا سلمنكا. استدارت لتواجهه فأدار لها ظهره. دعته ليلف ذراعه حول خصرها. تسلقته بسرعة وكان فخذاها النار، ردفاها التراب وفمها الماء وثدياها الهواء. جعلته يتمنى أن لا يأتي الصباح أبداً. فكرة حياة النهار، الثورة، المجلس السياسي لبوينس آيرس، تحرير العبيد، سلطة جنرال الحرب إلديفونسو دي لاس مونييكاس، الكراهية البعيدة لأولئك الرجال الذي يعتمرون قبعات مخملية

طويلة، عدم فهم بشر قريبين متقاعدين يرتدون الأسمال وتحذيرات والده، النظرات الماكرة لرعاة البقر، بوينس آيرس، صديقاه دوريغو وأنا، فاريلا، تمنى أن يهرب كل ذلك ويتبخر حين لمس عناصر الخلق في القبل والمداعبات، استسلام امرأة هندية عنى أن العالم وجنونه أقصيا إلى الخارج، إلى الخلف، إلى الأمام، ولكن ليس هنا، ليس الآن. المرأة التي أحبته جسدياً امتلكت المقدرة على إطالة الليل.

«لا أحد يعرف أننا هنا.»

«أكلا كونا أكلا كونا»، كان الناس يصيحون في الجوار، في الخارج، أصوات من المحتمل أنها طيور تنادي، زعيق غربان، صوت عقاب. «المختارة، المختارة.»

عادت إلى عجن دقيق الذرة.

حين استيقظ محموماً ومن ثقل صرخة، لم تكن النسوة هناك. كان متجمداً من البرد. انطفأت جميع النيران، لكن الملابس التي صبغت باللون الأرجواني كانت مبعثرة على الأرض القذرة. كان الرجل الذي ساعده على الوقوف خلاسياً مسناً يرتدي قميصاً متسخاً، ربطة عنق مهترئة، بنطلوناً سماوياً من البليز وبوطاً مبسمر النعل. كان شعره قصيراً ولحيته طويلة. قاد بالتاسار خارج الكوخ ورماده البارد وتوقفا في زقاق جبلي ضيق. تعرف بالتاسار على الجبال واستنشق الرائحة الوحلية للبحيرة القريبة. قاده العجوز بلطف إذ كان من الصعب على بالتاسار أن يبقى منتصباً واتكأ على الخلاسي العجوز وعلى الحيطان المصنوعة من أحجار ناعمة تامة ومصفوفة كأن عمالقة شيدوها.

مضى أسبوع على وجوده هنا، لكنه لم يلاحظ حتى الشيء اللافت للنظر في المكان: الهندسة، الأحجار، مضلعات تامة منضمة إلى بعضها بعضاً كأنها في أخوة سحرية. ودعيت تلك الأحجار المنبوذة، غيرة المستخدمة، بـ «الأحجار المتعبة»، لأنها لم تنجز أبداً العناق الأخوي للمضلعات الأخرى.

ولكن لم يبق سوى الأحجار. لم يكن هناك بشر في الشوارع: لا هنود ولا ضباط كريبيوليون أو إسبان، أو مالكو مناجم بقبعاتهم الرسمية، أو جنرالات حرب في أردية كهنة، ذلك أن الجمهورية الميكروسكوبية بدت فارغة.

سأل بالتاسار المنذهل: «هل بقي أحد؟»

ولم يبد أن العجوز سمعه.

«أردت أن تحضر هؤلاء الفقراء إلى قمة الجبل وتريهم إمبراطورية بلا حدود. ومن الجبل شاهدوا إمبراطورية كانت لهم مرة. لكنها لم تعد كذلك، ولقد دعوك لتدخل ففعلت.»

«اللعنة! أنا أسألك إن كان قد بقي أحد في هذه القرية!» صرخ بالتاسار بستوس غير قادر على تهدئة نفسه. ولقد شعر أنه مختلف وهو يتحدث بتلك النبرة، هو الذي لم يغضب أبداً، هو، الذي حين كان يتوجب عليه أن يتولى السيطرة على رعاة البقر، كان يفعل ذلك مبتسماً.

«ألا تسمعني أيها العجوز؟»

«كلا لا أسمعك، ولا البشر الذين من هنا.»

«ما قلته كان واضحاً جداً. لقد انتهت العبودية وستوزع الأراضي وتبنى المدارس...»

«لم يستمع إليك الهنود، وبالنسبة إليهم لست سوى أرجنتيني آخر مغرور كالإسبان، بعيد في النهاية، لامبال وقاس. إنهم لا يرون اختلافاً والكلمات لا تقنعهم حتى ولو قيلت من على صهوة الحصان.»

«أمرت الكاهن أن ينفذ أوامري.»

«بقيادة جنرال الحرب إلديفونسو، هاجموا الخزينة في أورورو حالما عرفوا أن الإسبان غادروا المدينة وقبل أن تصل قوات جنرال الحرب الآخر ميغيل لانزا. إن هذه الجيوش المساعدة تعيش من أجل نفسها لا لكي تخدم ثورة بوينس آيرس. لحسن الحظ أو لسوئه، إنهم هم الذين ملأوا الفراغ بين العرش والجمهورية. إنهم هنا. وأنت فقط تأتي وتعد بأشياء لا تنفذ أبداً ثم تذهب.»

قال بالتاسار مهووساً ومحتاراً: «لقد وعد الكاهن أن يطيع القوانين.»

«سيكون هناك وقت للقوانين. لا يمكن تغيير الأبدية في يوم واحد. فكر بالأمر: هل سيلغي الأب إلديفونسو الضرائب والميتا بينما حليفه القائد الهندي بوماكوسي يغتال أي كاهن لا يتبع إلديفونسو دي لاس مونيبيكاس وهو يفعل ذلك معتقداً أنه يساعده؟ إن أكثر بنود العمل إلحاحاً هو إيقاف إفراطات بوماكوسي. أصدقاء كهؤلاء يجعلون الأعداء غير ضروريين.»

توقف العجوز أمام بناء أكثر ترفاً من الأبنية الأخرى، لا بد أن يكون مجلس البلدة كما ظن بالتاسار وهو يحاول أن يحدده وهو يتخلص تدريجياً من نومه الطويل. مشط العجوز - المزهو - لحيته الغزيرة ناظراً إلى وجهه في لوح زجاجي.

«ومن أنت أيها العجوز؟»

«سيمون رودريغز.»

«ماذا تفعل؟»

«أدرس بعض الأمور وطلابي لا ينسون أبداً ما أشرحه لهم لكنهم ينسونني وهذا يؤلمني.»

«والنساء؟» واصل بالتاسار بستوس طرح الأسئلة لكي يحرر نفسه من شرح العجوز الذي قال القليل لذهنه المحموم أكثر مما أراد أن يزيد معرفته بحقيقة واضحة: كان بالتاسار لا يعرف إلا شيئاً واحداً وهو أنه في ليله الطويل، الذي يتألف بالتأكيد من كثير من الأيام المنكرة، لم يعد عذراء.

«لقد متن أيها الملازم أول»، قال سيمون رودريغز واقفاً مع بالتاسار أمام مشهد الجبال الكدر، البحيرة المهتاجة والساحة الفارغة. «ليس من الممكن أن تكون أكلاكونا في خدمة آلهة قديمة وتنام مع أول ضابط كريبولي تافه تصادفه.»

«لم أسأل...» بدأ بالتاسار ببلاهة ناسياً تبادل الوعود مع إلديفونسو دي لاس مونيبيكاس وعندها رغب أن يقول فقط: «لا أذكر أي شيء.» أراد أن ينبه نفسه وحسب لشيء شعر به بشكل سري حين قرأ المرسومات

التحريرية عند بحيرة تيتيكاكا، وهي مرسومات مكتوبة ببلاغة ثورية وبروح كاستيي ولكنها موجهة إلى بشر من المحتمل أن لديهم طرقهم الخاصة التي تؤدي إلى الحرية، ليس بالضرورة – كتب بالتاسار في رسالة أرسلت إلى كل من دوريغو وإلي – تلك التي اخترعناها بشكل زائف:

حين كنت محاطاً بقفر النجد وأنا أنظر إلى وجوه الهنود غير المحجمة، قرأت بلاغاتنا، شعرت بإغواء فظيع ربما كان الوحيد الذي لا يستطيع حتى الشيطان أن يقاومه. شعرت بإغواء أن أمارس سلطة بحصانة عليهم، رغم أنني كنت أعرف أنهم لا يمتلكون آنذاك أي وسيلة ليجيبونني. أردت أن أرى نفسي في تلك اللحظة، على حصاني، بقبعتي ذات الزوايا الثلاث بيد والبلاغات في الأخرى، متحولاً إلى تمثال، أي إلى شخص ميت وإلى ما هو أسوأ من ذلك يا صديقيّ. وشعرت للحظة بأنني فخور بتفوقي على نحو قاتل، وفي الوقت نفسه، شعرت أنني أحب نقص الآخرين. ولم أكن أعرف طريقة أخرى لأربح كبريائي إلا من خلال رقة هائلة وعار كبير عندما ترجلت لألمس رؤوس أولئك الذين احترموني من أجل نبرة صوتي وحسب، رغم أنهم لم يفهموا كلمة واحدة مما قلته.

لكن سيمون رودريغز تابع كلامه: «كان من المفترض أن تكبر كعذراء لأنها أقسمت على ذلك. لكنها حنثت بيمينها من أجلك.»

«لماذا؟» سأل بالتاسار ثانية بغضب، دون أن يتعرف على نفسه، قبل أن يكتب لنا الرسالة وقبل أن يعثر على ما يشبه الجواب في حقيقة سؤاله لماذا؟

«لقد دخلت إلى هذا المكان دون أن تعرف، وتحدثت مع هؤلاء القوم من قمة الجبل. الآن يجب أن تهبط إلى أرض الهنود الفقيرة، الأرض التي أخضعتها قوانين البؤس والعبودية، لكنها أيضاً الأرض التي حررها السحر والأحلام...»

«إلى أين تأخذني؟» سأل بالتاسار الذي أبلغه ذكاؤه أنه في هذه القرية المهجورة على شاطئ البحيرة لا بديل له سوى أن يتبع.

أمسك سيمون رودريغز، بقوة كانت فائقة للعادة في عجوز مثله، ذراعي بالتاسار ثم كتفيه وأداره ليواجه لوح الزجاج. أخيراً أمسك قفا عنق العسكري الأرجنتيني الشاب وأجبره على رؤية نفسه في النافذة حيث مشط العجوز لحيته منذ بضع لحظات.

حين تفحص بالتاسار نفسه شاهد رجلاً مختلفاً. كانت خصلات شعر عنقه النحاسية اللون قد نمت وذهب الشحم من وجهه. أنفه أصبح حاداً وفمه أكثر صلابة وكشفت عيناه خلف النظارة غضباً ورغبة إذ كانتا سابقاً تبدوان طيبتين. نمت لحيته وذقنه، وبهذا الوجه كان يستطيع أن ينظر إلى العالم بطريقة مختلفة. لم يقل ذلك. فقط سأل نفسه ثانية. لم يعد عذراء - طفلاً، كما أصر الكاهن الغريب دي لاس مونييكاس على مناداته. لمن كان عذراء؟ ليس من أجل أوفيليا سلمنكا، التي رآها وأحبها من بعيد، منذ ثلاثة أعوام وحسب. هل امتلكت عاطفته الهادئة لينقذ نفسه من أجل امرأة، أي هدف؟ هل كانت هناك أخرى غير أوفيليا، أو العذراء الهندية التي حنثت بيمينها لتمنح نفسها له؟ ماذا نفعل هنا على هذه الأرض؟ سأل جان جاك روسو نفسه: «لقد جئت إلى الحياة، وها أنذا أموت دون أن أكون قد عشت.»

(3)

سيتذكر باباً مسحوراً وبضع درجات حجرية في قبو دار البلدية المهجورة. سيتذكر أنه كان في قاع الدرجات جرف صخري منحرف بحدة إلى مجرى النهر في الأسفل. سيتذكر أثراً، عريضاً كظهر بغل، محفوراً في خد الجبل. سيتذكر يد الخلاسي العجوز الذي ينتعل بوطاً بمسمار نعل غليظ، وهي تقوده عبر الممر الضيق الذي يسبب الدوار. سيتذكر فسحة لا تكاد ترى من الشقوق: براكين مغطاة بالثلوج وحفر ملح مهجورة. سيتذكر بحيرة حمراء معرّقة ببيض الفلامينكو. سيذكر الطيران السريع للبلاتا، ديك

جزائر الهند الغربية الأبيض الموسوم بجرحه الأسود يطوف البحيرة بحثاً عن الطعام. سيتذكر غابة من الغيوم المضاءة بالنجوم إزاء سور الجبل، تحمل ندى الغابة والنهر لكنها ترفض أن تسلمها للصحراء الواقعة على الجانب الآخر من الآنديز. سيتذكر ضجيج الأجراس خلف غابة الغيوم ومشهد قطعان اللامة المرعوبة تسد الممر، تبصق وتثرثر بلسانها السام وترافقها شكوى البلاتا البعيدة. ثم بعثرت زخة برد حيوانات اللامة والطيور، لكن حين استدار بالتاسار ليتأكد مما رآه، وجد نفسه محصوراً في كهف مظلم. تلمس ما حوله ناشداً صحبة سيمون رودريغز فمد الخلاسي العجوز يده له قائلاً إنه سيعتاد على الضوء المتاح. ولكن لم يكد بالتاسار يحرك يده حتى شعر بست، ثماني، بدزينة من الأيدي تلمس يده، تأخذها بمتعة، تتحسسها، تمرر الأصابع فوقها، وكان كل ما أحس به هو الأيدي الحارة لتلك المخلوقات التي لم تكن مرئية له، بل كانت تصدر أصواتاً كتلك الديكة الرومية البيضاء التي أثارها حضور الديكة الرومية الأخرى وبحثها المتلهف عن الطعام في البحيرة.

«يقولون إنك بارد وإن يديك وقدميك لا تصدران حرارة...»

لم يقل بالتاسار للعجوز سيمون أن أيدي الهنود تشتعل دائماً وهذا ما اكتشفه في تلك الليلة، تلك الليالي، في الوقت الذي أمضاه مع المرأة الهندية، العذراء مثله، والتي كان لهبها الذي لا يحرق، الحماية الطبيعية لأولئك الذين يولدون على ارتفاع ستة آلاف قدم، الذين يملكون شرايين في أصابع أيديهم وأقدامهم أكثر من البشر الآخرين. كان يرغب أن ينهي رحلته هناك – لم يعرف كم استغرقوا من الوقت للوصول إلى حيث هم – ويلتف كحيوان لينام مع أولئك البشر ذوي الدم الدافئ، محمياً إلى الأبد بحرارة أيديهم، الحرارة الضرورية للنوم. وذلك حين اعتاد أكثر على الظلام، بدأ يحس منطقة أخرى للحرارة في الأجساد التي حوله: الأعين.

أيد حارة، أقدام حارة، وأعين مضيئة. لكن أعينهم كانت مغمضة. تحركوا جميعاً وكأن حزام الضوء الذي ربط أجفانهم المغلقة كان بديلاً

للرؤية، إلى أن مزجت، دزينة أو أكثر من تلك الأعـين المحجبـة والشـفافة في آن، أشعتها في شـعاع واحـد، غلـف وسـبق بالتاسـار وسـيمون رودريغـز وقادهما إلى حافة هاويـــة جديـدة، داخـل الكهـف الكبـير، وكـأن الكهـف (هل حدث هذا فعـلاً؟) يكـرر العـالم الخـارجي،عـالم الشـمس، في ظلمتـه الداخلية.

توقفت الأجسام التي كانت تقود الغريبين محيطة بهما. الضوء الذي في أعينها أعمى بالتاسار وسيمون في البداية، ولكـن حالمـا استدارت الأجسـاد نحو الهاوية، ألقت تلك الأعين ضوءاً ازدادت سرعته وبياضه على بانوراما قريبة بشكل غريب، عميقة جداً، وفي الوقت نفسـه أحاديـة البعـد. كـانت كرة ضخمة، بلون الفضة لكن كريستالية، كمرآة. في مركــز المكـان - كـرة، هاوية، مرآة؟ - كان هنـاك ضـوء. لكـن ذلـك الضـوء لم يكـن منفصـلاً عـن الأضواء الأخرى على أرضيـة الكهـف ولا في المجمـوع البسـيط أو انعكـاس الأضواء في أعين سكان الكهف. هل كـانوا في الحقيقـة تحـت الأرض؟ هـل صعدوا إلى الأعلى، رغم الانحدار عبر الباب السـحري في قبـو دار البلديـة؟ أكان في الأسفل أم في الأعلى؟

كان هذا ضوءاً نقياً وبسـيطاً، دون تبويـق، ولا ابتهـاج. كـان أكـثر مـن أصل الضوء، رغـم أنـه لم يشـبه كثـيراً شـيئاً كهـذا - بالتاسـار وسـيمون، المخدران، وقفـا هـادئين ولمسـا الأيـدي، كـي يلمسـا شـيئاً مألوفـاً: اللحـم والدفء. كان ضوءاً قبل أن يظهر الضوء نفسه. كان فكرة الضوء.

كيـف اكتشـفا ذلـك؟ كيـف أوصـل سـيمون ذلـك لبالتاسار وبالتاسـار للخلاسـي العجـوز دون أن يفتـح أي منهمـا فمـه؟ نظـر الاثنـان إلى أعــين أدلائهم المغمضة لكن المشعة. كانت الرسائل التي يبثها الضوء تمر عبر تلـك الجفون المغمضة وكان الرجلان قادرين على أن يقـرآ ويفهمـا ولكـن لم يكـن هناك شيء مكتوب على العيون التي كانت عميـاء مـن الضـوء، إذ لم يكـن هناك سوى الضوء. وقال الضوء: أنا فكرة الضـوء قبـل أن يكـون الضـوء قـد شوهد من قبل.

بعد ذلك استدارت جميع الأعين في الكهف الآنكي نحو الغريبين وفاضت الهاوية بالضوء. محدقين فوق الحافة، شاهد كل من العجوز والشاب مدينة برمتها تخرج إلى مدى النظر ببطء ولكن بوضوح، مدينة مصنوعة من الضوء. كانت الأبنية نتاجاً للضوء، من الأبواب والنوافذ إلى السقوف العالية للأبراج، وكانت الساعات أيضاً مصنوعة من الضوء. كانت الشوارع ممرات مهيبة ومضيئة، وكانت عربات من الضوء تندفع مسرعة في الجادات: بدت وكأن الضوء يسيرها، كأنها مندفعة نحو الضوء، وفي كل زاوية، وعلى كل باب، كان الضوء يبث رسائل غامضة، أحرفاً مرسومة، إشارات، وأرقاماً، أسماء تؤلف بسرعة من الوميض السريع لعدد من نقاط ضوء تسبب الدوار، في إطار كان كمثل رمز الضوء نفسه. وداخل ذلك الإطار، أوضح الوميض السريع للنقاط المضيئة اسماً واحداً وكرره في ومضات متعاقبة إلى أن رسم على شبكيتي الغريبين وكأنه نقش على الصخر. وكان الاسم هو أوفيليا سلمنكا، أوفيليا سلمنكا، أوفيليا سلمنكا.

كبح بالتاسار إيماءة رعب ورقة وكأنه كان يتوقع كشفاً آخر: تلاشت الأحرف، ولكن داخل الإطار نفسه، ظهر وجه الحبيبة، لا كرسم، أو كنسخة، أو كترجمة رمزية، وإنما هي نفسها، بجسدها وعينيها وحركة شفتيها وعنقها وحين تقلص الشكل لكي يشاهد كله، رأوا أنها كانت عارية. قدمت نفسها لبالتاسار، للمشاهد، للعالم، كاملة في كل تفصيل ممنوع، كل سطح ناعم وقابل للمداعبة، كل إخفاء يسبب الخوف، قاس وعنكبوتي... كانت أوفيليا سلمنكا هناك، تحركت، شوهدت، وتحدثت الآن. وما قالته كان صحيحاً، لأن بالتاسار سمعها تقول ذلك:

«لا ترسل إلي أزهاراً. أكرهها. فكر بما تحبه فيَّ.»

كررت تلك الكلمات عدة مرات، ثم بدأ صوتها يتلاشى مع صورتها. وشعر بالتاسار بستوس بدوار امرئ شاهد ما ينتمي إلى مملكة الموت التي اكتشفها لتوه تنام وسط الحياة.

قال سيمون رودريغز حين انطفأت الأضواء في الحوض: «لقد رأيت لتوك ما بحث عنه أسلافنا الإسبان مسعورين في العالم الجديد. لقد ادخرت رؤية الدورادو لك. إلدورادو، مدينة الذهب في العالم الهندي.»

لكن، بالنسبة إلى بالتاسار بستوس، الذي كان يستمع إلى الخلاسي العجوز، لم يكن هناك صرخة رفض، وإنما شيء أكثر سوءاً ومكراً: غثيان مثل ذلك المتعلق بفقدان البراءة، تأكيد ماكر كالسم، شيء غير عقلاني، سحر، دمر، ببعض الصور المغوية والأثيرية، كل البنى الصبورة العقلانية للإنسان المتحضر. وكتب إلينا بالتاسار قائلاً إنه لم يحدث له أبداً في حياته نفور وإثبات متعارضين تماماً كما يكملان بعضهما، متحدين فيه بقوة كهذه. كان مقتنعاً أنه وصل إلى الماضي الأبعد، إلى أصل جميع الأشياء، وأن ذلك الأصل السحري للسحر والوهم لم يكن تشبيهاً كاملاً للإنسان بالطبيعة، لكن، مرة أخرى، طلاقاً تعجيزياً، فصلاً جرحه في أكثر قناعاته المتنورة يقينية. أراد أن يؤمن بأسطورة الأصول، لا كأسطورة إنما كحقيقة العالم متصالحة مع الفرد. ما الذي شاهده هناك؟ أية خدعة أو أي تحذير؟ إن التوحد مع الطبيعة ليس بالضرورة هو صيغة السعادة. لا ترجع إلى الأصول! لا تنشد انسجاماً مستحيلاً! احتف بجميع الفروقات التي تصادفها على الطريق...! لا تعتقد أننا كنا سعداء في البداية! وللسبب نفسه، لا تعتقد أننا سنكون سعداء في النهاية...!

قال له سيمون رودريغز ليطمئنه: «ما تشاهده ليس الماضي، ربما هو المستقبل. هذه المدينة نذير لا بالسحر الذي تمقته يا بالتاسار، بل بالعقل الذي سيأتي.» ولكن بالنسبة إلى بالتاسار، أي شيء لم يكن عقلاً كان سحراً. «وإذا لم يكن سحراً بل علم، ما الذي سيقوله عقلك؟» سأله العجوز خائفاً، مرة أخرى، أنه أظهر الكثير لمريده، الذي، للسبب نفسه، سيكره أستاذه ويمضي بقية أيامه محاولاً أن ينسى تلك الرؤية الفائقة للعادة التي لم يرد أحد أن يشاهدها لأنها كانت مقلقة، لأنها تشكك بمعتقداتنا العقلية.

هكذا أجبت بالتاسار: يجب أن تختبر الحقائق التي تؤمن بها، وتحدق بأي شيء ينفيها وجهاً لوجه. ولا أعرف إن أجابه دوريغو أو ما يمكن أن يقوله، ولكنني فهمت أنه كان منزعجاً أكثر مني وربما أكثر من بالتاسار.

قال لي دوريغو من بيونس آيرس: «لا تنحرف عن الحرب والحكومة، إن البيرو العليا، كما يعرف الجميع، هي أرض الأطباء السحرة والهلوسات والمخدرات وينبغي أن نضع حداً لهذا يوماً ما.»

قال سيمون رودريغز مستخدماً ذراعيه ليقي جسد الشاب بالتاسار المنهك والذي بلا حياة وهو يحاول أن يقوده خارج مدينة الضوء: «ينبغي أن نتركها سليمة. أقسم أنك لن ترسل أحداً إلى هنا. إن استكشافها يعني تدميرها. دعها تحيى إلى أن تجيء اللحظة التي يفهمها فيها الجميع لأن المستقبل نفسه يتركها خلفه.»

لكن بالتاسار لم يستطع أن يسأل: ما الذي رأيته؟ هل فعلاً رأيت ذلك، رغم أنني لم أستطع أن ألمسه، أم أنه الحلم؟ أين نحن؟ كان بوسعه أن يتوسل بينما كان سيمون رودريغز يخرجه من هناك متجاهلاً الحكايات التي تمر عبر الأعين المضيئة لكن المفتوحة الآن لسكان إلدورادو. ومع ذلك،حمت تلك الحكايات سر المكان، وقال سيمون رودريغز الحقيقة التي كان قد لمسها بنفسه لبالتاسار المحموم بينما تمسك بظهر البغل في منحدر الجبل اللولبي الذي يسبب الدوار.

«كل ما تتخيله هو حقيقي. اليوم شهدنا فنتازيا بين كثير من حالات الفنتازيا المحتملة. لا نعرف إن كانت لك، إن كانت تحدث أمامك، أو إن كانت المقدمة للتالية.»

لم يبد أن بالتاسار كان يصغي بل قال شيئاً ما وكأنه يحاول أن ينسى ما كان يقوله عندما قاله، بدلاً من أن يذكره.

تلك الأحلام هي حياتنا الحقيقية.

لا ينتهي الليل أبدا.

تنتصر الأحلام على الزمن.

الخطيئة الوحيدة هي انفصال العالم الحسي عن الروحي.

لكن سيمون قال: كلا... ليس هذا هو الدرس، الدرس هو أن تقبل أن كل ما نتخيله حقيقي، أننا لم نشهد اليوم إلا لحظة قصيرة من ذلك الشريط اللانهائي حيث الحقيقة مكتوبة، ولا نعرف إن كان ما شاهدناه جزءاً من مخيلتنا اليوم، أو من مخيلة تسبقنا، أو أنه يعلن عن مخيلة قادمة...

«لقد جربت دواراً يعلمك أن شيئاً ينتمي إلى الموت يستطيع أن يوجد في الحياة»، وهذا ما كتبه لنا أخونا الأصغر بالتاسار.

حين تلقينا رسالته، كان بالتاسار قد تعافى في مستشفى في كوشابامبا حيث أحضره سيمون رودريغز المتحرر من الأوهام. تابع العجوز بثقة بحثه عن مريدين جدد. انتظر بالتاسار كلمة منا بعد أن كتب لنا. قال إنه رغب أكثر من قبل أن يقوم بالفعل في العالم الواقعي وينسى الكوابيس. أي كمسيون أردنا أن نرسل إليه؟ شعر بأنه قوي، شفي بشكل كامل، وفقد عشرين باونداً. آه نعم، وذكرنا أنه ضاع في أحد الأنفاق الخمسة آلاف التي تصل كوزكو بالمناجم في بوتوسي، ذلك أن طبخ البطاطا يستغرق ساعات هناك بسبب الارتفاع، والبحيرة مجرد مسار تركه الجليد المنسحب، حمم البراكين تصفر وهي تتدفق نحو السفح، البيرو العليا تفوح بالزئبق الذي ينقل في أكياس جلدية لمعالجة الفضة، ثم إنني نمت مع فتاة نما ثدياها بين ساقيها، وشاهدت الشمس تسبح تحت العالم عند الغروب.

الفصل الرابع

البيرو العليا

(1)

حصانه الأرقش، الذي كـان يفـوح حتـى ذلـك الوقـت بتعـرق أحصنـة الجبل العارية، انضـم إلى قطيـع جديـد يفـوح برائحـة البـارود، وحـدوات الأحصنة، والجلود. كانت الأحصنة الجبلية الحـرة مـن السـروج أو اللجـم تتباطأ تدريجياً إلى أن تركت في الخلف وكأنها مندهشـة مـن الرائحـة غـير المألوفة. كان حصان بالتاسار بستوس هو الوحيد الذي نفذ الأمـر وانضـم إلى أحصنـة الحـرب. أمسـك بالتاسـار بسـتوس بعنـق الحيـوان المتعـرق قـدر استطاعته وشعر أنه صفع وجهه بعرفه الـبري الخشـن الـذي فرقـع كمائـة سوط صغير. لم يتجاسر على إمساك ناصيتـه خشية أن يدفـع الحصـان إلى المقاومة. لكن عدوه الغاضب الذي ضاعفته منافسة الهجوم الحربي لعشـرين أو ثلاثين حصاناً آخر جعل جسد الضابط الشاب ينزلق إلى الوراء.

التقطوه وكأنه كيس، بالطريقة التي تسقط فيها الأوراق أو شيء تنتزعـه الريح. لم يعرف ما الذي كان يحدث. كل ما تأكد مـن فهمـه هـو أن عـالم الخيـال وراءه وأنـه سينسـاه، إذ كـان في تلـك اللحظـة مقذوفـاً في الواقـع العاصف الذي تم استدعاؤه والذي حمله في يقظته. رفعته ذراعان قويتان في حالة العدو، ثنته فوق السرج وضغطت وجهه داخل الملابس القطنية لراعي البقر. أطلق فم كلمات فاحشة بربريـة وكـان الصوت قريبـاً لكـن الكلمـات تداعت بعيداً بسـبب صخـب القتـال. رأس بالتاسـار، المتـدلي إلى الأسـفل، المختنق من الغبار، شاهد العالم رأساً على عقب.

حين استعاد وعيه كان الليل قد خيم وتلاشت الضجة. كان الشيء الأول الذي شاهده عينين زرقاوين، كمثل ضوءين، وهما لشخص ملتح يرتشف المته. توقف الرجل عن النظر إليه. كان مشعراً وثمة كتلة شعر كثيفة شبه مفرقة فوق جفنيه الدغليين، أما لحيته وشاربه فيغطيان وجهه حتى عظمي خديه ويتدليان إلى صدره. وكان جلده، رغم ذلك، شاحباً كالشمع. كانت له بشرة قديس لم يشاهد الضوء أبداً خارج الكنيسة، عيناه الزرقاوان، اللتان، مع ذلك، أضاءتاها، كانتا أكثر شحوباً من جلده. يداه، اللتان تحملان القرعة التي يشرب منها المتة، نفتا شحوبه الشمعي، ليس باللون، بل بالخشونة. وعلى الرغم من كل شيء، كانت هناك، في تلك الأصابع، إيحاء تقوى، بالبركة والتضحية.

حدقا ببعضهما فترة طويلة، وكأن الرجل ذا الشعر القاسي لم يرغب أن يستفيد من انهيار بالتاسار ليقول شيئاً لن يقدر بالتاسار أن يجيب عليه. كانت كل إيماءة أزعج بها الرجل وضعيته الثابتة، درامية، أو فصيحة. تحديقته، حركة ضئيلة، هزة كتفين تآمرت لتوحي بالقيادة والكرامة في الوقت نفسه. أخيراً، كان بالتاسار قادراً على أن يطلب المتة. وقبل أن يتفوه بكلمة، لخص لنفسه بسرعة ما فهمه آنذاك بأنه عاد إلى الواقع. وبعد أن رصد مضيفه لبضع لحظات – أين كانا؟ – أصغى إلى كلمات الرجل الأولى.

«اسمي ميغيل لانزا، نحن في طين إنكسيفي. الرجل الآخر هو بالتاسار كارديناس. لدينا على التلال أكثر من مائة من رجال العصابات وخمسمائة هندي.»

رفع لانزا نبتة أسل مشتعلة ليظهر هندياً أسمر يقف خلفه والذي ناول المتة لبالتاسار بستوس.

قال بالتاسار ببلاهة: «أنا والهندي نمتلك الاسم نفسه.»

قال لانزا: «سنكتشف حالاً إن كانت لديكما الجرأة نفسها.»

«إن خطري يكمن في أنني أعجب بكل شيء ليس أنا»، هذا ما فكر به بالتاسار وهذا ما شعر آنذاك بأنه يمتلك القوة ليقوله.

«مثل ماذا؟»

«القوة، الواقعية، والقسوة. يمكن أن تعرفها أيضاً.»

«أنت البوينس آيرسي الذي أعلن تحرير عشرين ألف شخص في ساحة أيوبايا مع الكاهن مونييكاس؟»

«هذا صحيح وأفترض أن أوامري نُفّذت.»

حدق به لانزا دون أن يغير تعابيره ثم انفجر الضحك كعرق من الفضة من بين أسنانه: فُتح فمه، انفجرت قهقهة، تدحرجت دموع الضحك على الاتساع القصير بين عينيه الزرقاوين ولحيته السوداء وكأنها تنحدر في قناة جافة. ثانية التقط القصبة المحترقة ليضيء وجه بالتاسار كاردنياس المظلم. لم يكن الهندي يضحك. «انظر إليه وحسب»، قال لانزا، مختنقاً من مرحه غير المألوف. «أنا أموت من الضحك، لكنه ليس كذلك. أعرف أن قراراتك ليست إلا مجرد كلمات وتسبب لي الضحك، لكن الهندي لا يعرف ذلك. أخذها على محمل الجد ولن يغفر لك من أجلها.»

خطا بالتاسار كاردنياس خطوة إلى الأمام وبإصبع قدمه ذات المهماز دفع بالتاسار على حصيره القشية.

قال الهندي مجيباً على نظرة بالتاسار المذهلة: «أنت مدين بحياتك لنا.»

وشرح لانزا: «لقد تبعثرت كتيبتك القادمة من بوينس آيرس وتركت بين الإسبان وبيننا. ولو أخذك الإسبان لكنت ميتاً الآن، ولذلك عليك أن تقدم الشكر لأننا أنقذناك.»

«هيا، قدم الشكر»، قال بالتاسار الآخر الذي كان على وشك أن ينخس ضابط بوينس آيرس مرة أخرى. لكن لانزا أوقفه مذكراً الاثنين: «نحن أخوة في سلاح الفرسان، فلننس إساءاتنا كي تكثر فضائلنا.»

تابع لانزا وقد أصبح فجأة جاداً: «اذكر لي أسبابك الآن بسرعة وسأذكر لك أسبابي وهكذا نستطيع أن ننتهي من الموضوع ونتفاهم.»

أغمض بالتاسار بستوس عينيه وسال جـدول مـن الـدم عـبر شـفتيه ولم يستطع أن يقول شيئاً آخر. ربما سيفهمون صمته والنوم الذي تبعـه كتكـرار مشرف لما رتب أن يقوله في البداية.

«يعجبني كل ما ليس أنا.»

في الأيام التي تلت تلك الليلة حاول بالتاسار أن يتعرف على الخصائص المكانية للمعسكرات التي توقف فيها، لكنهم كانوا يتحركون مـن مكـان إلى آخر. اكتشف أن كوخه كان نقالة وأن مجموعـة عصابـات ميغيـل لانـزا لا تمكث أبداً في أي مكان أكثر من أربعين ساعة. كانوا يتحركون عـبر الأرض المجهولة لكن لانزا والقائد الهندي كارديناس بديا بأنهما يعرفانها جيـداً: الأودية، السهول التي عبروها وهـم يستولون علـى المحـاصيل، الممرات، الصدوع العميقة، تجاعيد الجبال، وفجأة جسـور الحبـال الـتي قـادتهم إلى قاع الغابة وإلى قاع القاع، منبسطات الطين، طـين إنكسـيفي الـذي تحـدث عنه قائد العصابات.

كان المشهد يتبدل باستمرار وكان على عصابـات لانـزا أن تغـير طرقهـا أيضاً. ما الذي كان مستمراً في هذا؟ حين شاهد بالتاسار لانزا ثانية، فجراً، وهو يقف عند متاهة من القمم التي بدت من بعيد في الليلة السابقة كمروحة نصف مغلقة، تذكر كلمات لانزا. «سوف نشرح لك أسبابنا.»

وهذه لن تكون المرة الأخيرة التي سيسمع فيهـا بالتاسـار بسـتوس لانـزا يروي قصة حياته. كان سميه الهندي يقف دائماً خلف لانزا وكان يقاطعـه حين يشعر أنه يتحدث كثيراً. وبالنسـبة إلى بالتاسـار الآخـر، كـان كـلام الهندي جهداً مفرطاً وغير ضـروري. كـانت هنـاك أشـياء كثـيرة يجـب أن تنجز بحيث أن الكلام حولها لم يكن ضرورياً. وعندما استعاد قوته، شارك بالتاسـار الكريبيـولي تدريجيـاً في أعمـال القـوات الجبليـة. كـانوا يقطعـون الاتصالات ويخطفون الرسل ويجمعون المؤن والأسلحة، يهـاجمون ليـلاً وفي النهار يتبخرون. (في هذه الليلة يقفون أمام مروحة الجبـال، بعـد أن عـادوا مـن القتـال، ويتنـاولون لحـم الخـنزير المقـدد ويشـربون المتـة قبـل النـوم).

يهاجمون ثانية، يدفنون أنفسهم في التلال، يغـرون القـوات الملكيـة لتتقـدم نحو عرينهم في الغابة، يهاجمون حـرس المؤخـرة الإسـبان أحيانـاً وحـرس المقدمة في أحيان أخرى، ينهكون خاصرة الإسبان ويهاجمون أمتعتهـم مـرة بعد أخرى، يهاجمون تموينهم وبريدهم وذهبهـم ويتوقفـون لصهـر أجـراس الكنائس ويحولونها إلى مدافع ويصنعون البارود مـن النـترات والرصـاص في المناجم نفسها التي كانت تزود إسبانيا بالثروة التي بددتها والتي هـي الآن مستودع البارود للعصاة المستقلين: أولاً، يجب أن تربح الحرب، بعد ذلـك تأتي العدالة والقوانين، هذا ما كرره لانزا بين وقـت وآخـر لبسـتوس وسـط ذاك النشاط كله، ثم ذكّر بستوس:

«كلما أتيتم يا أهالي بوينـس آيـرس إلى الغابـة والجبـال لتطبقـوا الثـورة تخلطون بين الأمور. ومـن المحتمـل أن زعمـاءكم مـن أهـالي بوينـس آيـرس يعرفون أكثر من زعمائنا الهنود، لكن القوات المتوحشـة، سـواء كـانت مـن بوينس آيرس أو من الشاكو، تريد النساء والمـال ومتعـة العنـف الخالصـة. أنت، بالتاسار بستوس، ضحية أسلافك الذين جاؤوا إلى هنا ليعلنوا الحرية والمساواة والأخوة، بينما كـان جنودهـم يغتصبـون ويسـرقون ويحرقـون كـل شيء. تماماً مثل جنودنا. لكننا لا نتصرف بعجرفة. نريد الاستقلال لأنفسنا هنا ولأميركا بعامة، ونعرف الثمن الذي ينبغي علينا دفعه. ولا يبـدو أنكـم تريدون ذلك. ستحبون حرباً صغيرة ونظيفة، لكن لايوجد شيء كهـذا. ثـار الخلاسيون في بوتوسي ضد قوات بوينـس آيـرس وقتلـوا مـائتين مـن أهـالي بوينس آيرس وما يزيد على ذلك. ماذا تريدنا أن نفكر يا صديقـي الشـاب؟ إما أنكم أوغاد أو حمقى. لم أعد أفهمكم. الجنرال اللامـع بلغرانـو، البطـل الأكثر إخلاصاً للثورة، جاء إلى هنـا وأمـر بنسـف خزينـة بوتوسـي ليقطـع مصدر القوة الإسبانية. لحسن الحظ، كان هناك سميُّـك، الهنـدي بالتاسـار كارديناس، الذي قطع سلك الصمام المشتعل الذي كان يتحرك نحو براميـل البارود بسرعة تتجاوز سـرعة أي كلـب صيـد. أيـة فـائدة تقدمهـا خزائـن بوتوسي لأي طرف، حين تُنسف وتُحوَّل إلى خراء جـرَّاء حماسـة بلغرانـو

الثورية؟ كان بويريدون الخرافي، الذي هو الآن رئيس الأرجنتين، أكثر حكمة. هرب مع كل ما عثر عليه من ذهب بوتوسي، نقل مليون بيزوس من الذهب والفضة من الخزينة نفسها وحملها في مائتين من صرر البغال. وهكذا قتل الخلاسيون المتمردون من رجاله عدد البغال التي يمتلكها فقط ليرتبوا معه الحسابات. أفهمت ما عنيته؟ إما أنكم أغبياء جميعاً أو أذكياء فعلاً. من الأفضل أن نحكم بأنفسنا! تعيش جمهورية إنكسيفي!»

«تعيش! تعيش!»، رددت عصابته كلها، التي بدت أنها تصغي إلى زعيمها حين كان يتحدث بصوت منخفض وهو يثقف بالتاسار بستوس، المتطوع الأكثر حداثة، في هذه الحرب التي لا تتوقف، التي لا تسمح بمحطة، والتي كان من المستحيل أن يقال عنها إنها «بدأت من جديد» لأنها لم تتوقف أبداً. تعيش إنكسيفي وقائدها، جنرالنا ميغيل لانزا! يعيش الكريبولي بالتاسار بستوس! الذي هو تماماً مثلهم، جنباً إلى جنب، هاجم وانسحب وتظاهر بأنه يخسر لكي يباغت الإسبان، سرق ذهب بويريدون وبلغرانو، سرق رسائل وفكر كم ستستغرق من الوقت تلك التي كتبها لصديقيه اللذين يعبدهما، أنا، فاريلا ودوريغو، لتصل بوينس آيرس (هذا إن وصلت إلى بوينس آيرس). أحصينا الأيام التي عشناها دون صديقنا، الأخ الذي أرسلناه، نحن الرفيقين القاسيين لكن المقتنعين أنهما فعلا الصواب، ليكتسب التجربة، ليصبح رجلاً، ليقارن الكتب بالحياة، بينما كنا نجمع الساعات. كان بالتاسار رجلاً: لم يتردد أبداً في أن يخوض نهراً طامياً، أن يسقط جرس كنيسة من البرج إلى الرّدهة ليصهره ويصنع مدفعاً نحاسياً، أن يحرق وجهه في الشمس ويديه بالنترات. كان ذلك بالتاسار بستوس الذي سرق الدجاج والعتاد والذخيرة، الذي فعل كل شيء عدا قتل رجل أو أخذ امرأة سواء شاءت أم لم تشأ. أصبح مماثلاً لجميع الآخرين، أكل ما أكلوه، نام حيث ينامون. ولم يكن مختلفاً عن الآخرين إلا في كونهم لم يعيشوا أو يقتلوا أو يسرقوا أو يجازفوا بحياتهم من أجل امرأة بعيدة تدعى أوفيليا سلمنكا.

لقد تجنب شيئين حتى الآن: الزنا والجريمة.

وقال رجال العصابات إن ملاكاً حما ابن بوينس آيرس، الطفل بالتاسار، الذي اعتقد أنه لم يتوقف أبداً عن الحركة والفعل للحظة واحدة. لم يقتل أبداً كائناً بشرياً، حتى الإسباني، الأكثر مقتاً، لم يستمتع مع امرأة أبداً، مهما كانت لذيذة أو راغبة.

تدريجياً، بدأ يعوض خطيئة الإهمال من خلال ولائه للقوات. وحين نام في الكوخ الذي منح له بعد أن شاهدوا كيف كان ضعيفاً وكريبيولياً ومن أهالي بوينس آيرس – لم يعرف أحد منهم أنه ولد من السهول ولكن تحدث أيضاً مع بالتاسار الآخر، الذي لم يتفوه أمامه بكلمة أبداً لكنه أصغى على الأقل، وهكذا شعر أنه لا يسير في طريق الجنون، ويتحدث مع نفسه، كما سيقول، لنفسه ولسميِّه: «يعجبني كل ما ليس أنا، كما تعرف: القوة، الواقعية، والقسوة. إن خلاصي يا أخي الصامت، سيكون أن أصبح أفضل ما أستطيع. ولهذا أنا معك.»

وبخته عينا الهندي: «كانت مصادفة.»

أجاب بالتاسار الكريبيولي: «إنها رغبتي الآن. هنا أنا معك، وسأبقى معك لأنني أريد ذلك. وعلى أية حال، أنا أخدم قضية الاستقلال.»

كان هذا جوابه للغز، للحلم، لغثيان إلدورادو، المدينة المسحورة، حيث يستطيع المرء أن يرى ويسمع المرأة التي يحبها ويقدر على لمسها: مرة أخرى، تعذيب تانتالوس، ليس في غرفة نوم في بوينس آيرس، مسدلة الستائر وحقيقية، وإنما في استحضار شبحي تم بالوساطة داخل جبل مليء بالسحر المتوحش.

ينبغي أن نذكر أن هذا أيضاً كان جوابه على الأعمال التي فرضناها – نحن شقيقيه الكبيرين دوريغو وفاريلا – على شقيقنا الأصغر، بارتياح، دون القيام بأية مجازفة من المجازفات التي عرضناه لها. لكن أين كان الخط الفاصل بين أوامرنا و قبول الشاب بالتاسار؟ لن يأتي الجواب من رفيقيه البعيدين، دوريغو وأنا، بل من رئيسه المباشر، الزعيم ميغيل لانزا.

«أريد ببساطة أن أصبح أفضل ما أستطيع. ما الذي ينبغي أن أفعله؟ أهذه هي الطريقة للتوحد مع الطبيعة؟»

لم يقدم الهندي جواباً، ولا الانهيارات التي سببها المطر ولا الأنهار الطامية التي كان رجال العصابات يتجنبونها وهم يستدرجون الملكيين المحملين جداً نحو التيار كي يغرقوا. لم يكن رجال ميغيل لانزا يرتدون بزات، كانوا يسافرون خفافاً ويجرون الإسبان نحو البقع الأكثر سرية وخطراً في أميركا الجنوبية وكأنهم يقولون: انظروا، هذا يبرهن أن الأرض لنا. تموتون هنا ونحن نبقى أحياء.

ومن خلال تسويغات كهذه، كبحوا ذنوبهم: لسنا جنوداً رسميين ولا نظهر وجوهنا في النهار. نقاتل دون مجازفات. نحن محاربون ليليون ترعرعوا في الليل كالغابة نفسها.

هكذا عاش الفاتحون وكان هناك شيء منهم في ميغيل لانزا، ليس لأنه بدا كجندي موسمي ومتصوف تعمد بالدم وحسب، وإنما أيضاً بسبب قصة حياته، التي استطاع بالتاسار بستوس أن ينتزعها منه، تدريجياً، أثناء مجرى حرب العصابات اللامتناهية، بفترات استراحتها النادرة. كان معوزاً يتّم وهو طفل ورباه الفرانسيسكيون في معهدهم اللاهوتي في لاباز. أحضر شقيقه الأكبر غريغوريو كتباً محظورة إلى الأبرشية. «كان مثلك يا بالتاسار الكرييولي. آمن بما قرأه. آمن بالاستقلال. في 16 تموز، 1809، في لاباز، انضم إلى أولئك الذين أعلنوا الانعتاق من إسبانيا دون الاختباء خلف قناع فرناندو السابع. وكانت تلك المرة الأولى التي قال فيها لنفسه ما تؤمن به: يستطيع ممثلو الشعب أن يعلنوا حقوق الشعب بملكية إسبانية أو بدونها. كان القمع الذي قام به نائب الملك أباسكال وحشياً. وإذا لم يدعم الملكيون التمرد باسم فرديناند السابع، ما الذي سيفعلونه لأولئك الذين سيتبرزون على الملك؟ حسناً، ما الذي فعلوه بأخي غريغوريو: لقد شنقوه في الحي الرئيسي للاباز. دائماً أرى بعين عقلي رأس أخي الميت – وذلك اللسان الذي استطاع أن يتفوه بشكل جميل – يتدلى على صدره. ما الذي يستطيع

أن يقوله الآن ذلك الصوت الذي علمنا، نحن أخوته الصغار، كل ما نعرفه؟ انظر كيف تنتهي حياة وحفنة من الأفكار تنتمي إليك فقط، وتصبح ملكاً للآخرين. وقل إن كان ما حدث بعد ذلك هو انتقامي، أو السبب الرئيسي لتمردي.»

«أنت بالتأكيد تتحدث كثيراً»، قال الهندي بالتاسار ليقاطع تلك المحادثات. لكن ميغيل لانزا تذكر برقة، شقيقه الثاني الأكبر مانويل فكتوريو الذي تبع حرب الاستقلال عند النقطة التي أنهى فيها الموت حياة غريغوريو. وصل صراعه إلى أوجه على ضفتي نهر توتوراني في معركة بالسلاح الأبيض دون أسلحة نارية ضد الكابتن الإسباني غابرييل أنطونيو كاسترو.

«يقولون إنه لم يسمع في ذلك الأصيل أي صوت آخر على طول نهر توتوراني سوى لهاث المقاتلين الجائعين، المنهكين، المثخنين بالجراح، الوحيدين تماماً في صراعهما. في النهاية، سقط الاثنان ميتين في مياه النهر الشفقية. ورغم موتهما المشترك، كان مصير كل منهما مختلفاً. قطع الإسبان رأس مانويل فكتوريو، شكلوه على رأس رمح وأحضروه إلى لاباز حيث عرض ليكون عبرة للعصاة والمتمردين. نظرت إليه طويلاً إلى أن تعفّن وأنزلوه، إلى أن أصبحت كبيراً بما يكفي للانضمام إلى صراع أخوتي. والآن، يا بالتاسار الكريبولي، قل لي إن كانت حربي هذه حرب انتقام أم حرب قناعة أم كارثة المصير.»

نعم، قال بالتاسار لسميّه، الزعيم الهندي، نعم، قال لنفسه أو للانزا. سمِّها انتقاماً، قناعة، أو قدراً، لكنه مصيرك. عندئذ فهم بالتاسار، وكتب ذلك بسرعة، بحيث أنا ودوريغو سنتلقى كلماته يوماً ما، ذلك أنه كما نسج ميغيل لانزا مصيراً لنفسه، من خيوط الحرية والقدر المتشابكة، فإن بالتاسار بستوس سيخلق مصيره الخاص.كيف نقر، بعد أسابيع وأشهر من الانضمام إلى العصابات، أن ميغيل لانزا، اليتيم، امتلك أخاً جديداً، هذه المرة أصغر منه، وهو بالتاسار الكريبولي، الوريث، دون أن يريد ذلك، لحياتي غريغوريو ومانويل فكتوريو لانزا؟ لأن لانزا بعد أن كشف له

الأسباب الشخصية لتمرده بين له الأسباب الموضوعية لاستراتيجيته العسكرية وهم يقفون فوق خرائط مفتوحة على الغبار ومثبتة بقناديل مسروقة من مزرعة أو دير ما - لأن كل شيء هنا كان مسروقاً رغم أن ميغيل لانزا شرح: «كل ما أفعله هو أنني أنشر رأس مال جامداً. أنا وكيل علم الاقتصاد الحر.»

روت الخرائط قصة أخرى، وحين تفحصها بستوس الذي لم تكد التجربة تحرره، مصغياً إلى لانزا ومنتبهاً إلى أسبابه، بدأ يشعر أنه سجين. إن أعمدة الثورة في أميركا الجنوبية، وفقاً للانزا، هي في ليما التي يحكمها نائب ملك وفي بوينس آيرس الثورية.

«مضى على اندفاعنا نحوها ستة أعوام الآن: لا تستطيع ليما أن تضرب بوينس آيرس وبوينس آيرس لا تقدر أن تضرب ليما. إن القوتين تلغيان بعضهما. نحن تماماً بينهما: مقاتلو العصابات في البيرو العليا. إن بوينس آيرس بعيدة والظلم الاستعماري تحت اليد. علينا أن نتابع حرب العصابات. القوات الملكية هنا، ونحن أيضاً. أنت وأمثالك يا بستوس يجب أن تأتوا للمساعدة وتلقوا الخطب. ولكن لا تفقدوا مشهد الواقع. ثمة ثلاثة جيوش هنا. قومك في بوينس آيرس لا يعرفون كيف يقاتلون في الجبال. ينبغي على الملكيين أن يقاتلوا. نحن الجبليون، نحن الوحيدون الذين عليهم أن يقاتلوا وأيضاً يعرفون كيف يقاتلون هنا.»

لو شعر بالتاسار بستوس بالحاجة إلى التحدث عن القوانين، الظلم، والمثل، لكان عليه أن يلاحظ أيضاً كيف عملت حرية العصابات - كان سكان المكان أنفسهم هم الذين شكلوا الجند وانتخبوا زعيمهم ونظموا أنفسهم ليخدموا القضية. كان من المحتمل أن الحرية التي أرادها لمدينته العظيمة ليست كالحرية التي أرادها الهنود والخلاسيون في البيرو العليا. وتابع لانزا قائلاً: إذا أصبحت الحرية هناك متوحدة مع القانون الذي أعلنها، فإن الحرية لا تنفصل عن مساواة لم ُتعرف أبداً من قبل في هذه الأراضي.

«ربما لن يعرفوها أبداً إلى أن يستخدموا قوتهم لتطبيق القانون»، أجاب أخونا الأصغر بالتاسار متبعاً نصيحتنا: فضّل ما يناقضك، أن تختبر أفكارك وتقويّها.

قال لانزا متحدثاً مثل بستوس في مقهى دي مالكوس: «يريدون أن يغيروا حياتهم وليس قوانينهم.»

«ربما لن يحصلوا على أي شيء وسيتابعون الحياة كما هي دائماً في البؤس»، قال بالتاسار، لأن الحوادث كانت تتجمع حوله، تسرق كلماته وتضيفها إلى القوة الخفيّة، المقنعة والغامضة لميغيل لانزا. كانوا يشقون طريقهم على طريق من الرماح المتوجة برؤوس مقطوعة، رؤوس كرأس ميغيل لانزا، كلها متوازنة بلدونة مثيرة للأعصاب على الرماح الخيزرانية المجوفة ذات الرؤوس الفولاذية والتي حملها رجال العصابات على الممرات المنحدرة ليأخذوها هذه المرة إلى القمم العارية التي تعصف عليها الريح حيث لا توجد نباتات تكفي حتى لشنق متمرد، قبل أن ينحدروا على المنحدرات الصخرية ثانية نحو الغابات الاستوائية في أعماق الممرات الضيقة، دائماً بنية استدراج الإسبان نحو كمين، ودفعهم إلى تصديق أن رجال العصابات قد هزموا. وهكذا من خلال استنزاف القوات الملكية تدريجياً، كانوا يدمرونها ويجبرونها على ارتكاب أعمال القمع وإبادة القرى التي جاء منها رجال العصابات الذين دعوا باللصوص والعصابات والقتلة والكلاب المسعورة. اختفت بلدات بأكملها ولم يبق منها إلا الطرق التي تؤدي إليها والتي، بدورها، التهمتها الطبيعة، وهي تتحرك دائماً، دون توقف كأنهار متدفقة لا يقدر أحد أن يقيدها، في أراض طافت فوقها المياه، وغابات مميتة ليس هناك من يشذبها، على جبال تغمرها الثلوج، وفي أدغال تحتضر، وبلدات مختفية...

سقطوا جميعاً في أثناء ذلك العام الذي أمضاه بالتاسار بستوس مع عصابة ميغيل لانزا. وتغير هو أيضاً كمثل المشهد الذي حوله، كالبلدات والرجال الذين قابلهم هناك. سقط الأب إلديفونسو دي لاس مونييكاس في لاريكاخا، حيث أغلق الطريق إلى ليما، وسقط فيسينتي كامارغو في الطريق

إلى بوتوسي حيث فتح الطريق إلى بوينس آيرس. وكانت الكلمات الأخيرة لباديا وزوجته المقاتلة قبل أن يسقطا: «إن هذه الحرب أبدية.» سقط وارنز الكريم وبعد ذلك أغلق الملاذ الذي قدمه في أوقات الهزيمة. كان لانزا هو الوحيد الذي لم يعترف بالهزيمة.

ظهر في أحد الأيام في المعسكر وكانت عيناه الزرقاوان سوداوين كلحيته. قال ببساطة: «لقد قتلوا بالتاسار كارديناس، لقد قتلوا شقيقنا.»

عرض رأس الهندي حول الساحة في كوشابامبا ثم رمي إلى الخنازير. لكن لانزا لم يتوقف عن قطع الاتصالات وأسر الرسل وتجميع الطعام والبارود والرصاص والأحصنة والعلف والدواء والكحول وحتى النساء – رغم أنهن أصبحن سلعة نادرة جداً. من ناحية أخرى، إن الميول الطبيعية للأحصنة دفعتها إلى الانضمام إلى قطيع رجال العصابات. صارع الفارون، والمدقعون للوصول إلى جمهورية إنكسيفي البالغة الصغر من أمكنة لا يعرفها أحد. وكانت أجسادهم تصدر بخار الغابة. لم يكن الارتفاع المكان الأفضل لهم. ما الذي كانوا يفعلونه هناك؟

وتخيل بالتاسار، بالتاسار الوحيد الذي بقي في العصابة: «إنهم يحاولون أن يقولوا لنا شيئاً ما.»

«لا تقل ذلك»، قال لانزا، ذو العينين السوداوين الآن، وكأن الهندي بالتاسار كارديناس منحه عينيه حين مات.

صاح بالتاسار بمنطق ساخط: «ولكن لا تعرف حتى ما سأقوله.»

«أنت واحد منا. وننتهي إلى قراءة أفكار بعضنا.»

«إنهم يدعوننا إلى تهيئة السروج والرحيل معهم، بعيداً، أن نترك هذه الأرض التي عبرناها إنشاً إنشاً والتي نعرف تماماً أنها معادية وجافة ولا تساوي خرية.»

«قال ميغيل لانزا: «هذا هو الأمر. لا تفكر حتى به. لن تنتهي هذه الحرب أبداً. إنه قدرنا أن نقاتل حتى الموت وأن لا نغادر من هنا أبداً وأن لا ندع أحداً يخرج إلى أن يدخلوا.»

ثم كرر بحيث لا يكون هناك شك في معناه: «من الصعب جداً الوصول إلى هنا وهذا يعني أن الخروج مستحيل.»

قال ذلك وكأنه، رغم صداقتهما العظيمة، كان يخشى أن فاراً - الذي سيكون أي شخص يهجر ميغيل لانزا حياً - سيقول هناك في المدن، سيقول لسكان بوينس آيرس، أو للإسبان، من هو ميغيل لانزا، كيف وأين يعيش، وأية طرق يمكن أن توصل إليه. كانت نية ميغيل لانزا السرية معروفة لهم جميعاً، كانت قانون إنكسيفي غير المدون. سنتجول طول الوقت، دون أن نتوقف أبداً، لكننا لن نغادر أبداً محيط الجبال، الغابة، والنهر. وجميع جنوده يجب أن يفكروا بالشيء نفسه، دون استثناء، وبينهم الكريبولي الصغير، بستوس.

كان وصول الفارين هو الذي جعل هذه القاعدة علنية. وعندئذ فقط قال ميغيل لانزا لبالتاسار بصراحة ما كان بالتاسار يعرفه وقبله يوماً بعد آخر كجزء من انضمامه إلى رجال العصابات والطبيعة الوحشية للبيرو العليا. سيبقون معاً حتى النهاية. لكن القرار كان قرار بالتاسار. كان عهداً قطعه على نفسه. ارتكب ميغيل لانزا خطأً كبيراً حين قال له بصوت مرتفع: «من يصبح عضواً في عصابتي لا يغادرها أبداً. لا تفكر بالأمر يا بالتاسار، لا أنت ولا أي شخص آخر سيغادر من هنا. نحن جميعاً مواطنو إنكسيفي حتى النصر النهائي أو الموت.»

في تلك الليلة أُحضر رأس بالتاسار كارديناس إلى المعسكر بعد أن سرقه شخص يدعم العصابات. أحضرته الجماعة الموكل إليها استدراج الإسبان إلى حفر رمل باليغراند ثم إلى الغابة، حيث كل من يدخل يضيع.

كان أحدهم قد قلع عيني الهندي.

حدق بالتاسار بستوس إلى ميغيل لانزا، الذي كانت عيناه السوداوان زرقاوين مرة، وفهم كل شيء.

في تلك الليلة، وكما فعل في يومه الأول، نام مرتجفاً من الحمى. حاول أن يكتب لدوريغو ولي في بوينس آيرس ليسألنا إن كان قد سبق وفكرنا

بمسألة المصير تلك، ذلك أن شقيقنا الأصغر، رفيقنا الشاب، أدرك لتوه أنه، دون أن يكون واعياً بذلك، مر عام اتبع فيه مصيراً اعتقد أنه مصيره، لكنه لم يكن له، كان في الحقيقة المصير الذي حاول ميغيل لانزا أن يفرضه عليه. كان الثمن الجائزة التي سنفهمها أفضل من أي شخص آخر: أن نكون أخوة. سيوسع أخوّته على حساب حريته الشخصية ولهذا كتب لنا، نحن شقيقيه الحقيقيين: أخوّة دنيا مصنوعة من ثلاثة رجال. كتب لنا بالتاسار بستوس ليقول إنه لم يكن يمتلك سبباً ليعيش المصير الأبتر لمجموعة أخرى من الأشقاء: الأخوة لانزا: ميغيل، غريغوريو، ومانويل فكتوريو.

سيعترف أنه أعجب بكل ما ليس هو. وكان يأمل أن قدره يكمن في أن يصبح أفضل ما يستطيعه بينما كانت الظروف، التي تنفتح وتتضاعف، تضغط عليه. أراد أن يكون أفضل ما يستطيعه في الصدام بين ما اقترحه لنفسه وما فرضه الآخرون عليه.

تذكر المناقشات المحمومة البعيدة في مقهى دي مالكوس حين كانت الثورة على وشك أن تنشب. حين نظر بالتاسار بستوس إلى نفسه بوعي متأخر، عرف أنه الآن أقل تأكداً من مثله أكثر مما كان متلهفاً لفرضها على الآخرين أو متلهفاً ليعاقب أولئك الذين لم يؤمنوا بها. ولم تعن مُثُل بالتاسار أي شيء لميغيل لانزا، الذي أخذ، على محمل الجد، عزم بالتاسار على فرضها على الآخرين. لأنه، إذا كان بالتاسار على صواب، ألم يكن ميغيل لانزا على صواب أيضاً حين خلط مصير شخص واحد بحرب مستمرة، متكررة ومملة؟ وفي نهاية ذلك العذاب النفسي لم يكن بوسع لانزا وأتباعه سوى أن يلمحوا جنة تثير رهاب الأماكن المغلقة: أن يعيشوا داخل حدود ثابتة، ألا يسلموا أي إنش من الأراضي التي فتحوها بتلك الحماسة الزائدة والتضحية الكبيرة، أن يحولوا النكبة المعزولة، المتكررة، المحاصرة لأرض لم تكن تستحق الخراء، إلى قيمة وجود مطلقة؟

في تلك اللحظة شاهد بالتاسار بستوس قدر ميغيل لانزا كقدر واحد من أولئك الأبطال الإيبيريين القدماء الذين اختاروا أن يرموا أنفسهم على الرماح الرومانية بدلاً من أن يستسلموا أو يساوموا على نقاء نضالهم.

هكذا كانت الحالة، من كان المثالي الحقيقي؟ ميغيل لانزا، الذي أقفل عليه داخل دائرة صراعه حتى الموت؟ أم بالتاسار بستوس، الذي اقترح مثالاً أعلى، لكن الذي فهم الآن أيضاً الصراع الذي يقتضيه ذلك المثال؟ كان الشيء السيء بالنسبة إليه في تلك الليلة هو أنه لم يستطع أن يفهم - كما كتب إلى دوريغو وإلي - إن كان الصراع قد ساوم على المثل أو أجلها بشكل غير محدد، أو أن المثال، في النهاية، لم يكن يستحق هذا الصراع، ويستحق أن تهزمه الحقيقة البشرية، الجوع إلى العمل والحركة الذي برر حياة ميغيل لانزا.

«الحياة، الموت. أية مسافة قصيرة، وأية فسحة قصيرة من الزمن بينهما. أخبراني الآن، يا صديقي المخلصين، مانويل فاريلا وخابيير دوريغو: هل أخطأنا، أكان أبي على صواب، أكان بوسعنا، عبر التسوية، الصبر والتماسك، أن ننقذ أنفسنا من سفك تلك الدماء؟ ربما لو لم نشهر السلاح لما كنا عانينا إلا من الهولوكوست النموذجي للخنوعين. لكن لم يكن هناك أحد أكثر عنفاً من أولئك الذين يتهموننا اليوم بارتكاب العنف ضدهم: جلادونا الذين كرمهم الزمن - يهمس الصوت - كريبوليون مثلي، تابعون للمجنون اليائس والمثير للإعجاب ميغيل لانزا، يملون علي مصيري الليلة، مصيراً مماثلاً لمصيره بحيث لن يترك وحيداً الآن وذلك بعد أن قُتل أشقاؤه. وحين فهمت ذلك عرفت ما يكفي، يا دوريغو وفاريلا، لأفهم أن مصيري سيتوقف عن كونه مصيراً لي بين لانزا وعصاباته المقاتلة، لأن خياراتي ستتقلص إلى خيار واحد وحسب: ليس الصراع من أجل الاستقلال لكن الموت باسم مثال أعلى أو حياة منعزلة بحيث لا يترك لانزا بدون أخوة، وحيداً مع هذه الطبيعة العدوة.

«صوت آخر يتحدث معي، لكن بشكل سري، إنه الصوت الميت لـرأس سمّي بالتاسار كارديناس الذي بلا عينين».

حين سقط الإسبان في الفخ الذي نصبه لهم ميغيل لانزا في باليغراند كنت بين الأوائل الذين انقضوا عليهم. ودعت ملاك السلام الذي كان يحميني حتى ذلك الوقت واستسلمت لرفيقه المظلم، ملاك الموت. اكتشفت أنهما توأمان. انضممت إلى القتال بالسلاح الأبيض الذي بعثرنا على الأرض الرملية وعزلنا عن بعضنا بعضاً: ملكيين ورجال عصابات، ولكن في أثناء تبادل جراح السيف الضالع وطعنات الخناجر، أدركت أنني إن كنت سأقتل عدوي، فإنه لا يقدر أن يكون نداً لي أو أخاً في الإنسانية، بل شخص غير إنساني، عدو حقيقي، لا لأنه كان يقاتل في صفوف الإسبان، وإنما لأنه كان فعلاً مختلفاً، آخر، وهندياً.»

«كانت نظارتي ملطخة بالوحل في ربيع البيرو العليا المهلك، ومسحت النظارة بكم معطفي لأتبين الوجه النحاسي، ملامح الشخص الذي كان ضعيفاً رغم قوة بنيته. ضعيف حين يواجهه تعليمي وثقافتي ونظرياتي وتفكيري الدقيق وطرقي... ضعيف لأن زمنه لم يكن زمني بل زمن ذلك السحر، المدينة الطيفية التي أطلعني عليها سيمون رودريغز. كان آخر لأنه حلم بأساطير أخرى لم تكن أساطيري، وضعيفاً لأنه لم يتحدث لغتي، وكان مختلفاً لأنه لم يفهمني... لأنه شاهد فيَّ عدوه، السيد والمشرف والرجل الأبيض الجشع الذي لا يمكن علاجه.

«عانقته بصدق، وكأنني في قتله كنت أيضاً أحبه وكان فجأة اكتمال الفعلين اللذين رفضت أن أقوم بهما في قتال حرب العصابات: القتل والزنا. نظرت إلى العينين الزجاجيتين الصفراوين للهندي الذي يقاتل إلى جانب الإسبان، ولم أدع تحيزي يشوشني. لم أقتله كونه ملكياً، بل لأنه كان هندياً ضعيفاً فقيراً ومختلفاً... جردته إلى الأبد من مصيره دون أن أعرف إن كنت أستطيع فعلاً أن أجعله إلى الأبد جزءاً مني...

«عانقته وغرزت مديتي قدر ما أستطيع في بطنه الأسود. كانت أحشاؤه حارة كأحشائي رغم أنها غذيت من مطبخ مختلف. في هذه الأنحاء يستغرق الماء وقتاً طويلاً ليصل إلى درجة الغليان – فكرت بعبث وأنا أقتله، وأنا أضم عنقه وأدفن مديتي في معدته – ويستغرق غلي البطاطا ساعات...

«قتلت للمرة الأولى، انتهى الأمر في ومضة وشعرت أنه لا يزال حياً.

«قتلت الهندي في بقعة معزولة ولم يشاهدني أحد أرتكب الجريمة. فكرت ببالتاسار كارديناس وبالطريقة التي جعل فيها الإسبان موته قابلاً للتذكر. قلعوا عينيه وعلقوا رأسه في الساحة.

أردت أن أجعل موت ذلك الجندي الهندي الغفل قابلاً للتذكر أيضاً.كان ميتي الأول.

نزعت ثيابي بسرعة. كنت عارياً تماماً في الوحل والمطر الذي انهمر ثانية وغسل دماء وأوساخ المعركة.

ثم عريت الهندي القتيل ببطء وألبسته ثيابي بحرص دون أن أقلق من أن قتيلي كان صغيراً وثيابي كانت كبيرة عليه بشكل غريب.

وحين رأيته هناك، ممدداً في الوحل، الذي غسله ونظفه مثلي، شعرت بأنني قمت بواجبي مع قتيلي الأول وأنني أستطيع أن أقتل من الآن فصاعداً بضمير صاح، دون أن أفكر بالأمر مرتين، كان ضحيتي الكفارة، ميتي القابل للتذكر.

ارتديت ملابس الهندي، الكبيرة والمصنوعة من مادة سميكة لتحميه من برد ليالي الأراضي المرتفعة.

لكنني لم أقدر أن أطبع وجهه في ذهني. لاحظت أن وجهه مماثل لجميع الوجوه الهندية الأخرى المتماثلة التي لا أستطيع التمييز بينها.

«في تلك الحالة، أي وجه أمنح لضحيتي لأجعله قابلاً للتذكر؟ ونادراً ما فكرت بهذا حين توقفت عن رؤية وجه الهندي الميت ورأيت وجهي

كوجه محارب عظيم. جعلني أضحك.حاولت أن أنقل وجه انتصاري في المعركة إلى الجندي الهندي الذي يرتدي ثيابي ويرقد عند قدمي. وأستطيع، يا صديقي، أن أفعل ذلك. انتقل قناع العظمة دون صعوبة من وجهي إلى وجهه وغطاه بفتحة فم من الرعب والعنف. لم يكن يتوجب عليّ أن أرى نفسي في مرآة لأعرف أن الهندي وأنا نمتلك الوجه نفسه في النهاية.

كان وجه العنف.

هربت من المكان حالما شعرت أن كلا الوجهين، وجهي ووجه ضحيتي، كانا يتغيران مرة أخرى. لم يعد هذا عظمة. ولم يكن عنفاً. حالما انتزعت أقنعة الحرب كان الوجه الذي وحدنا هو وجه الموت.

لقد دفعت ديني لميغيل لانزا.

في تلك الليلة وضع بالتاسار بستوس جانباً الأشياء التي اعتبرها ملكاً له – كيس سجلات من الجلد، نظارته – وكتب الصفحات التي اقتبستها. ثم وضع الرسائل التي كان مقدراً عليها أن ترسل إلى بوينس آيرس بين حزامه وجلده، وفي تلك الليلة، وبينما كانت القوات تحتفل بنصر باليغراند بالشراب والغناء غادر أيوبايا والنيران المحتضرة لمعسكر ميغيل لانزا. غادر من الطريق نفسه الذي هرب منه، تمدد فوق أضلاع أحد الأحصنة الهاربة، وانطلق نحو حياة عزيزة. وأطلق عضو هذا القطيع البري الخرافي آملاً أن يعثر الحصان على الطريق إلى منزله، السهول المعشوشبة، إلى والده، وسابينا ورعاة البقر...

(2)

مدد خوسيه أنطونيو بستوس في قاعة الاستقبال،في المكان نفسه الذي جهزوا فيه فراش الموت لزوجته الباسكية ماريا تيريزا إتشيغاراي منذ عشرة

أعوام. ولكن بينما مـاتت الزوجـة كما عاشـت – كثيرة النسـيان – أعلـن زوجها لولدهما بالتاسار: «إذا عثرت علي ميتاً وفي يدي شمعـة هـذا يعـني أنني قبلت طريقتك في التفكير. لكن إذا شاهدتني بيديـن متصـالبتين علـى صدري ومتشابكتين بكتافية، هذا يعني أنني تمسكت بأفكـاري ومـت وأنـا أقاتل أفكارك.حاول أن تقنعني.»

عـاد بالتاسـار إلى السهول متـأخرا ومبكـراً جـداً، متـأخراً جـداً ليقنـع خوسيه أنطونيو بستوس، الذي مـات منـذ يومـين، ومبكـراً جـداً ليتجنـب غياب اليقين الذي سيرافقه منذ ذلك اليوم فصاعداً. كان والده ممدداً ويـداه مطويتان، أصابعه تلتفان على كتافيـة وتمسـكان شمعـة، كقضيـب أبيـض، بين قبضتيه، المضغوطتين إلى الأبد في تخشب الموت.

كان والده هشاً وخرباً بحيث بـدا لبالتاسـار بأنـه علـى وشـك أن يطـير بعيداً. وبينما بدت الشمعة كصارية كـانت الكتافيـة مرسـاة أقـوى مـن أيـة ريح. وبالفعل بدا والده كالشمع. وتذكر بستوس، الكريبيولي، ميغيـل لانـزا وبشرته التي تشبه بشرة القديس. والآن اكتسب والـده هـذه البشـرة أيضـاً، ولكن كان ثمن ذلك الموت.

سأل سابينا: «ما الذي قاله، بمـاذا كـان يفكـر في النهايـة، هـل مـات بسلام، هل تذكرني، هل ترك لي أية رسالة أخيرة؟»

«أنت تعتقد أنك تسأل عنه، لكنك لا تفكر إلا بنفسك»، قالت الأخـت مقطبة بالطريقة التي جعلتها دميمة، فاسحة المجال لبالتاسار ليراها قابلـة للحب رغم بشاعتها.

«ستحبيين أن تعرفي لو كنت مكاني.»

قالت سابينا بنبرة متقطعة ومكشرة بشكل كريه: «الابن الضـال! ! قـال إنه من المسـتحيل السباحة ضـد التيـار. اعتقـد أن كـل شـيء سـراب، أن الجميع خدعـوا، وكـان علـى صـواب. مـات هادئـاً لكـن دون يقـين، كمـا تستطيع أن تـرى الشـمعة والكتافيـة. لقـد تـرك لـك الرسـالة الـتي نقلتهـا لتوي...»

بدت مترددة للحظة، ثم أضافت: «أما بالنسبة إلي فلم يقل أي شيء ولم يترك أية رسالة.»

«أنت تكذبين ثانية، لقد أحبك وكان لطيفاً جداً معك. كنت قريبة منه. تكلمت معه بخشونة وسمح لك بذلك. أنت تقولين هذا لتجعليني أشعر بالأسف من أجلك وبالذنب من نفسي. ألم يحضر أحد طفلاً أشقر ليعيش معك هنا؟

هزت سابينا رأسها قائلة: «ليس هناك طفل أو أب. ولقد أتيت ولم يعد بوسعك أن تطلب مني البقاء هنا.»

«افعلي كما يحلو لك يا أختي.»

تحولت كلمة الابن إلى مرارة على شفتيه. كان قد غادر لتوه كثيراً من الأخوة الموتى والأحياء أو على حافة الهلاك. كان هناك آخران اشتاق إليهما، وأعني دوريغو وأنا، فاريلا، اللذين لم يعانقهما منذ خمس سنوات. ولم تستطع سابينا أن تنظر إليه إلا بدهشة وكأن كلماته كانت كلمات رجل لم يكن واقفاً أمامها أو لم يعد يقف. وتحدثت إلى ذكرياتها عن بالتاسار:

«لقد تغيرت.لم تعد كما كنت.»

«كيف هذا؟»

«أنت مثلهم»، قالت له وهي تنظر إلى الخارج نحو رعاة البقر الذين يجتمعون نادبين حول المنزل والذين كانوا أيضاً يحدقون، بدهشة ربما أكثر سرية من دهشة سابينا، إلى الابن الضال الذي عاد والذي يبدو مثلهم، هم عمال دون خوسيه أنطونيو، الذين كانوا مرة بدواً رحلاً والذين هم الآن متأصلون عميقاً في المكان بسبب قوانين ثورة بوينس آيرس. ينبغي ألا تكون الأمور بهذه الطريقة، قالت الأعين التي تبعته حول الحوانيت والاسطبلات، يجب ألا يبدو ابن السيد مثل عمال السيد وسائقي بغاله، وخبرائه في قذف البولا، وخيالته، ومروضي خيوله، ورعاة بقره، وحداديه ومشغلي كيره. ينبغي أن يكون دائماً السيد الصغير، يجب أن يكون مختلفاً

عنهم دائماً. كم هناك من أبناء دون خوسيه غير الشرعيين بين رعاة البقـر؟ واحد أم ألف: الآن يبدو بالتاسار مثلهم جميعاً ولم يعد يشبه نفسه.

منذ أن أنهضه سيمون رودريغز من سرير ألكا كونا وأراه انعكاس صورته في لوح زجاجي في أيوبايا لم يرد بالتاسار أن ينظر إلى نفسه في المرايا. وعادة لم يكن رجال العصابات يحملونها وكان يأمل أن تنحـت الطبيعـة ملامحـه مستخدمة ضربات الحياة. وفي النهاية لم ينظر الجبل إلى نفسه في المرآة ولا تلك الأنهار الطامية في الغابة. لم يفكر الكندور مطلقاً بنفســه فلمـاذا ينبغـي أن يفكر بالتاسار؟

الآن، بعد أن انفصل عن رجــال العصابـات، وعـاد إلى المنزل وانشـغل بوفاة في الأسرة، وتحت تحديقة خدمه العجـائز، شـعر بـالإغراء لينظـر إلى نفسه في المرآة. وثانية قاوم ذلك الإغراء. وكانت النظرات الـتي خصـه بهـا رعاة البقر كافية. لقد تحول إلى واحد منهم. لمس شعره الطويل ولحيته غير الحليقة، بشرته التي حولتها الشمس إلى جلد وخديــه الغـائرين. ولم يخـن بالتاسار السابق إلا نظارته التي يحفها الفولاذ. كيف يمكن أن تتغير عيناه؟ كيف يمكن أن تزحف خصوماته السابقة حـول غيـاب المسـاواة مـن خـلال تلكما العينين. بدا مثلهم وأراد أن يبرهن ذلك بأن يطوف في مزرعة الماشــية كما فعل في البرية، مظهـراً معرفتـه المكتسـبة حديثـاً بالنـترات والحديـد، بمنتجات تربية الماشية – لحم البقر المقدد، الشمع، الهلب والعظام.

لكنه كان مختلفاً عن رعاة البقر. ذلك أن أحداً منهم لم يشعر كمـا شـعر بالتاسار حين كان يعود إلى مسقط رأسه، أنه لا يزال واقعاً في شرك أراضــي الهنود، الجيش الملكي، الجمهوريات الضئيلة المنفصلة، والهيمنة التنويرية لبوينس آيــرس. لم يشـترك أحـد مـن رعـاة البقـر في ذلـك الألم السياسـي والأخلاقي، ذلك أن هذه التقسيمات غير موجودة بالنسبة إليهم. كـان كـل ما يعرفونه هو التقسيم الفوري بين مـاهو لي ومـا هـو لـك: إذا منحتـني مـا يكفي مما هو لك سأرضى بما هو لي. وفي أثنـاء حملتـه المشـؤومة في البـيرو العليا ألم يقل كاستيي إن الشعب يجب أن يصدر قراراته الخاصة ويمــارس

السيطرة على الذات ويطور مقدراته الاقتصادية والسياسية والثقافية ويفكر بما يشاء؟

نظر بالتاسار بستوس للمرة الأخيرة إلى يدي والده المتصالبتين، المتشابكتين في كتافية، الملطختين من الشمعة، اللتين لا تشعران بالألم الخادش، ثم نظر إلى أوجه رعاة البقر المذهلين والذين لم يتوقعوا عودة سيد يضاهيهم. وعندئذ تذكر كم كان بعيداً وبلا نهاية عالم الهنود، وكم هي بعيدة بلا نهاية الفنتازيا التي حارب عقله ضدها، وكم كان قريباً سميه، القائد الهندي. لم يفكر أحد منهم كما يرغب. فكروا جميعاً كما يؤمنون.

دمرته الفكرة، وهن عزمه وأخيراً فهم لماذا ضحك ميغيل لانزا، المرة الوحيدة التي ضحك فيها ذلك القديس الكئيب، المحارب الذي لا ينام، حين كرر كلمات المبعوث القادم من الأرجنتين في البيرو العليا: «في يوم واحد سننجز عمل الأبدية».

كانت كلمات مضحكة. هل كان العبء الذي شعر به بالتاسار بستوس على كتفيه حين قال ذلك في أذن والده مثيراً للضحك أيضاً؟ «أنا حر بأن أنجز، طول مسار حياتي، عمل يوم واحد. إن المسؤولية الكاملة للثورة من أجل الاستقلال تقع على عاتقي وعلى عاتق الجميع.»

ذابت الشمعة أخيراً في يدي والده الميت الفاقدتين للإحساس. وعلى أية حال، بقيت الكتافية ملتفة كأفعى مقدسة. ما الذي سيغيرها، من الذي سيغيرها، كم يستغرق من الوقت تغيير الأشياء؟ ولكن هل يستحق الأمر التغيير؟ جاء كل هذا من مكان بعيد. لم يدرك من قبل، أن أصولهم من مكان بعيد، أن نظريات نشوء الكون الأميركية سبقت كل التأملات الضعيفة للتفكير العلماني، *حطموا المجاعة*، كانت بحد ذاتها عاراً دعا إلى دماره الخاص: كانت متراساً ضعيفاً وغير عقلاني ضد المد القديم للدورات التي حكمتها قوى كانت هنا قبلنا والتي ستبقى بعدنا... شاهد في إلدورادو أعين الضوء التي تأملت أصل الزمن واحتفلت بولادة البشرية. لم يذكروا

الماضي، كانوا دائماً هناك، دون أن يخسروا بسببه حاضرهم، أو بداياتهم،... كيف كان ممكناً الوقوف إلى جانبهم دون أن نفقد إنسانيتنا، أو نزيدها بفضل كل ما كناه؟ هل نستطيع في الوقت نفسه أن نكون كل ما كناه وكل ما نريد أن نكونه؟

لم يجب والده على أسئلته. لكن بالتاسار كان متأكداً أنه كان يصغي. جعلت سابينا الشمعة تحترق. صرخت مذعورة حين مس اللهب اللحم فقال بالتاسار إنه لا يحس بذلك. لكنها شعرت بذلك: شعرت بالسكاكين التي كانت ترتديها، ككتافيات، بين ثدييها، فوق عضوها، بين فخذيها. لم يتوجب عليه أن يشاهدها ليعرف أنها هناك. كان بوسعه أن يشمها، قرب أخته وقرب جثة والده، وشعر بها تخترق جسمه بالتصميم نفسه الذي دخل به خنجره القتالي في جسم الهندي في أثناء مناوشة باليغراند. وبنفس الطريقة عرف «أنه قتل عدوه العنصري في المعركة»، وعرف أيضاً «أن شقيقته تضع سكاكين سرية دافئة وسحرية قرب أعضائها»، تماماً كما اكتشف مبكراً «أن ميغيل لانزا لا يريدني أن أهرب أبداً من قواته لكي أصبح شقيقه الأصغر وليس شقيقه الميت.» بعد أن أخذ كل هذا إلى داخله كان يريد الآن أن يبعد نفسه عنه بحيث يستطيع أن يتقدم نحو الأمام، إلى هواه، المرأة التي تدعى أوفيليا سلمنكا.

كتب فيما بعد إلى صديقيه أنه ربما كان قدره أن يعود إلى مزرعة والده متأخراً جداً عن بعض الأمور ومبكراً جداً لبعض الأمور. لم يأت في أوانه. لكنهما أشارا له إلى الفرصة، ذلك أن أوفيليا سلمنكا غادرت تشيلي وهي الآن في البيرو. كانت هناك، إذن، أسباب عاجلة وحسية؟

«أرسل لك صديقاك رسالة، لم يستطيعا العثور على الطفل.»

«المرأة في ليما. هذا هو الأمر. هل ستذهب».

قال بالتاسار: نعم.

«ألن تأخذني معك؟»

«كلا، يؤسفني ذلك».

«لست آسفاً، لكن هذا لا يهم. لن تـأخذني لأنـك تحـترمني. لم أتوقـع أي شيء أقل من احترامك لي. لن تهينني أبداً. سنترك هذا لرعاة البقر.»

«اعذريني إن كنت مخبلاً. أردت دائماً أن أكون منفتحاً علـى مـا يفكـر به الآخرون ويريدونه.»

«أنت تعرف أنه لم يبق أمامي شيء أفعله هنا. ليس هنـاك أحـد لأهتـم به.»

«هناك المنزل. رعاة البقر. لقد ذكرت ذلك لتوك.»

«هل أنا السيدة؟»

«إذا كان هذا ما تريدينه يا سابينا.

«سوف أموت من الوحدة إذا لم أمنح نفسي لهم.»

«افعلي ذلك، أما الآن فلندفن والدنا.»

الفصل الخامس

مدينة الملوك

(1)

توقف الرذاذ الذي كان يتساقط على ليما في أثناء صيف 1815 حين غامر المركيز دي كابرا وخرج إلى شرفته المعلقة فوق الساحة الصغيرة لراهبات مرسيديريان، وقال، دون أن يكون هناك أي شخص محدد - ربما للغيمة المشتتة، للمطر اللامرئي الذي يحدث قشعريرة في روح المرء: «إن هذه المدينة تضعفنا نحن الإسبان، تسبب لنا الكآبة وتجردنا من أخلاقنا. والأمر الجيد أنها تحدث التأثير نفسه بالبيروفيين.»

أصدر صوتاً كصوت دجاجة يعبر عن سروره من ذكائه وأغلق نوافذ قصره المزودة بشبكية معقدة. كان الخادم الهندي قد ساعده على ارتداء معطفه الرسمي المزين بالفضة وقميصه الكتاني الرسمي المنشى وبنطاله الحريري القصير وجواربه البيض وحذائه الفضي ذي الأبازيم الفضية. وكان كل ما يحتاجه هو عصاه المَلَقية ذات القبضة العاجية.

«أيها الوضيع»، قال لخادمه برقة ملكية. كان على وشك أن يصدر الأمر، لكن الفتى الهندي كان قد أحضر العكاز جاهزاً وسلمه لسيده، ليس كما يجب عليه أن يفعل - بحيث يأخذه المركيز بيده - لكنه قدم منتصف العكاز وكأنه يسلم سيفاً مهزوماً. هذا الخادم، المهجن الصغير، لا بد أنه شاهد بعض السيوف المهزومة وهي تسلم إلى الفائزين في المبارزات في فترة حياته القصيرة. كان هذا جزءاً من أسطورة البيرو: كان كل انتصار تلغيه هزيمتان، بحيث أن علم حساب الفشل كان محتماً. وما جذب انتباه

المركيز دي كابرا في تلك اللحظة كان شيئاً مألوفاً: كانت قبضة عكازه العاجية ميدوزا على وجهها نظرة ثابتة مرعبة ولها ثديان صلبان. بدت كأنها تنذر عبر الحجرين الموضوعين في العينين وهي هدية من زوجته أوفيليا سلمنكا، وقد فقدت ملامح ميدوزا بعض حدتها لأن العكاز حُمل كثيراً. للسبب نفسه، فقدت الشخصية الأسطورية الرهيبة حلمتيها العريقتين وبشكل كامل. هز المركيز رأسه وأسقطت لمته المستعارة المبودرة بعض ندف الثلج على كتفي الرئيس السابق لمجلس تشيلي الملكي. امتصها القماش المقصب، تماماً كما امتص القشرة التي سقطت من الشعر النحيل للرجل الذي يبلغ الستين من العمر والذي كان في بعد الظهر ذاك يسير في ليما التي تجزئها دائماً الشائعات العامة والخاصة.

وكانت الشائعات تتعلق بالموقف الذي خلقته واترلو ونفي بونابرت إلى جزيرة القديسة هيلينا. ولقد أعيد فرديناند السابع إلى عرشه في إسبانيا ورفض أن يقسم قسم الولاء لدستور قادش الليبرالي الذي مكنه من العودة إلى العرش. أعيدت محاكم التفتيش وكان الليبراليون الإسبان موضوع اضطهاد بدا للبعض متناقضاً مع دفاع الليبراليين عن الوطن ضد الغزاة الفرنسيين، في ذلك الوقت الذي كان فيه الملك الأبله يعيش في منفى مموه في بايوني. كان الشيء المهم لمستعمرات إسبانيا الأميركية هو أن قناع «فرديناند المشهور» قد سقط نهائيا. أما الآن، فالمسألة هي أن تساند الملكية البوربونية التي أعيدت أو تقف ضدها وحسب. لم يعد الحياد ممكناً. إسبان ضد الأميركيين الإسبان. وخدم سيمون بوليفار الجميع حين دعا الصراع: *القتال حتى الموت*.

كان المركيز دي كابرا يفضل أن يطيل، كما كان يفعل في تلك اللحظة، وعلى إيقاع المركبة، الشائعات العامة من أجل أن ينهي الخاصة. وفي أثناء ذلك الصيف المتعب، ذي الأمطار التي لم تسقط – كزواج ترك دون جماع ليلة بعد أخرى – كان هو نفسه الموضوع المفضل لثرثرة ليما. أما دخوله إلى حدائق نائب الملك أباسكال، في تلك المدينة التي انتشرت فيها الحدائق من

أجل النجاة من الزلازل سوف، كما قال التشيليون الأذكياء، يترك طاحونة الشائعة تدور بالسرعة القصوى.

والحقيقة هي أن أموراً أخرى شدت انتباه الضيوف في حفلة نائب الملك الساهرة. أولاً، لعبة الغميضة، بحيث أن الشبان الذين يستدفئون ببركات العرش – أولاد الذوات، كما سماهم المركيز دي كابرا الذي كان على معرفة دائمة بآخر موضات باريس – كانوا يستمتعون وهم يندفعون ويتعثرون في طريقهم حول حديقة نائب الملك التي تنتمي إلى القرن الثامن عشر، وهي محاكاة باهتة لحدائق القصر الإسباني في أرانخويث، والتي هي انعكاس أكثر شحوباً لحدائق لينوتر الملكية.

قال المركيز للجميع ودون أن يوجه كلامه لأحد كما جرت العادة: «يا إلهي! تبدو الحديقة كقاعة محكمة بسبب جميع هؤلاء المعصوبي الأعين الموجودين فيها!». سمح له هذا أن يعلق بسخرية ووضاعة لا يمكن لأحد أن يمتعض منها لأنها لم تكن موجهة إلى أي شخص محدد. وبالطبع يستطيع كل من يرغب بذلك أن يسقطها على نفسه.

بدت الحديقة كأنها تشبه مغسل ثياب لأن رفرفة الملابس البيضاء والشاش والحرير والمناديل والمظلات هيمن على المكان: تنورات عائمة، لفحات، قمصان كتانية، تنورات مطوقة، سترات طويلة بلون جلد الأيّل، شرابات وشراريب، ضفائر فضية، كتفيات، نطاقات عسكرية، ولكن، قبل كل شيء، مناديل تمرر، بضحك، من شخص لآخر، تعصب أعينهم، تقيد أيديهم، تمنح الأعمى لحظة وحسب، بيضاء كلمع البرق، ليحدد صيده/صيدها المختار. كان كاهنان شابان قد انضما أيضاً إلى اللعبة، وكانت ملابسهما السوداء التغاير الوحيد وسط تلك الكثرة من البياض. من مسافته ذات الامتياز، لاحظ المركيز موافقاً، التورد العصبي للشبان الكريبيوليين الجميلين، الذين صقلوا، بشراهة، بشرة جميلة، نظرات شقراء وضفائر شمسية. وهذا شرح سبب وجود المظلات في أيدي الفتيات، اللائي لن يضعهن جانباً حتى ولو كن معصوبات الأعين. سيركضن بابتهاج: يد

تحمل المظلة والأخرى تتحسس الشريك الذي يعد به حظ اللعبة. من ناحية أخرى، سببت الحرارة وإثارة اللعبة احمراراً داكناً بين الأولاد، وكأن صورة الكريبيولي الخالص البياض اقتضت فقداناً كاملاً للنشاط.

ابتسم المشاهد الذي وصل حديثاً، سيرتاح الشبان السادة الرائعون في النهاية إما في غرفة النوم ذات الستائر المسدلة لقصر ذي نوافذ مزودة بشبكية أو في زنزانة، هذا ما وعدت به حرب الاستقلال شبان ليما الجميلين: سلطة متجددة أو السجن. *الحرب حتى الموت* ...

والآن، بعيداً عن المقاومة المجنونة التي لا تصدق لعصابات البيرو العليا، بعيداً حتى عن سلم تشيلي المحفوف بالمخاطر، بقيت البيرو المعقل الرئيسي لإسبانيا في أميركا الجنوبية. لكن إلى متى؟

كانت مثل لعبة الغميضة، قال المركيز الخبيث والمسرور وهو يدخل نفسه ككوميدي في دائرة الشبان متخذاً وضعيات مغناجة، قاذفاً بعيداً قبعته ذات الزوايا الثلاث، وفيه حنين ربما إلى القبعات ذات الحواف العريضة التي حظرها تشارلز الثالث في محاولة يائسة ليحدّث الجماهير الإسبانية. وبينما كان يسير، كان يبعثر عطر وبودرة زينته التي تعود إلى القرن الثامن عشر بين أولئك الشبان الطازجين لكن المتعرقين، الذين هجروا لمة الشعر المستعارة الكلاسيكية واختاروا ضفائر طويلة ورومانسية وطافوا في النسيم... حتى في ليما بدأت فجوة الأجيال من خلال تسريحات الشعر، وأشار هذا – وهذا ما أراد المركيز دي كابرا ذو الطبيعة المتفهمة، أن يؤمن به – أنها بدأت في رؤوسهم. كانت تلك حقبة رؤوس. أليس هذا بالضبط ما طلبه وزير فيليب الرابع: «أحضر لي رؤوساً!»

لم يعد يفكر لأن رأسه اصطدم برأس شاب معصوب العينين يبحث عن معشوقته. دار بنشاط وحماسة أكثر من أي شخص آخر، هازاً عرف خصلات برونزية، فاتحاً شفتيه المكتنزتين الحمراوين، واللتين حولهما تغاير امتقاع خديه المصاغين بعناية مع جلد جبهته وخديه، الذي كان أسمر وقد لوحته الشمس. غطى الأبيض المعصوب العينين عينيه. ولو صدم

رأسه ذو الشعر الأجعد لمة المركيز كابرا لكان الأمر ناتجاً اهتياج الشاب كما هو ناتج عن تدخل العجوز في اللعبة.

أمسك الشاب ذراعي العجوز وشعر بطيات معطفه ونزع العصابة عن عينيه حين كان العجوز يعيد ترتيب لمته غير المستقرة التي انزلقت إلى أحد جانبي رأسه. خنق بالتاسار بستوس صرخة، مكتومة، تقريباً كصرخة حيوان، كصرخة ثور أحبطت قوته، لأن ما تخيله بالفعل في الظلمة التي تطلبتها اللعبة هو لقاء ليلي مع أوفيليا سلمنكا، لقاء كانت لعبة الغميضة تذوقاً مبدئياً له، أو طقساً أولياً. لقد أكدوا له أنها في ليما، ومن أجلها سافر إلى هنا قادماً من السهول، عبر صحراء وجبال أياكوتشو والساحل البيروفي، ذلك أنه شذب لحيته وشاربه وسرح شعره، تعطر وارتدي ثياباً دارجة في أوساط نائب الملك. ولقد جاء بحثاً عنها وحضر الحفلات المسائية لليما، المعقل الأخير للإمبراطورية الإسبانية في الأميركيتين، باحثاً عنها لأن صديقيه أخبراه: «إنها في الأميركيتين، لكن لم يشاهدها أحد». «إنها في ليما لكنها مع شخص آخر». ومن أجلها اشترك في لعبة الغميضة متخيلاً أن كل امرأة سيلمسها حين ينزع العصابة ستكون هي، المرأة التي تنهد من أجلها منذ ليلة الخطف المريعة والحريق في بوينس آيرس. وحتى قبل ذلك: منذ أن شاهدها باختصار، عارية، أمام المرآة، تتبودر، أماً جديدة، لكن بخصر لا مثيل له وكفلين قابلين للمداعبة بشكل لانهائي، يناسبان يدي رجل، إنهما الكفلان السريان، القابلان للمداعبة، لأوفيليا سلمنكا، التي جننت بالتاسار بستوس.

بدلاً من ذلك عانق زوج حبيبته العجوز.

نظر المركيز دي كابرا إليه دون أن يعرفه. لم يره من قبل أبداً. انتهت رؤية بالتاسار، انتزع المنديل عن عينيه وسلمه بارتباك، بسخرية، إلى زوج أوفيليا سلمنكا المنذهل. صارع العاشق الأفلاطوني ليرتدي نظارته الإهليلجية، مظهراً أنه كان أكثر عمى من أي أعمى: وضبَّب نَفَسُه الثقيل العدسات.

انحلت الدائرة السحرية للعبة، لكن المجاملة كانت لعبة أكثر تعقيداً واستغرق اللاعبون خمس دقائق ليسمحوا لبعضهم بعضاً بالمرور، ليدعوا بعضهم بعضاً للمرور أولاً.

«من بعدك، تفضل.»

«بالتأكيد لا.»

«هيا الآن لا تدعني أتوسل.»

«الجمال قبل التجربة.»

«من المشرف أكثر إتباع التجربة، لا أن نسبقها.»

«أنا بخدمتك.»

«أتوسل إليك، من فضلك.»

«خادمك.»

«من فضلك افعل معي هذا المعروف الرائع.»

«لا أسمح بذلك.»

«ولكن كيف أعوض لك لطفك.»

«من بعدك/من فضلك.»

«إن الشخص الذي يتبعك لم يولد بعد يا مدام.»

«أحسد السجادة التي تحت قدميك يا مدام.»

«خادمك الأكثر تواضعاً.»

«من بعدك، أتوسل إليك.»

أعاقت مجاملات ليما التي لا تنتهي جميع مداخل القصر، ولكن ما إن أصبح الجميع في الداخل وبدأوا تناول البنش الدافئ وشراب السكر ومحوح البيض المحلاة وفطائر العسل التي أعدتها راهبات أخويّة القديسة كلارا، حتى هيمنت الشائعات، الخاصة والعامة، على طقوس المجاملة المتقنة.

مع ذلك، كان حضور المركيز دي كابرا هو الذي وحّد، بشكل كامل، بين ثرثرة الشارع وثرثرة غرفة النوم وكان هو الذي نشر الأنباء حين أعلن: «لقد غادرت زوجتي ليما، نعم، نعم، أنتم لم تشاهدوها لعدة أسابيع

وتساءلتم لماذا.» (كان هذا صحيحاً. قيل لبالتاسار إنها في ليما ولكن لم تشاهد، ربما لم تكن الزوجة التامة لكنها على الأقل تحت الأغطية – ها ها). «ربما ابتكرتم أسباباً». (يقولون إنها تتبع نقيباً أنيقاً يعمل في سلاح المدفعية نقل من ليما التابعة لنائب الملك إلى تشيلي، وكانت الترقية بالنسبة إليه تسريحاً، بما أنها فصلته عن أوفيليا العذبة، أوفيليا العذبة؟ دعوني أخبركم ما سمعت به وحسب...) «لكن الحقيقة هي أن المركيزة انتابتها نوبة عصبية بسبب كل هذه الفوضى الوطنية وإيمانها الملكي لا يستطيع أن يتحمل مشهد إسبانيا مهزومة ومذلة ومطرودة من العالم نفسه الذي اكتشفته وبنته».

(يقولون إنها لم تكن قادرة على أن تتصالح مع موت ابنها في بوينس آيرس، الموت الغامض جداً، يا دونتي المحترمة كارميلتا، لأنه لا أحد يعرف ما حدث. إن قصة حادثة بسيطة لا تقنع أحداً: فكري، وحسب، أي نوع من الحادثة كانت تلك، تركيز كل نيران بوينس آيرس في ذلك المهد البريء. ثمة أمر مشكوك فيه هنا، أقول لك، ولن نتعلم أبداً حقيقة ما حدث منذ خمس سنوات. انظري، وحسب، كيف أحيت الثرثرة التي تطير من مونتيفيديو إلى بوغوتا، كم هي طويلة تلك الطرق، كم تأخرت السجلات قبل أن تصل إلى هنا، وكم تضيع القوانين، يا عزيزي دون مانويليتو، لكن كيف تطير الثرثرة من فضلك!) «استمرت الإمبراطورية الإسبانية في أميركا ثلاثمائة عام، أطول من أية إمبراطورية في التاريخ»، قال المركيز دي كابرا، وقبعته ذات الزوايا الثلاث تحت ذراعه، «ثم إن روحاً حساسة كروح زوجتي من الصعب أن تتحمل المشهد إلى نهايته.» (ألا يتحدث المركيز كلاماً منطقياً؟ كيف يجرؤ ويتنبأ بنهاية الإمبراطورية الإسبانية في أميركا؟ لا بد أن أوفيليا سلمنكا ارتكبت فعلاً مريعاً ضد العجوز الأنيق دفعه إلى تعريض نفسه بهذه الطريقة، في هذه الأوقات، لشبهة الخيانة العظمى – ذلك أن محاكم التفتيش في ليما لا تنام. وبالتأكيد يعرف المركيز دي كابرا كم أخذ الذراع الإلهي من الهراطقة والمتمردين،

ليمنحهم جزاءهم المستحق.) «إنها منحدرة من الفاتحين الأوائل، كريبولية أصيلة من النسب الأفضل، وكلما ذوت مخيلتي تعيد إشعال نارها بذكرى تلك الأفعال التي لا مثيل لها: خمسمائة رجل يتقدمون من فيراكروث إلى تينوشتيتلان بعد إغراق سفنهم لأسر موكتيثوما العظيم وغزو الإمبراطورية الآزتيكية، عدد مماثل يغزو الإنكا أتاوالبا في أسبوع، فتح جزائر الهند الغربية، الأمازون، المحيط الهادي، مدن معلقة كسبحة من اللآلئ الباروكية، من كاليفورنيا إلى تييرا ديل فويغو، أرواح حوّلت وخلّصت: آلاف، آلاف، يدفعون، من جديد، بفائدة، بسبب فقدان حيوات منحرفة مستعبدة لتمرد ولوثنية عنيدة».

ضحك المركيز دي كابرا، متنقلاً بين الصالونات المحتشدة، في قصر نائب الملك في ليما، في بعد الظهر ذاك، الذي عاد فيه بالتاسار بستوس إلى العالم، العالم الذي لم يبد له واقعياً بعد حياته الأخيرة في السهول، في أيوبايا، ومع قوات ميغيل لانزا.

«المركيزة دي كابرا، إذن، تعتذر لكم عن عدم حضورها هذه الحفلة الساهرة، لكنكم تعرفون جميعاً أنه ليس هناك طريقة أفضل للفت الانتباه إلى الذات من لفت الانتباه إلى غياب المرء.» ضحك المركيز الجني ثانية داعياً مجموعة من الشبان والفتيات، المفعمين بالحيوية، لكن الفاتري النشاط – الذين كانوا ربما حكماء ليخلطوا قطرة واحدة من المصيبة الهندية بقطرة أخرى من الكسل الكريبولي – أن يبتعدوا عن موضوع أوفيليا سلمنكا، زوجة المركيز دي كابرا، والتي فعلت ذلك لكي لا تقر أنه على صواب أو لجعله يشعر أنه يستطيع أن يقرأ أفكارها بسهولة أو يسيطر عليها دون رحمة. وحين فعلت المجموعة ذلك، تركت بالتاسار بستوس وحيداً، مرتبكاً، جائعاً للحقيقة، أو على الأقل للرفقة.

لم يمنع حشد ليما المتألق الشاب الأرجنتيني من النظر إلى الجوارب التي عرضتها امرأة في سن الأربعين، لكنها لا تزال شهية، بأناقة لا تصدق رافضة أن تسمح لتنورتها أن تخبئ جدة جواربها المزينة من إصبع القدم

إلى الركبتين برسوم مطرزة متصلة وبنفسجية، ذكرت صديقنا بالتاسار بنا – فاريلا ودوريغو – ونحن نلعب برسومنا – ساعاتنا – في بوينس آيرس ونعدلها كما عدلنا حياتنا السياسية وكيفنا أنفسنا، حين استقال بوسودا، مع قيادة ألبيار، دون أن نتجرأ أبداً أن نسأل أنفسنا ماذا كنا نفعل هناك، بينما كان أخونا الأصغر بالتاسار بستوس، أضعف الثلاثة، الأكثر ارتباكاً على المستوى الجسدي، الأكثر ثقافة أيضاً، يعرِّض نفسه لخطر الإسبان في الجبال.

«موضوع وقتنا هو الوقت!» أعلنت السيدة – التي كانت ترتدي على قفا عنقها ريشاً بلون الرسوم المطرزة – داعية السادة الكريبيوليين الشبان ليلعبوا بالكلمات والأفكار، التي تستجيب لها بنفسها بطريقة لا تقدر عليها النساء الكولونياليات الجاهلات – اللواتي يجدن أنفسهن حالاً مجردات من رجالهن الوسيمين، الذين تجذبهم الجدة، كما تنجذب اليراعة إلى الشمعة المشتعلة.

«يا له من حادث مؤسف.»

«أنت، يا مدام، بوسعك أن تجعلي الزمن يتقدم إلى الأمام».

«أو حتى أفضل: تلك الوفرة من الوقت..»

«هل تبدو ساقاي سمينتين بالنسبة إليك؟»

«تبدوان لي كأنهما تعبران عن الوجه الذي تواجهين به الزمن.»

«الزمن يا صديقي بدون عمر.»

«لكنه يعاني من الشرور يا سيدتي.»

«أعتقد أنني في الزمن المناسب.»

«ونحن هنا، في البيرو، للأسف، إما دائماً مبكرون جداً أو متأخرون جداً.»

ضحكوا جميعاً، لكن بالتاسار بستوس، الذي كان ينظر إلى ساقي السيدة البنفسجيتين وتنورتها المطوقة، سمح لنفسه أن يلتهي بردائي الكاهنين الأسودين، اللذين كانا يلعبان لعبة الغميضة، وينظران إليه في تلك

اللحظة، وينتظران منه أن يرفع عينيه. نسي السيدة المحرضة، التي كانت أيامها كامرأة مغناجة معدودة – حتى ميكايلا بيبغاس، العاهرة المشـهورة، أرخـى امـرأة في المستعمرة، وصلـت لتوهـا إلى سـن السـتين، فكـروا بذلـك وحسب، يا أصحاب السيادة – لينظر إليهما وهما يبتسمان له: كـان أحـد الكاهنين دميماً جداً والآخر أنيقاً جداً وحاصل جمع عمرهمـا لـن يصـل إلى سن السيدة البنفسجية الـتي تبلـغ الأربعـين. حدقـا بـه دون شـعور بالعـار ولكن، حين توقفا، ورفعا كأسي خمرهما الصغيرتين ليشربا نخب بعضهما، أدرك بالتاسار تلك الرقة الهائلة التي جمعتهمـا، وأشـارت النظـرات الـتي تبادلها الكاهنان الشابان أيضاً إلى أن الكاهن الدميم هو الـذي يقـوم بوظيفـة التابع في تدليل الكاهن النقي وعبادته والاعتناء به وخدمته.

حدق بالتاسار بستوس إلى أطراف ثياب الكاهن الأنيق لبرهة دون رغبـة في التحقق من ردة فعل الآخر. وجد نفسه وحيداً بعـد حملـة البـيرو العليـا الطويلة وموت والده بحيث أنه خاف من جاذبية ذلك الكـاهن الشـاب ذي الملامح الرائعة والشعر الأسود والبشرة الشمعية – التي كمثـل بشـرة ميغيـل لانزا، كيدي والده الميـت، وهمـا تحمـلان الشـمعة، الـتي تشـتعل بسـبب القسوة، وحقد سابينا، التي كانت متلهفة لتشـكل معـه دائـرة مـن اثنـين، كالدائرة التي شكلها الكاهنان – يمكن أن تعيق علاقتـه مـع الكـاهن الـورع ذي الملامح الفظة، الناتئة جزئيـاً، والحسـير، مثـل بالتاسـار. حـين رفـع عينيه ليلتقي بأعينهما، على أية حـال، عـثر علـى الرضـا، والاشـتراك في الجاذبية، وعلى دعوة. حذرا جوعه للرفقـة وعزلتـه ولم يتخيـلا أن هنـاك خلف عينيه الشكل المرغوب لأوفيليا سلمنكا.

جذبته عينان أخريان، رغم أنهما لم تمنحاه أدنى اهتمام وجعلتاه، بدلاً من ذلك، يشعر بأنه متطفل غريب عن الدائرة الحصرية لهؤلاء الكريبيوليين الأرستقراطيين، الذين، في مدينة ليما، عاصمة العواصم، التي لا تنافسها في أميركا الإسبانية إلا مكسيكو سيتي، لم يصلوا إلى روعتهـم وحسـب، وإنمـا أيضاً إلى جوهرهم الأنقى. كانت تلكما العينـان لأجمـل امـرأة بـين اللواتـي

يحضرن حفلة بعد الظهر. بدت تلك المرأة كالغروب، شع جمالها الداكن، وتلألأ قوامها، الذي حول الندب إلى احتفال، جزئياً بفضل الخيط الذهبي المخيط بمكر في ثوبها الخاص بالجنازة. لم يتفاد الذهب حزنها لكنه منح الموت شعور ترف، وهو، بلا شك، موت زوج المرأة الشابة، التي كان توهجها الحقيقي المهلك في جلدها وليس في ثيابها أو مجوهراتها. وفي الحقيقة، لم تكن ترتدي مجوهرات ذلك أنها لم تكن بحاجة إليها. حيَّر جمالها بالتاسار، الذي كانت عيناه تنضحان دماً وتخثراً، تلالاً من الإردواز والأدغال.

هل كانت جميلة كما رآها؟ كانت تحدق إلى اثنين آخرين متزوجين على ما يبدو، ذراعها يستريح دائماً على ذراع الرجل، وكأنها تريد أن تبدأ، أيضاً إلى الأبد، حفلة رقص وقورة ستعلنها مع كل خطوة: نحن زوجان. كان يقول للمرأة الداكنة: تجاسري على التخلص من هذا الزوج، أدعوك للقيام بذلك، هيا معنا. عبر وجه الزوجة عن إخلاص قوي، بحيث أنه ناقض نفسه ليصبح أكثر الدعوات مكراً. في بعد الظهر ذاك، بحث بالتاسار بستوس، غريزياً، عن المرأة، التي في عزلة الندب، لترافق عزلته. علم أن المرأة المنعزلة ستتخلص من عزلتها برفقة الرجل المتزوج الذي قال لها، سرياً، ومع ذلك علنياً: «أنت حبيبتي المحتملة. بحضور زوجتي أدعوك لتصبحي عشيقتي الفعلية. لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك لأجذبك.»

«لوث ماريا...»

هرب الاسم كتنهيدة أو تهديد من الصوت المشترك للزوجين: «يؤسفنا جداً ما حدث.»

«ليس هناك مشكلة، الزمن يجترح المعجزات.»

بدأوا يتحدثون عن القداسات والتاسوعيات، وبدأ خصيٌّ ينشد مقطعاً من بالسترينا، وسيدة عجوز جداً، مغطاة بالحجب وترتدي من الأمشاط أكثر مما على رأسها من شعر، قالت لبالتاسار، بالطريقة التي يدرس بها امرؤ درساً أساسياً: «الخدم يعرفون. إنهم الوحيدون الذين يعرفون في مجتمع كمجتمعاتنا. هجرت المرضعات الهنديات النبلاء الآنكيين ليخدمن

الإسبان. والآن سيتركن الإسبان ليخدمن الكريبيوليين الوطنيين مثلك، أيها الفتى الغر.»

حكّت الشامات التي ظهرت في البقعة التي تخلو من الشعر في جمجمتها وقهقهت بمتعة خالصة معلنة أن رأسها لا يزال جيداً لشيء ما. «وبالإضافة إلى ذلك،هل سبق ورأيت مقتنيات أوفيليا سلمنكا الفضية؟ حسناً، اجعل زوجها، المركيز ذا القرنين، يدعوك إلى العشاء، وهناك ستشاهد مصير الفضة التي صُنّعت في بلادنا، أيها الشاب، أيها الفتى الشاب، بماذا أدعوك؟» قوقت العجوز الشمطاء، التي ترتدي نسيجاً شفافاً، ويسندها خادمان هنديان، يرتديان سترتين من فرساي، ولمتي شعر قطنيتين.حركت العجوز ذراعيها قائلة: «تابعا الحركة أيها الخادمان القذران، ساعداني، لا تتوقفا، لا أحد يستحق أكثر من دقيقتين من حديثي، لا أملك إلا القليل من الوقت».

بحث بالتاسار عن الجوارب المطرزة بالساعات، لكن ربما دعيت صاحبتهما إلى الانسحاب. من ناحية أخرى، كانت تلك المشاهد مثل استعراض جانبي – مجرد خفة يد من قبل أولئك المشعوذين. همس صوت مألوف وصل إلى بالتاسار بستوس. شاكاً،استدار ليشاهد الشكل الطويل المحدودب قليلاً لمعلمه الخاص القديم جوليان ريوس، اليسوعي، الذي وضع جانباً رداءه الكهنوتي وشرح لنصف سكان السهول عن الأزهار والحيوانات المحلية، اللغات المحلية، وكل هذا يحدوه أمل اكتشاف – كما قال، متذكراً طفولة بالتاسار وسابينا بستوس – خيال كوني، حتى ولو كان خيالاً ناشئاً في التربة والجذور، هذا ما قاله اليسوعي العجوز مبتسماً مضيفاً بوميض من نظارته ذات الإطار الفضي: *إن جذوري تعود إلى رابليه، هذا ما قاله طائر الزاغ وهو يشرب من النبع.*

ضحك بالتاسار عاصراً ذراع ريوس وأصغى بينما كان العجوز يقود الشاب بلطف إلى النهاية الأخرى من حفلة نائب الملك: «كل شيء آخر هو استعراض جانبي، إذا استخدمنا لغة السيرك – لم أقل

بار سيرس الآن – لا: الاستعراض الرئيسي هو دائماً المركيز دي كابرا نفسه.»

من الذي، في الحقيقة، كان يتولى المحكمة. لأن السجادة نظفت من الشائعات بمرسوم من المركيز نفسه، الذي كان أول من ذكر الشائعة عن زوجته، حياته، نضاله، قال الأب ريوس دون تأثر. كان المركيز يتحدث الآن بتدفق لا يتوقف:

«الثورة الحديثة مقسمة بالتساوي بين الشقيقين العدوين روسو وفولتير. أراد ابن جنيف من البشر أن يقوموا بالفعل، أما الآخر فأرادهم أن يُقادوا. لكن تربية البشر وفقاً لقواعد العقل تستغرق وقتاً طويلاً لذلك ينبغي أن يقادوا في البداية – من ثم ربح فولتير المباراة، ولا يمكن أن يخسرها أبداً. ما الذي قاله العجوز الشكاك؟»

قال جوليان ريوس: «إن ضوء العقل ينبثق على درجات. المستوى الأدنى من المجتمع يحتاج إلى مثال أسياده. أربعون ألف حكيم: هذا ما نحتاجه قليلاً أو كثيراً.»

قال المركيز العجوز متنهداً: «أربعون ألف حكيم. ضعني بينهم، وسيكون الشيء الأول الذي سأقوم به هو منع البشر من أخذ مكاني أو إرشادي. كل ما تفعله الثورة الحديثة هو أنها تخلق نخبة جديدة. لماذا؟ كانت النخبة القديمة أكثر رشاقة ومتمرسة بالشيء نفسه الذي ستقوم به النخبة الجديدة: إزالة الظلم.»

«إن نقل الثروة من مجموعة ضئيلة من مالكي الأرض إلى أربعة ملايين ناخب في عام واحد لا يبدو لي نخبوياً، يا صاحب السيادة. لم يكن هناك أبداً إعادة توزيع للثروة بهذه الضخامة أو السرعة في كل التاريخ المدون.»

باه! قال المركيز حتى دون أن ينظر إلى المعلم: «إن ثورات الفوائد تكلف أكثر من ثورات المثل. ويبدو القمع اليعقوبي في فرنسا أقل إيلاماً لي من ظلم نخبة ثورة أميركا الشمالية. إن ثورة ما، أيها السادة، ثورة لا تترك العبودية سليمة وحسب وإنما تكرسها بالفعل.»

سأل ريوس: «هل نحن أقل عنصرية منهم؟»

ضحك المركيز بغطرسة دون أن يجد لقباً مناسباً للمعلم: «ما العمل يا سيد، أعني ما العمل حين يأتي الناس الملونون أنفسهم إلى المحاكم هنا في ليما وبارانكيا أو لاغوايرا طالبين برهاناً مكتوباً بأنهم بيض؟ كم من القضاة الفاسدين حدقوا في الوجه المخدوش لرجل كان والده وجده أسودين وأمه وجدته هنديتين، وقرروا: «يمكن أن يعتبر أبيض؟» إن محاكمنا تعج بالطلبات من أجل شهادات بياض يا سيد، يا سيد...»

قال المعلم مبتسماً: «الأب ريفرز.»

«آه! ابن خؤون لألبيون...»

«كلا يا صاحب السيادة، مجرد أمهق أذهله إعجابه بحكمتكم وحسب.»

«هذا ما أحب أن أسمعه. الأنهار يجب أن تتدفق، أو، بشكل أفضل، أن تجري.»

«إن التقدم بالطلبات شيء غالباً ما يحدث في هذه الأنحاء يا سيدي، لكن الطريقة التي تقول بها اسمي تجعلني أفكر بما يناقض ذلك، لهذا ربما تفضل أن أتراجع.»

«كنت أعلق وحسب على سخرية تقديم السود لعرائض كي لا يلقبوا «سوداً فقراء» أو «هجناً فقراء».

«نحن نتعاون جميعاً يا صاحب السعادة. العائلات البيضاء في ليما وكاراكاس وبنما تقوم بأفعال قانونية لمنع أي من أعضاء الأسرة من الزواج من الملونين.»

«باختصار، إذن، يا سيد ريفرز، يحق لي أن أعلن هنا، أمامكم جميعاً، أن فضيلتي الوحيدة كانت الإدارة المناسبة للظلم، وأنه، شخصياً، أفضل أن أموت على أن أتوقف عن كوني غير عادل.»

تبع كورس من الضحك النكات المهندمة للمركيز دي كابرا، وهي أداة يدد بها، لا الانتباه الذي تركز في البداية على علاقات زوجته الغرامية وحسب، وإنما أيضاً أي انتباه تركز على المخصي المسكين الذي يؤدي

البالسترينا. على أية حال، أسكت التعليق الذي أطلقه اليسوعي العجوز: «الامتياز هو مثل عباءة نيسوس Nessus، حين تمزقها، تمزق أيضاً اللحم الذي تحتها.»

دار المركيز كدبور وتحدث كسوط: «تابع شن حرب استقلالك. وأؤكد لك أنني لا أطلق إعلانات كسولة. أنا أرصد الأشياء الأكثر واقعية. اقتصاد راكد، دون حماية إسبانيا ولا يقدر على المنافسة في الأسواق العالمية. مجتمع امتيازات، إن مجرد طرد الإسبان لن يقلل من ظلم الكريبيوليين وقسوتهم أو جشعهم. وستكون هناك حاجة ماسة إلى ديكتاتورية بعد أخرى لردم الهوة بين البلاد كما أسسها القانون والبلاد كواقع. ستُتركون لرحمة العناصر أيها الوطنيون الأعزاء. سوف تسقطون سقف التراث لكنكم لن تعرفوا كيف تعيشون في الجو الجديد المفتوح. إن العصر الحديث، الذي هو نسيم للإنكليزي، يا أب ريفرز، سيكون إعصاراً للبيروفي. نحن الذين نتكلم الإسبانية لم نولد له.»

«سوف نصنع حداثتنا الخاصة وستكون مختلفة عن الحداثة الفرنسية أو الإنكليزية يا صاحب السيادة»، قال بالتاسار الشاب متخيلاً سقفاً فرنسياً فوق رأس أخته سابينا ليحميها بعد أن تهجره إسبانيا من العناصر الوحشية التي خافت منها كثيراً.

حدق إليه المركيز بفضول وكأن ذكاء العجوز لن يتجاسر أبداً على رفض علاقة ممكنة، ارتباطاً أو تماساً، مهما بدا اعتباطياً من النظرة الأولى.

ابتسم المركيز قائلاً: «أيها الأب ريفرز، إن مريدك الشاب – هذا ما هو عليه، أليس كذلك؟ – يعرف أن جميع المياه تتدفق في بعضها. هل أنا على صواب؟

قال المعلم: «الأنهار تتدفق.»

«الأنهار تطوف، الخدم يخدمون، الكهنة يصلون – أم هل هي يفترسون؟ – لكن المخصيين، لحسن الحظ، لا يخصون. مع ذلك، الشباب ذوو الوجوه التي لوحتها الشمس، واللحى المقصوصة حديثاً يثيرون فضولي. هل يتدفقون أو يخدمون أو يصلون أو يخصون؟»

قال بالتاسار: «لا شيء من هذا القبيل يا صاحب السيادة. أحياناً يرغبون وحسب.»

قال العجوز بنبرة أسيدية: «طالما أنهم لا يرغبون بما ينتمي إلى الآخرين وحسب. في هذه البلاد الممارسة الحكيمة هي أن تضع إصبعاً في مؤخرة كل معدِّن لترى إن كان لا يسرق ذهباً.»

قالت المرأة المصابة بالصلع والمليئة بالأمشاط: «يا للسماء يا صاحب السيادة! حتى أنني لا أسمح لنفسي بأعمال فاحشة كهذه، على الرغم من حقيقة أنني أكبر سناً وأن نائب الملك أباسكال لا يصغي إلى ما أقوله.»

كانت تلك الشخصية البارزة نفسها تقف خلف كابرا بوجهها القوطي الغربي. انحنى المركيز وانتظر الجميع كلمات نائب الملك، دون فرناندو دي أباسكال، المركيز دي كونكورديا، الذي كان يأمل، دون شك، أن يلغي أي نقاش عن الاستقلال أو الولاء للعرش – الموضوعات الوحيدة المطابقة للزي الحديث، بما أنه لم يدخل آخرون أنفسهم في محادثات مفعمة بالحيوية – ببضع كلمات أكثر دقة مما يمكن أن ينطقها آخرون. تخيل نفسه يأسر جمهوره بعينيه اللتين كانتا كعيني سمكة قد تعرضت للمضايقة:

«ولد الأميركيون ليكونوا عبيداً، ولقد قدرت عليهم الطبيعة أن يعيشوا في غموض وكآبة.»

قال ذلك ملزماً، ليسيء، لأنه اعتقد أنه في الظروف الحالية، كان واجبه هو أن يسيء وستكون إساءته الأكبر هو أن يراقب أية مناقشات يمكن أن يقترحها الآخرون. كان نائب الملك، لكن لا نائب الملك ولا صفاته يمكن أن تكبح – والآن جاء الوقت المناسب للبرهنة على ذلك – خيال وحس الفكاهة لدى المركيز دي كابرا، الذي حاول هكذا أن يقترح، أن الرجل الذي ينبغي أن يكون نائب الملك أكثر من أباسكال هو نفسه: المركيز دي كابرا الذي كان يتحدث.

نظر مباشرة إلى بالتاسار بستوس وعلق قائلاً إن بشرته المصبوغة وذقنه الشاحبة يشيران إلى أنه أمضى شهوراً عديدة في الجو المفتوح وتحت

الشمس، ثم إن لحيتة لم تحلق حتى وقت متأخر. هز بالتاسار رأسه. لم يبد هذا الشخص كأي شخص آخر: هل كان جندياً؟ لكن لا أحد من الضباط الحاضرين أظهر تغايراً أو خشونة مثله. «في أية حملات كنت يا سيد، يا سيد...»

«بستوس. بالتاسار بستوس.»

«وهو صدر كلاسيكي. هل أنا على صواب يا أب ريفرز؟»

«تماماً. هذا البالتاسار يبدو مستعداً لوليمته.»

«لكن نبوخذ نصر هو الذي رأى الكتابة على الحائط.»

«ينبغي أن نأخذ التحذير من هذا: النهاية وشيكة يا سادة.»

حدق كابرا بسخرية إلى نائب الملك، الذي تحول من سمكة تمت مضايقتها إلى حيوان رخوي أرضيّ. لقد تحدث ولم يهم أي شيء آخر.

«إذن، يا بالتاسار بستوس.»

قال المركيز إنه لا يعرف إن كان بالتاسار موالياً أو معارضاً، لكنه كرييولي، وكان هذا واضحاً جداً. وهو ضابط أيضاً رغم أنه ليس معروفاً في أي جانب هو، أضاف كابرا بأدنى تلميحة تهديد في صوته. لكنه كان ضابطاً وكرييولياً، ولهذا سيفعل، بدون شك، كل ما فعلوه جميعاً، أي أن يأخذ هندياً كمثل ذلك الفتى الذي يرتدي بزة الخادم ويعتمر لمة شعر قطنية والذي يخدم أفضل أرملة للمركيز ث ... الذي كان نائب ملك البيرو، ويقول له، كما كان يقول المركيز دي كابرا، وهو يمسكه بخشونة، أيها الخراء الخلاسي، هذا صحيح، أيها الخراء الخلاسي ألف مرة، لن أقحم إصبعي في مؤخرتك لأرى إن كنت قد سرقت ذهبي، أيها الخلاسي، لكنني لو كنت هذا الضابط الكرييولي – الوطني؟ المتمرد؟ الموالي للملك؟ من يعرف، من يهتم؟ – سأقول لك، أيها الخراء الخلاسي، اكنس الثكنة، رتب سريري، صب لي كأس ماء، لا تحرك عضلة إن ركلتك في مؤخرتك، لا تصدر حتى تنهيدة إذا صفعتك على وجهك، لا تتجاسر على رفع رأسك إذا أمرتك، أيها الخراء الخلاسي، أن تنظر إلى قدمي، لأن روحك، هذا

إذا افترضنا أن لديك واحدة، أيها الشيطان المسكين، لا تصل حتى إلى ارتفاع قدمي.»

توقف المركيز، منزعجاً أكثر مما اعتقد، وأخذ نفساً عميقاً، قائلاً إن الكريبولي سيقول ذلك لهذا الخراء الخلاسي الذي يمسكه من عنقه. سيقول ذلك حتى ولو كان وطنياً، لأنه، قبل أن يكون وطنياً، كان خراء كريبولياً. لماذا لم يفعل المعلم الصغير بستوس ما كان المركيز يدعوه ليفعله، حين، يوماً ما، عاجلاً أم آجلاً، سيكون عليه أن يفعله ليبرهن *من الذي يتولى القيادة هنا*.

أمسك كابرا خادم أرملة المركيز ث... وكأنه غنيمة غرائبية. هزت العجوز الصلعاء خناجر درع السلحفاة الناتئة من رأسها واحتجت بأن ميغويليتو جيد ومخلص ولن تسمح لأحد، حتى رئيس محكمة العقاب الإلهي الأكثر تميزاً بأن ...

دار كابرا بوحشية على كعبيه ليواجه العجوز الشمطاء، هي التي أمرت بأن تجلد بيريكولي علناً لتباهيها بأنها محظية نائب الملك دي أمات، والأسوأ من ذلك، لأنها اعتقدت أن خطايا العهر يمكن أن يكفر عنها من خلال السير الحافي علناً، وليس سرياً، خلف عربة القربان المقدس، دون إضافة فضيحة إلى أخرى وذيوع الصيت إلى الفضيلة، هي التي شاهدت جر وتقطيع توباك أمارو وابتهجت بالمشهد، ذلك المدعي لقب الإنكا الأخير، الذي نهض باسم المظلومين مسلحاً ليحول فقراء البيرو إلى ملوك هنود – هل ستنقذ الآن هذا الخلاسي الخراء الذي يخدمها من الضرب؟

قالت العجوز وقد امتلأ صوتها بالبلغم: «آه، ولكن يا صاحب السعادة، أجبر توباك أمارو حاكم كوزكو على أن يشرب الذهب المصهور من المناجم ويموت بشكل مريع. أما ميغويليتو، الخادم، من ناحية أخرى، ليس عاهرة أو متمرداً، بل أحد أرواح الله الحقيقية.»

انفجر الضحك، لكن كابرا لم يطلق الخادم المجبر على ارتداء اللمة. انتظر حلول الصمت ليعلن أنه من اليوم فصاعداً، ليمنع سقوط الإمبراطورية

الإسبانية في أميركا، هو، لوكاديو كابرا، المركيز، الرئيس السابق لمجلس تشيلي الملكي، سيعتبر نفسه ميتاً – في النهاية، رجل مثله، من النادر أن يبقى على قيد الحياة بعد موت عالمه – وسيحتفل هنا، في مدينة الملوك، بجنازته، بفخامة وروعة، وسيرأسها نائب الملك دون فرناندو دي أباسكال، مركيز دي كونكورديا الذي بدا حائراً بينما حاول أن يفهم تلك الأفكار المتناقضة التي لم يمتلك حيالها جواباً جاهزاً – كيف يسمي ذلك المركيز المجنون: أيسميه عبداً، غامضاً، بائساً؟ لن يأخذ سيادته توقع الموت هذا كفعل غير ورع أو مضحك كالجنازة غير الناضجة للهرطوق فولتير أو المتمرد فراي سرباندو تيريثا دي ميير، الليبرالي المكسيكي في قادس، لكن، بالأحرى، كفعل إخلاص وألوهية عميقة، كالدفن المسبق لصاحب الجلالة شارل الخامس في الأبرشية في يوستي، وسط ترانيم وفورة ومدائح إلهية. بالتالي: إن الدفن المسبق للمركيز دي كابرا (لينقذنا الله!) لن يكون مزحة فولتيرية أو إنذاراً رفيعاً لقدرنا المشترك المجسد في أكثر الملوك كاثوليكية، لكنه تعليق مر على الأزمنة. (السيدة التي أبعدت عن حضور نائب الملك حدقت إلى جواربها المطرزة بساعات صغيرة أما المعلم جوليان ريوس فقد ترك المركيز يثرثر.)

«حين يدخل سيمون بوليفار إلى هذه المدينة من الشمال وخوسيه دي سان مارتن من الجنوب، وهذا شيء أتنبأ به أيضاً اليوم، سيقول جميعكم إنني ميت ومدفون، عارفين جيداً أن هذا الخلاسي الخراء سيحتل مكاني، خادم أرملة المركيز دي ث.... وهاأنذا أحكم عليه بأن يموت شاباً، في مكاني بحيث يعتقد العالم أنني ميت ويتركني أعيش بسلام، يتركني بسلام، يتركني بسلام، وحيداً وعجوزاً ومنسياً وقد نبت قرنا الخيانة على جبهتي بسبب أوفيليا العذبة.» هذا ما قاله المركيز دي كابرا الذي أصيب بالهذيان الجنوني، قاذفاً بقوة رياضي (هذا إن لم يكن بسبب الحظ) لمته المستعارة، التي هبطت على رأس المرأة العجوز الأصلع المليء بالأمشاط. ثم انسحب المركيز، جاراً قدميه، باكياً، بينما عزف موسيقيون من التشولو

الذين يرتدون لمـات شـعر قطنيـة ومعـاطف ألحـان رقصـة المنيوويـت الـتي تحولت، في أذني بالتاسار بستوس، إلى كآبـة، إلى هـواء جبلـي بعيـد، إلى لحن وداع لا يعالج، حمل معه صخب الأسلحة، حيوانات لامة قديمة جداً وخيـولاً جديـدة، رجفـان الأرض والعواصـف في السـماء، غلايـــين الكينـــا الحزينة دائماً، الصوت الوحيد للأراضي المرتفعة، مصمتاً كل شيء.

لكن ليس الآن. اندفاعة كبيرة من إطفـاء الشـمعدانات، حفيـف أغطيـة طاولات، وقعقعة آنية رافقتها الوداعات المرحة للشبان الذين كانوا يرتبـون اللقاءات الليلية والليالي التالية: لنذهب إلى مقهى بوديغونيـس. سـنلتقي في المسرح. لا تضيّع باكا رودريغز – لن ترى أندلسية فاتنة مثلها، يا للعـار! إنها تحب زوجها بوفو رودريغز. انتبه، مضى عام ولم يتحدث أحد عن أي شيء سوى مقتل الممثلة الأكثر شهرة قبل باكا هـذه، ماريـا موريـنـو، الـتي قتلها حبيبها الذي رفضته، اسمه سيبادا، غفر لـه غيرتـه الرهيبـة في ليمـا الجميع عدا مضيفنا لهذا المساء. اخفض صوتـك يـا خـوان فرانسيسـكو، لا تظهر عدم احترام لنائب ملكنا المبجل الـذي أمـر بـأن يعـدم خنقـاً بـالطوق الحديدي كأي مجرم سوقي، وذلك، بدون شك، لأن نائب الملك كان يرغب بالممثلة ماريا مورينو ولم يكترث بـالتحذيرات الـتي خربشـت علـى جميـع حيطان ليما: *أباسـكال، يـا أباسـكال، إذا شـنقت سـيبادا، سـوف تسـقط بالتأكيد!* يسقط يا ماتيلدي يسقط؟ انظر إليه وحسب، إنه طازج كخسة. لا تتحدث عن الخس، هذا يوقظ جوعــي. ليذهـب الجميـع إلى المقهـى وبعـد ذلك إلى المسرح.

(2)

عـانق بالتاسـار بسـتوس المعلـم اليسـوعي العجـوز وطلـب منـه أن يلفـه بردائه. أصر جوليان ريوس، دون شك، بسبب المشاعر المزعجة التي سببها له القرار البوربوني القاضي بطردجماعته، أصر بعناد علـى أن يلبـس قبعـة

ذات حواف عريضة ورداء على الطراز الذي حظره تشارلز الثالث. وبالإضافة إلى إخفاء بالتاسار، ساعد الرداء على حمايته: تعرَّف المعلم الفقيه على حاجة ذلك الفتى، الذي لم يكن خارجاً إلى العالم وحسب، وإنما كان خارجاً إلى عالم جديد كان يتخلص بألم من ماض اعتبره كريهاً لكنه كان عالمه الخاص. هل سيفهم الوطنيون الأميركيون الجنوبيون أنه بدون الماضي لن يصبحوا أبداً ما يطمحون إليه: نماذج الحداثة؟ إن الجدة من أجل الجدة هي مفارقة تاريخية تندفع نحو مهزلتها المحتمة وموتها. إن الماضي الذي يجدد هو الضمان الوحيد للحداثة: هذا هو درس الأب ريوس لمريده الأرجنتيني الشاب، الذي بدا في تلك الليلة يائساً، يائساً كالقارة برمتها.

لا يمكن لرجل دين متنور، مثل جوليان ريوس، أن ينجو من تناقضه، بالتالي، يستطيع أن يفهمه في الآخرين. وكان تناقضه هو أن يوافق على، ويشجب، في الوقت نفسه، أعمال الشغب التي أدت إلى حرق منزل إسكلاتشي في مدريد حين نشر المرسوم القاضي بطرد اليسوعيين ووضع البشر عند قدم المحكمة البوربونية جميع الشرور التي أطلقت في غياب مجتمع يسوع. كانت أعمال شغب إسكلاتشي تنطوي على لسات كوميدية، لكنها، بالنسبة إلى ريوس، لم تؤكد في روحه إلا الصراع بين الحفاظ على النظام، من خلال حلول براغماتية متطورة، وتحويل كل شيء إلى عنف والمجازفة، بالتالي، بالسقوط إلى مستوى أدنى من المستوى الذي صعّد التمرد لكن هذا يفسح المجال كذلك لإنجاز أمور لن تتحقق أبداً بطريقة أخرى.

أغاظت تلك الأفكار المعلم وهو يقود بالتاسار، المختبئ تحت ردائه، خارج قصر نائب الملك. كان جزء منه يسأل (وهذا ما قاله لبستوس): «أين تمكث؟ يجب أن تستريح. دعني آخذك إلى مكان إقامتك، سنتحدث هناك. أنا مهتم بمستقبلك. ما الذي ستفعله؟ لماذا لا تعود إلى المنزل وتهتم بشؤونك؟ ليس هناك سياسة غير سياسة التربة، جميع السياسات محلية، لكنني لا أعرف عنك أي شيء، لا أعرف ما فعلته منذ أن كنت طفلاً.»

النصف الثاني منه سحبه نحـو القصر الـذي يسكنه المركيز دي كـابرا في ساحة الكنيسة. لكنهما سلكا في البداية طريقاً التفافياً إلى الجانب الآخر من النهر كي يتحدثا بسهولة.

حين كان جوليان ريوس يقود بالتاسار بستوس عبر الشوارع الليلية لتلك المدينـة السـرية، الخطـرة دائماً، والمصنوعـة مـن الطـين المتنـاقض للغـرور والاسـتياء، الـذي جعلهـا وحشية في قدرتهـا علـى إذلال الضعفـاء والقيـام بالعنف ضد الأقوياء، سمح لنفسه أن يلاحظ أن كل مـا يحتاجـه لـص مـن النوع الذي يتكاثر في مدينة التناقضات الاجتماعية هذه هو إبريق ماء وملعقة ليفتح ثغرة في جدران ليما الطينية. ليما: مبذرة، دون مشاريع طويلة المـدى لتركيز إرادة سكانها، مدينة تخسر نفسها من أجل مطر كان دائماً مهـدداً لكنه لم يأت أبداً، لأن عاصفة إستوائية ستجعل هذه المدينة تذوب دون أن تـترك بنـاء حجرياً علـى طـول الطريـق إلى منطقـة الراهبـات الكرمليـات الحافيات، التي يمكن أن تشاهد منها تلال الأمانكوس.

قال ريوس لطالبه: «يوماً ما ستأتي عاصفة مطرية ضخمة.»

لكن، بسبب الظروف، بدا بالتاسار محبطاً أكثر مـن المركـيز دي كـابرا نفسه. وبدا أن هناك سبباً واحداً في كلتا الحالتين: أوفيليا سلمنكا.

«ما أخبارك؟ هل سافرت؟ لم أشاهدك منذ أن كنت طفلاً!» قـال المعلـم لمريده بينما كانا يقفان قرب دير سينت ليبيراتا.

وقفا في الساحة المكتظة بالبغال وتجار الماشـية القـادمين مـن الجبـال أو المنطلقـين إلى الصحـراء. انتشـرت الرائحـة الطازجـة للنعنـاع، والكزبـرة، والبقدونس، وزهر رعي الحمام بصعوبة فوق الروائح الكثيفة للصـوف المبلـل والجلود الخارجة حديثاً من المسالخ، والمهاميز التي لا تزال تفوح بالمناجم، الخراء الذي يخرج منه البخار، وبول البهائم المحملة الذي يسـتغرق فـترة طويلة. روى بالتاسار، وهو يضع يديه القويتين، التائقتين إلى الرحمة، على كتفـي معلمـه العجـوز ريـوس قصـة حياتـه منـذ أن شـاهدا بعضهمـا للمـرة الأخيرة: قراءته لروسو، إيمانه الساطع بثورة أيار، قراره الخاص بالانضمام

إلى التمرد دون أن يعود أولاً إلى المنزل، إلى تراثه الخاص، وإلى مواجهة ما كانه ومن أين جاء، ثم الحملة في البيرو العليا.

«بهاتين اليدين قتلتُ. ولا تقل هذه هي الحرب أيها الأب!»

«بالنسبة إلي، لم أعد أمتلك تاريخاً خاصاً. إن تاريخي لا يمتلك معنى خارج التاريخ. كم هذا محزن! لكن العالم جعلنا هكذا.»

«لا أحد يقدر أن ينتزع شارة الكهانة منك، حتى الله نفسه، هل تقدر أن تصغي إلى اعترافي؟»

«أقدر، أقدر حتى أن أروي لك اعترافك. لا تعتقد أن كبريائي هي التي تتحدث حين أقول ذلك. لكن ببساطة: في نظامي كل فرد هو شيء أكثر من نفسه.»

«كان الرجل الأول الذي قتلته هندياً. بعد ذلك، لم يهمني من قتلت. كنت رجل عصابات جيداً. لانزا رجل شجاع. لا ألومه من أجل أي شيء. كان ذلك الفعل الوحيد هو الذي يستحق اللوم وحسب. الأول. كان مقدراً أن يحدث. قتلت أحداً ما، وكان هندياً.»

«أنت تعرف أننا نحن اليسوعيين قد سلحنا هنود الغواراني في باراغواي وبفضل تلك الأسلحة لم يعبر أحد إلى الأراضي الهندية: لا نواب الملوك ولا مهربو الكحول، ولا تجار الرقيق أيضاً. توقف الهنود عن استخدام النقود، وزعت الأرض على الجماعة، كان عمل اليوم ست ساعات، ولم يكن أحد ظالماً. هل يبدو الأمر كمثل يوتوبيا بالنسبة إليك؟ لم يكن الأمر كذلك. لقد خلقت المستوطنات الثلاث وثلاثون من البارانا إلى ريو نيغرو ومن بيليم إلى بيساندو، ولم تكن ممكنة إلا بسبب فعل عسكري وسياسي: قرار فيليب الرابع المتعلق بمنح هنود الغواراني أسلحة. لو لم يحصل ذلك، لأبيد الهنود، كمثل الجميع، بسبب الكحول، والأشغال الشاقة، والميتا، والمرض. يوتوبيا مسلحة! لا نقود بل الكثير من الأسلحة النارية. لكن كل ما تريده هو بندقية واحدة لليوتوبيا لتتوقف عن كونها يوتوبيا. إن بذرة جميع الشرور هي تبرير موت إنسان.»

«هل كانت جماعة؟»

قال ريو إنها كانت، لكن بالتاسار في تلك الليلة لن ينطلق نحو اليوتوبيا أو أية جماعة أخرى دون أن يقف أولاً من أجل هذه المحادثة الصريحة مع شخص كان يحترمه. عزلته في السهول، التي تتوجت بوفاة خوسيه أنطونيو بستوس والاستراحة الأخيرة مع أخته سابينا، عزلة الشهور التي قضاها مع رجال العصابات في إنكسيفي، حيث عطلت الأخوة قرار ميغيل لانزا: *حتى الرجل الأخير*. يمكن أن نموت هنا جميعاً، لكن لا أحد يغادر. عزلة المسافة والزمن – خمسة أعوام مسبقاً – دون أن يشاهد دوريغو وفاريلا ويشعر أنهم عاشوا الأخوة المجنونة والقوية والمحبة لمقهى دي مالكوس. وكل هذا لم تعوضه الحفلة المسائية في قصر نائب الملك في ليما، دعوة شريرة ضمنياً من كاهنين شابين، أو اللامبالاة المطلقة لامرأة سمراء جميلة ومتألقة خضعت لإغواء رجل لم يكن يستحقها بالتأكيد. وفي النهاية، أغاظه غياب أوفيليا سلمنكا، كما فعلت الإشاعة السيئة التي أحاطت ذلك الغياب: الزنا، الرأي المسبق، القسوة، والطيش المتباهي.

قال بالتاسار فيما بعد لجوليان ريوس: «لقد اعتراني شعور بأنني كنت وحيداً تماماً أثناء تلك السنوات الماضية، أما الآن فقد فقدت نفسي، لتوي، في بشر آخرين. لا أشعر أنني حر بأية طريقة، أو وحيد أو مع الآخرين. أريد المجتمع أو لن أشتاق إليه، ولكن حين أكون في المجتمع، أشعر بأنني مريض. أرى المشاهد كريهة مثل ذلك المشهد الذي رأيناه الليلة.»

قال جوليان ريوس: «ذلك لأنك تريد أن تغير المجتمع، لكن رغبات كهذه مكلفة جداً. لن تشعر بأنك حر إلا إذا كان المجتمع الذي تريد أن تغيره كاملاً بحيث لم يعد بحاجة إليك.»

سأل بالتاسار بستوس إن كان يمتلك أية خيارات أخرى سوى أن يقاتل من أجل المستحيل أو أن يتكيف مع ما هو موجود مسبقاً. توسل إليه ريوس أن يقدم الآن ما قال إنه يبحث عنه وما كان يشترك فيه مع أصدقائه في بوينس آيرس: قليلاً من الإخلاص. من أجل من يمرون عبر كل هذه الصعاب؟ من كان القناة الفردية لكل هذا الألم المبرِّح ؟

وبينما كان يسير، بسرعة، بين صفصاف باك، مرتب دون تناسق، في ليلة انجلى ضبابها وزينت نجومها الباسيفيكية السماء الوحيدة في ليما، والتي هي سماء محجبة لا يصلها ضوء النهار، روى بالتاسار للمعلم ما حدث في ليلة أيار 24–25 في بوينس آيرس. تصاعد عار الشاب بينما صار ضحك المعلم أكثر ارتفاعاً، وبالتاسار، المرتاب، سقط في مصيدته الخاصة: جسده وكلماته وخطوته النشيطة بحيث أنه فقد كثيراً من وزنه في الحملة مع لانزا، كانت في تلك اللحظة أسوأ مصيدة، لأنها لم تترك له أية إيماءات، ولا استجابات جسدية مقنعة لتلك الضحكة، التي لا يمكن أن تكون مؤذية، مهما كان مصدرها، لكن التي، رغم كل شيء، كانت ذلك وحسب: كانت هناك صفعة في كل قهقهة، لدغة في كل ابتسامة.

«أيها المغفل المسكين الساذج! أنت لم تحرق بناء محكمة بوينس آيرس يا بالتاسار. الرعاع فعلوا ذلك. قرروا في تلك الليلة أن يدمروا الأرشيف الاستعماري وسجلات التمييز العنصري واستثناءات الملكية، كل شيء يا عزيزي بالتاسار دلت عليه الأغلال الورقية لهذه المستعمرة. وتذكر، لقد استعبدوا بالكلمات بقدر ما استعبدوا بالحديد الواشم. لم تقتل الطفل يا بالتاسار. إن شمعاتك الثلاثين لن تكفي لتشريف قديس!»

قال بالتاسار: «خمسة وعشرون. كانت في الخامسة والعشرين آنذاك، يجب أن تكون الآن في الثلاثين...»

«لقد عاشت هناك تماماً»، قال ريوس مستديراً ليشير إلى القصر من حيث وقفا، بجانب النافورة في ساحة مرسيداريان، منذهلين من الهياج والاندفاع – غير العاديين في الحادية عشرة ليلاً – عبر مداخل وأبواب ونوافذ المنزل الذي يشغله المركيز دي كابرا، الرئيس السابق لمجلس تشيلي الملكي وزوجته المختفية. شوهدت المشاعل من نافذة بعد أخرى، البغال والعربات كانت تقف خارج باب منزل العربات، ظهرت الأجسام، حمّلت ألبسة سوداء، توقف موكب من القندلفتات المنذهلين بينما كانوا يبحثون عن قسهم. أحضر القربان المقدس وحمل بوقار لائق، بدأت النساء المحجبات يظهرن، صغيرات في شباشبهن المسطحة، مكتسيات بالأردية واللفاعات.

«إن أبواب المنزل مفتوحة على مصاريعها يا بالتا...»

كانت أوفيليا سلمنكا قد تركت في غرفة نومها علبة من البودرة ومكشطة فضية كانت تستخدمها لتنظيف فمها. وتركت أيضاً كتابين مشهورين لصامويل تيسو، أحدهما عن حالات الفوضى التي تحل بالكتاب والكثيري الجلوس وعلاجهم (المشي، القرفة وشاي الشمار)، وكان الآخر يحمل عنواناً بسيطاً الجماع الناقص والجنون. وتركت أيضاً الشريطة الحمراء التي بلون الدم والتي راقبها وهي تضعها حول عنقها من الشرفة في ليلة أيار تلك في بوينس آيرس. اللون النحيل للدم كرمز للمقصلة. أنزل بالتاسار الشريطة في جيبه بحذر. نظر بنفور إلى السرير المزدوج وهزمته موجة طامية من الغيرة وهو يتخيل أوفيليا سلمنكا بين ذراعي زوجها المركيز، الذي، كان مكسواً بغطاء، ومحمولاً في مراسم متزامنة بشكل كامل، إلى نفس الفراش، الذي لم يستطع بالتاسار بستوس أن يطرد منه صورة الزوجين الجنسية. أوفيليا سلمنكا، ساقاها ممددتان، منفرجتان حول الهيكل العظمي لزوجها كابرا، ذكر الماعز العجوز، والشاة تفرك عضواً تخيله مدة خمسة أعوام منتفخاً وعميقاً، مشعراً لكنه شفاف. إنه عضو أوفيليا سلمنكا المخبأ، الرهباني، غير مرئي للحظة والظاهر في التالية، الناتئ، المرئي من أية زاوية، الذي يعاد إنتاجه بتناسق محموم خلف وأمام فخذي المرأة المشتهاة، التي امتلكها كابرا وآخرون لا يعرف لهم عدد؟

دفع بالتاسار بستوس وجوليان ريوس إلى زاوية غرفة النوم حين دخل الخدم الذين يحملون الشموع مع النادبين المستأجرين، القندلفتات، الكهنة الفضوليين والمرتبكين وخاصة الممثل الرئيسي: دون لوكاديو، المركيز دي كابرا، الذي مدد، ملفوفاً في كفنه، أكثر شحوباً من ميغيل لانزا، في السرير نفسه حيث استمتع بحب زوجته، أوفيليا. هل كان بالفعل ميتاً؟ أم كان يتظاهر بذلك؟ هل جاءته نوبة بعد المشهد المؤلم في حفلة نائب الملك أباسكال؟ لم يرد بالتاسار أن يكتشف ذلك. اقترب من رئيس الجنازة وهمس في أذن المركيز دي كابرا الميتة أو الحية: «أحب زوجتك. قتلت

ابنك حرقاً بالنار، ولن يكون لك آخر حياً أو ميتاً، لأنك فقدت في السنوات الخمس السابقة رجولتك ولست إلا فزاعة خرفة. سأتبع زوجتك إلى نهايات العالم وأجبرها على أن تحبني باسم العدالة لأنها يجب أن تحب رجلاً يحبها بعمق وسيفعل أي شيء من أجلها.»

ولم يهمه أن أذني المركيز دي كابرا كانتا مسدودتين بالشمع، إما ليحاكي الموت أو أنه ميت فعلاً، ولكن دمعتين من الكريستال، صلبتين كالفضة، أضافتا ثلماً آخر إلى الخدين المجعدين للرئيس السابق لمجلس تشيلي الملكي.

(3)

لا أحتاج إلا إلى بضع أوراق لأنهي هذا الفصل: إحداها وصية المركيز دي كابرا، التي تستحق الذكر لسببين: الأول، هو أنه قدم فيها مرتباً سنوياً ضخماً مدى الحياة للخادم التشولو الذي سيقف كل يوم في زاوية بيلون دل مولينا كيبرادو ويسمح بأن يرفسه أي كريبولي عابر. شرح زوج أوفيليا سلمنكا الحصيف أن ما قاده إلى هذا الأمر هو رغبته بأن يخفف من إحباط البيروفيين المجردين من العبيد.

السبب الثاني، شيء أكثر مرارة، أمر لا مبرر له، غير منتج وغير عملي: أمر المركيز دي كابرا الأرستقراطية الكولونيالية أن تنهب نفسها بحيث لا يجد المتمردون شيئاً.

لكن أين أولئك المتمردون في عام 1815. كانت جميع أنواع الأنباء تصل إلى بوينس آيرس، ومعظمها يسبب الإحباط. بوليفار منفي في جامايكا، وبدلاً من تجييش الجيوش، كان يكتب رسائل تشكو من بلداننا الطفلة بشكل دائم التي لا تقدر على أن تحكم نفسها، وعن المسافة بين مؤسساتنا الليبرالية وعاداتنا وشخصيتنا. في الجنوب، فشلت حملة بلغرانو إلى البيرو

العليا، ولم يمنع الاستعادة الكاملة للحكم الكولونيالي سوى مقاومة زعماء مثل ميغيل لانزا. هنا في بوينس آيرس، سقطت مديرية ألبار وسيطر مالكو العقارات، التجار والكهنة، على السلطة واضطهدوا الليبراليين، صادروا أملاكهم وحكموا عليهم بالنفي أو الموت. وجاءت الأنباء، الأكثر بعثاً للحزن، في نهاية العام من المكسيك: أسر الكاهن المتمرد موريلوس وحوكم وحكم عليه. رأسه المقطوع، كمثل قمر أسود،مثبت على رأس رمح في سان كريستوبال إيكاتيبك.

دوريغو، وأنا، فاريلا انسجمنا قدر ما نستطيع آملين قدوم أزمنة أفضل، جاعلين أعيننا مفتوحة، نقرأ الرسائل التي يرسلها صديقنا بالتاسار. أحياناً نرد على رسائله ولكن بما أننا لا نعرف أين هو، كنا نرسل الرسائل إلى مزرعة والده المتوفى آملين أنها ستصل إليه. علمنا أن لانزا حكم عليه بالموت بسبب فراره، ثبتنا ساعتينا، وكنا، في بعد الظهر، حين تهب رياح السهول، نقف أمام خرائط القارة ونتعقب الحركات الخيالية للجيوش غير الموجودة: حملات دائماً خطيرة ولكنها منتصرة في النهاية تشنها جيوش أميركية جنوبية مثالية ووهمية...

بهذه الطريقة، حولنا – دوريغو وأنا، فاريلا – التاريخ إلى حضور غيابٍ. أهذا اسم آخر للكمال المثالي؟

الفصل السادس

جيش الأنديز

(1)

«اسمه بالتاسار بستوس، أسرته تملك مزرعة – أناس معتدلون، لكن نصف متوحشين، كمثل جميع مالكي مرابي الماشية.» «لو كان والده تاجراً على الأقل. «أهو مشروع زواج جيد؟» «لكنه قاتل إلى جانب متمردي الجبل في البيرو العليا – متى أصبح ملكياً؟». «حين سعَّر ميغيل لانزا رأسه بسبب فراره.» «يقول إنه عاشق، جاء بحثاً عن تلك المرأة.» «هذا ليس مهماً، المهم هو الأنباء التي يحضرها من إنكسيفي وخوخوي.» «إنه منفتح جداً، نعرف كل شيء عنه.» «إنه لا يخفي عنا أي شيء.» «يعرف أننا سنسحق التمرد، وهو يقدم لنا بهذا خدمة.» «وبالتأكيد لا يبدو كرجل عصابات.» «يجب على سيادتكم ألا تحكموا من المظهر.» «ممتلئ، معطر، يرتدي الحرير، حسير...»

طاف في صالونات سانتياغو دي تشيلي كما طاف في صالونات ليما، لكنه لم يظهر بالمظهر نفسه وإنما تطابق مع المواصفات التي سجلتها السلطات العليا في تشيلي. أية جلبة سببها بالتاسار بستوس حول بحثه عن أوفيليا سلمنكا، التي هي الآن أرملة المركيز دي كابرا، الذي مات من الصفراء والسكتة الدماغية في ليما! الذي يجب أن ينوه أنه مات في سريره. هل كان ميتاً حين مددوه في سرير زوجته؟ أم هل مات هناك محولاً البروفة إلى واقع ومحاولة اللعب إلى عقاب إلهي؟

لقد استحق المركيز ذلك.ترك خلفه في تشيلي كثيراً من الذكريات السيئة عن قسوته وظلمه – اللذين قام بهما، بابتسامة ساخرة على شفتيه! لكن زوجته أوفيليا سلمنكا، لم تعد هنا، قيل إنها ذهبت باتجاه الشمال، هاربة من السقوط الوشيك لتشيلي، التي دافع عنها بشكل سيء، كما قالت قبل أن تغادر، أكثر القواد جبناً في ثلاثة قرون، فرانسيسكو كاسيميرو ماركو دل بونت، الذي حاول أن يعوض فقدانه للشجاعة العسكرية من خلال استثمار طاقة مفرطة في القمع ومحاكمة ولاء جميع الكريبيوليين دون استثناء، مصادراً أملاكهم وحارقاً منازلهم وأحياناً كان ينفيهم إلى جزيرة خوان فرنانديز.

بينما لا شيء من هذا عوض غباء ماركو دل بونت في ساحة المعركة، فقد نجح في جعل الحكم الإسباني موضوع كراهية عامة ورمى سكان سانتياغو وفلباريزو في حالة من الهستريا التامة. وكان هذا سبب هرب أوفيليا سلمنكا. لقد تغذت بالشكوك والخوف والتغيرات المفاجئة! والآن يبحث عنها هذا الشخص الحسير والسمين والذي جاء بمحض المصادفة إلى خوخوي والبيرو العليا ومندوزا ولديه أصدقاء في سلك الضباط المتمردين في الأرجنتين، الذين، رغم أنه حموه من حكم الموت الذي أصدره لانزا، فهم لا يثقون به.

على أي حال، كان سيف داموقليس يتدلى فوق رأسه، وبوضوح، لم يقصد الحرب، لكن لانزا طوعه، يبدو منرفزاً كأي شخص آخر، لا يريد إلا أن يعثر على أرملة المركيز دي كابرا ويخفف قلقه بتلويحات غاضبة من منديله وارتعاشات عصبية من رأسه، وكأنه كان يتوقع أنباء سيئة أو ضربة أسوأ في أية لحظة. يشكو من عدم العثور على مستحضراته التجميلية في تشيلي، هذه البلاد هي نهاية العالم! يتساءل ما الذي يفعله هنا إذا لم يكن يبحث عن أوفيليا سلمنكا إلى أن اقترح أحدهم عليه أن يشكل نادياً للذين حطمت قلوبهم الحسناء التشيلية، العدوة اللدود للاستقلال والمتمردين، التي قيل عنها، لكن ربما ليس الأمر إلا ثرثرة، إنها هي التي غرزت خنجراً في ظهر الكولونيل المتمرد مارتن إيتشاغوي لمنعه من المشاركة في معركة رانكاغوا،

وكانت تلك هزيمة للمتمردين أجبرت القائدين المسحوقين أوهيغينز وكـاريرا على الهرب إلى مندوزا في الجانب الآخر من الآنديز. من أين جاء إلينا هـذا الشاب المرتبك والمنرفز والذي بلا لحيـة ليخبرنـا أن هنـاك هجوماً وشيكاً للمتمردين، أن سان مارتن نشر جيوشاً يبلغ عددها أكثر مـن عشـرين ألـف رجل في وحدات تتنقل شمالاً وجنوباً على طول الأرجنتين الآندية استعداداً لهجوم عام على تشيلي، من أكونكاغوا إلى بالديبيا.

عاشت سانتياغو دي تشيلي في رعب في بداية صيف 1816 ولهـذا السبب بالضبط قرر سكانها الأربعـون ألفاً أن يصرفوا نقودهم حتى آخر سنت ويمتعوا أنفسهم إلى أن يموتوا. لكن طاحونة الشائعات، كما في ليمـا، اشتغلت بكامل طاقتها في الحمـلات المستمرة المتزامنـة، التي حاول بها المجتمع الملكي، الذي أصبح أكثر استنزافاً، أن يطهر خوفه من نصر المتمردين، وحاول عبثاً البحث عن حلفاء بين الكريبيوليين، الذيـن أرسلهم العنف القمعي لماركو دل بونـت إلى الوطنيين. نشروا سرياً صحيفة الأب كاميلو إنريكيث، *فجر تشيلي*، التي احتوت أنباء كـان يجب أن يفترض أنها كاذبة بما أنها جاءت من العدو المتمرد، إلا إذا كان المتمردون يخدعون أنفسهم. وكان الهدف مـن اللقـاءات الاجتماعيـة في العاصمـة التشيلية، في أثناء تلك الأشهر من الحرارة القمعية والدراق الذي يقشر قبل ثانيـة من تعفنه، هو جمع المعلومات، نشر جميع الشـائعات، وضع الرهانـات على مستقبل المستعمرة، والإصغاء لأي شخص يمتلك أقل ذرة من المعلومات.

سيقول بالتاسار بستوس، وهو يطوف باحتقار، في الحفلات التشيلية المسائية حاملاً كأسـاً صغيرة مـن الخمرة البيضـاء في يـده: «إن المتمرديـن مجانين. لقد ذهبوا جميعاً لنشر قـوات مـن أجـل هجـوم عـام علـى جبهـة ضخمة، سوف يقطعونكم جميعاً إلى أشلاء، لهذا ناموا جيداً الليلة. أنا؟ أنا لا أؤذي، أبحث عن امرأة معينة وحسب.»

أولئك الذين كانوا يصغـون لذلك الغنـدور – المزيـن كمحكمـة إنكليزيـة زخرفهـا (بـو برميـل) في ذلـك الوقـت، كمـا كـانوا سـيدعونه دون شـك –

تساءلوا إن كان شاب حسير، غندور وناعم، أعلن حبه يستطيع فعلاً أن يحب المرأة التي قال إنه يطاردها. لا، من المحتمل إنه لا يستطيع أن يحبها كثيراً إذا كان علنياً هكذا في ذكرها. ربما كان هذا مرض العصر وحسب: ترهقك العاطفة، لا تكون نفسك إلا إذا كنت حبك الرومانسي، والذي كان بالتأكيد كافياً، وإن كان مؤلماً، لبطل الداخل الذي ابتكره أمثال روسو وشاتوبريان.

«كل ما أطلبه من العالم هو أن يمنحني نقطة انطلاق: المرأة التي أحبها.» قال بستوس، بين تنهدات الفتيات التشيليات، الأكثر جمالاً في أميركا. لكنه سرعان ما بدد أوهامهن بإيماءة تعكس حسن سلوك وتوضيحاً: «ولكن لا أريدكن أن تفكرن أنني أرغب برفيقة. لا أحتاج إلا إلى – أتستطعن أيتها الفتيات الطاهرات أن تصغين إلي؟ – إنه موضوع حب، موضوع حبي.»

أدرن له ظهورهن. ربما فهمه ذلك الكاهن الشاب والأنيق الذي اقترب منه وقال إن كلمات بالتاسار تجعله يعتقد أن فيها شيئاً أكثر من طيشها الظاهر. إن الحب غير المكافئ هو أكثر أنواع الحب توتراً.

قال بالتاسار متذكراً ليلة أيار عنيفة في بوينس آيرس: «إذاً، قرأت أيضاً القديس يوحنا فم الذهب. ولكن لم تعد أهواؤنا السرية مهمة. النظام نفسه في خطر. لقد عشت مع رجال العصابات المجرمين. أعرف ما يقدرون على فعله للنساء وللكهنة من أمثالك... يجب أن نشنقهم قبل أن يشنقونا.»

قال الكاهن دون تفكير صافعاً بالتاسار على وجهه: «غندور.»

أجابه بستوس: «آه! رأيتك من بعيد في ليما، أعرف من أنت، فكن حريصاً»

فصل بينهما شاب ثالث، وهو ضابط ملكي وخزت ياقته المرتفعة والمطرزة خديه وآلمته وكسفت شاربيه الخديين الكثيفين المحمرين، والمعتنى بهما بحرص. قال الملازم أول الشاب إن هذا ليس وقتاً للمجادلات المثيرة ولزيادة التوتر العصبي للبشر. وضع الكاهن نفسه في خطر حقيقي مدافعاً

عن المتمردين، حتى ولو فعل ذلك بدافع الفضيلة المسيحية. يجب أن يكبح بستوس نفسه، مهما كان قابلاً للفهم أن يكون رجل سُعِّر رأسه منرفزاً. لكن متمردي إنكسيفي لم يصلوا بعد إلى سانتياغو. بوسعه أن يسترخي. «لا، أجاب بالتاسار، لم يصلوا لكن سان مارتن وصل.» إن الجيش الذي جمعه في الأرجنتين سيهاجمنا من جميع الجهات، ولن تكفي المؤن...»

أمره الملازم أول ذو الشاربين الخديين القصيرين أن يصمت. كان يبذر الفوضى ويثير التوتر. سيهاجم سان مارتن من الجنوب، حيث عبور الجبال أكثر سهولة. من الذي سيجازف بعبور أعلى القمم؟ لم يسبق لأحد أن سيَّر جيشاً عبر وادي أكونكاغوا. يبلغ ارتفاعه أربعة أميال. في الحقيقة، سان مارتن نفسه رتب اجتماعاً عظيماً مع زعماء بيتشينتشه ليحصل على أذن لعبور الأراضي المنبسطة. سيفاجئنا، نحن الإسبان، في بلانتشون ويحرر الهنود.

«إن قوات كافية لصد أي غزو للمتمردين هي في طريقها الآن إلى بلانتشون»، قال الملازم أول المغرور معلقاً باهماً فوق حزامه العريض بينما داعب بيده الأخرى الأصابع الناعمة لقفازه الأبيض كالثلج والخاص بالعرض.

ضحك بالتاسار بستوس قائلاً: «هل تصدق فعلاً كلمة واحدة مما يقوله لك أولئك الهنود الكاذبون؟»

قال الملازم أول ذو الشاربين الخديين: «كل شيء يوحي أنهم خانوا سان مارتن.»

ألح بالتاسار لاعباً على توقعات المجموعة الصغيرة التي اجتمعت لتستمع إليهم: «تماماً كما خانونا نحن الملكيين. لا أحد يعرف بماذا يفكر بعد الآن.»

أضاف الكاهن الشاب وكأنه يريد أن يمحو فوراً وفي المكان نفسه أي انطباع سيء يمكن أن يكون قد سببه ولكي يشوش المناقشة أكثر من ذلك. «علينا، فعلاً أن نحذر الكهنة الذين أسكرتهم قراءة الكتب الفرنسية. نمتلك قوة الاعتراف وتأثيراً في ضمير العسكر والبيروقراطيين وربات المنازل...

أعرف أن الكهنة غير المخلصين يتكاثرون في تشـيلي ولا يتخلـون أبـداً عـن عملهم في إفساد كل شيء.»

قال كابتن قصير شاحب وهو يرتب مقدمـة قميصه الـذي بلـون الكريـم بإيماءة كذبت حقده: «لقد زرع أولئـك الكهنـة المفتنـون الشـقاق في أسـرتي وحرضوا الأبناء على الآباء. لا أقدر أن أسامحهم على هذا أبداً.»

قال الملازم أول ذو الشعر الأحمر بنشاط: «لا أعرف شيئاً عن هـذا. كـل ما أعرفه هو أنه ليس هناك معبر جبلي واحد لم نضـع فيـه قـوات جـاهزة لصد سان مارتن أينما بحث في الآنديز.»

«أتعلم أن محبوبتك أوفيليا سلمنكا قتلت النقيب إيتشـاغوي في الفـراش بينما كانا يزنيان؟»، قال الكاهن الشاب لبالتاسـار، بنـبرة غامضـة ومغويـة وتهديدية، ولكن بصوت مرتفع يكفي لكي تسمعه بمتعـة مفضوحـة فتيـات الصيف، السيدات الأبديات الصغيرات لمجتمع سانتياغو.

(2)

تجـاهل بالتاسـار ذلـك الشـكل الكوميـدي الأعمـى والمشـوش الذكـاء في حفلات المستعمرة التشيلية التي في حالة كسوف بحيث أنه يجب ألا يدهشه أن البشر انتبهوا إليـه أكـثر ممـا انتبـه إليهـم. وتبعـت الحفـلات المسـائية بعضها بعضاً كسلسلة من الوداعات المطوّلة التي تمتد من صالونات المجلس الملكي إلى المنازل الريفية الجميلة شرق المدينة، عبر صور السقف الباروكية المنحوتة، الحديد المزخرف، والمداخل الضخمة لمنزل فاليسكو في مركز المدينة.

ولكي يشرف ذكرى أوفيليا سلمنكا قام بالتاسار بعرض كبير مكـثراً مـن التردد، كروح تتعذب، إلى غرف المجلس الملكي الـذي ترأسـه المركـيز دي كابرا قبل أن يرسل إلى بوينس آيرس. كان بناء جديداً أنهـي في 1808 فيـه عشرون نافذة مـن الحديـد المسـبوك في الطـابق الثـاني، وثمـة شـرفات مـن الحديد المزخرف في الثالث، وسلسلة مـن الأفنيـة والصـالات الـتي ذكـرت

بطلنا (وهذا ما هو أنت يا بالتاسار) بالمحكمة العليا الفسيحة لريفر بليت حيث حددت حياته طول الزمن.

ويدين بناء سانتياغو بوجوده إلى حاكم وصل معلناً التزامه الراسخ بزرع ثقافة التنوير في مستعمرة إسبانيا الجنوبية الأكثر بعداً. أخذ لويس مونث دي كوثمان أفكار تشارلز الثالث في التحديث على محمل الجد ونزل في ميناء فلباريزو حاملاً أدوات وقطعاً موسيقية باروكية، وربما بعض الكتب الممنوعة، وبدون شك، مسرحيات مُثلّت، حالاً، في نفس الأفنية والصالونات برعاية زوجته دونا لويزا دي إستيرريبا.

لا شيء في ذلك الأصيل الصيفي كان سيمنع بالتاسار بستوس من حضور المسرحية التي تقدم في أحد المنازل، والمستندة إلى كتاب جان جاك روسو اكتشاف أميركا، عدا أنه في الساعة نفسها، وفي كل بعد ظهر، منذ أن وصل إلى سانتياغو، كان يخرج إلى شرفة المنزل، والذي هو منزل لصديق قديم لوالده، إسباني جمع ثروته في العالم الجديد وتخلى عنها ليعود إلى إسبانيا. سيرى، من ذلك الموقع، مشهداً في الحديقة المجاورة.

حوالي الخامسة بعد الظهر، كانت تظهر فتاة بين أشجار الزيتون واللوز، جميع ثيابها بيضاء، وبدت كأنها تطوف في غيمة خاصة من القطن الناعم والصدار الشفاف. كان بالتاسار ينتظر ظهور هذا الشبح: كانت دائماً تأتي في موعدها ودائماً بعيدة، كنجم جديد، نصف شمس ونصف قمر، تعرض نفسها له وحده، مقدمة له نفسها في مدار رقيق لقمر صناعي حول نجم حقيقي – هو. وحين يقترب، كانت الفتاة المتعة تدور بين أشجار اللوز وتزيد من اقترابها وتدور بقدميها الحافيتين دائماً في رقصة أراد بالتاسار أن يعتقد أنها مهداة إليه – في النهاية، لم يكن هناك مشاهدون آخرون سوى الشمس والقمر اللذين يتعايشان، في تلك الساعة، في السماء الآندية.

لم ينظر إليهما بالتاسار إلا مرة واحدة، الشمس والقمر حاضران في الساعة الخامسة بعد الظهر فوق حديقة نباتات حكيمة وهادئة. لا يستطيعان أن يتنافسا معها. كانت هي الشمس والقمر وأشياء أخرى كثيرة أيضاً.

شمس رائعة، حارة ومداعبة كاليد المألوفة لأم تعرف أنه مسلم بهـا، أم يمكن أن تعي أنها غير محبوبة، ولكنها أيضاً شمس شريرة علـى وشـك أن تعدم النهار قاذفة به في حريق هائل، لن يخرج منه مطلقاً: كـانت الشمس زوجة أب الزمن.

وظهر قمر شرير كأنه يريد أن يختم قدر النهار بقفل فضي، قمر أبيـض يخلو من الحياة بوجه مصاص دماء، قمر غير دموي جائع للتفريغات دموية وقمامية، لكنه أيضاً قمـر خـيِّر، سرير النهـار يستريح في أغطيـة بيضـاء، الحمام الأخير الذي يزيل أوساخ النهار ويغرقنـا في إعـادة الخلـق الغرامية للزمن الذي هو النوم.

كان بالتاسار بستوس يراقب من شرفته، كل أصيل، إلى أن أصبح قادراً على تمييز وجه، الوجه اللامألوف للقمر، المباغت، الفردي، الذي يحـدده حاجبان سيكونان في امرأة أخرى كريهين. كانا مضمومين إلى بعضهمـا دون فاصل، كعضو ثان على وشك أن يلتهم عينيها. ظهر أنفها المترفع وشـفتاها الحمراوان وتعبيرها الذي ينم عن ازدراء، ازدراء عذب بـدأ يُفقد بالتاسار صوابه ويبعده عن هوسه بأوفيليا سلمنكا.

كانت تلك الفتاة تقترب شيئاً فشيئاً، كل بعد ظهر، طـوال الأسبوع — هذه الفتاة الهائلة الجمال والتي، على ما يبدو تجـاوزت الثمانيـة عشـرة — إلى أن ظهرت عبر سلسلة أقـواس المنزل المجـاور. ربمـا شـاهدته، لأنهـا أغاظته بغنجها، وكانت تظهر ثم تختفي وراء الأعمـدة في الممـرات الطويلـة قبل أن تختفي حتى اليوم التالي.

لكن في بعد الظهر هذا لم تكن هناك.

شعر بالتاسار برغبة حارقة بأن يقفـز فـوق الحـائط ويعانقهـا ويقبـل في البداية شفتيها الحمراوين ثم حاجبيها المثيرين كالمخمل، المضمومين كسـوط مقدس، الواعدين بالشبق والإرهاب. كانت شمساً وقمراً لكنها لم تكن هنـاك في ذلك الأصيل.

في ذلك الأصيل وحسب. لماذا؟ ما الذي أوقف تلك الشعيرة التي اعتبرت الآن مقدسة وأساسية لحياته الرومانسية؟ مرة أخرى لاحظ وقال – حين وصف لنا تلك الحادثة – إن عواطفه اعتمدت على المسافة، على الغياب، على توتر الرغبة المتجلية لامرأة لم يستطع أن يلمسها، شاهدها من بعيد، التي هي الآن، مثل أوفيليا سلمنكا، اختفت دون أن تأتي إلى الموعد، ليس معه، بل مع الشمس والقمر.

عندئذ تناول بالتاسار بستوس قبعته، جرى خارج المنزل دون أن يلاحظ الفراسخ العشرة التي فصلته عن المنزل الأحمر الذي كانت تمثل في فنائه المهيب مأساة روسو القصيرة. ركض على طول كاييه دل ري، اندفع عبر المدخل المهيب، ورآها ترقص وسط الفناء محاطة بكورس، بالإسبان والهنود، هي نفسها تؤدي دور عذراء إسبانية مجازية. كانت تغني وتقرأ في الوقت نفسه: *لنجذف، لنعبر البحار. متعنا ستحظى بوقتها لأن اكتشاف عوالم جديدة يعني تقديم أزهار جديدة للحب...*

رفعت ذراعيها، وكشفت شفافية صدارها حبتي كرز طازجتين، قابلتين للتقبيل، تؤديان رقصة رباعية مرحة وقصيرة على صدرها.

قال الكاهن الأنيق لبالتاسار حين صفق المشاهدون وانحنى الممثلون وشكروهم: «إنها ليست جهد جان جاك روسو الأفضل. أفضّل نرسيس، أو هو الذي يحب نفسه، حيث يمتلك روسو الجرأة ليستهل الحوار بامرأتين تتحدثان عن رجل، هو شقيق إحداهن، والذي هو بسبب تفنن وتكلف ملابسه، امرأة متنكرة بملابس الرجل. علاوة على ذلك، إن مظهره الأنثوي يعيده إلى حالته الطبيعية بدلاً من أن يكون قناعاً له.»

قال بالتاسار متظاهراً فوراً بالتكلف المضجر والقاسي: «هل تقول لي إن هذه الفتاة المدهشة هي في الحقيقة رجل متنكر؟»

ضحك الكاهن قائلاً: «لا، اسمها غابرييلا كو، ووظيفة والدها، التي هي مهمة لا تنتهي ومعقدة كالمتاهة، هي أن يبيع ممتلكات اليسوعيين الريفية في تشيلي لصالح التاج. إن ابنته ليست أقل تحرراً من روسو نفسه،

وتقرأ بشراهة مؤلفي العصر ولها محادثات حميمة مع الطبيعة. اسمح لي أن أقدمك يا بستوس.»

سأله بالتاسار وقد خاب أمله بوضوح: «هل تريد أن تقول لي إنها كانت تؤدي بروفات في كل فترات الأصيل تلك من أجل دورها؟»

«المعذرة؟»

قبل دعوة أن يلتقي بها اجتماعياً، ولكن شرط أن لا يعرف أحد أبداً أنه في كل بعد ظهر في الخامسة، طول الفترة التي سيمضيها في تشيلي، سيراها تظهر ضبابية ومثيرة للرغبة دائماً في الحديقة المجاورة لمنزله. كان خائفاً من أنه يمكن أن تكون قد قابلته سابقاً في إحدى حفلات سانتياغو الحاشدة وأنها ستحتقره، كما فعلت الفتيات الأخريات، اللواتي كن، بالإضافة إلى ذلك، يعين تماماً هوسه بالمركيزة المتلاشية دي كابرا. كان على وشك أن يرفض التعريف وأن يقترح مجرد علاقة من خلال الرسائل، كتلك التي في الرواية التي سببت غضباً في العالم الجديد، من مكسيكو إلى بوينس آيرس: **هليوس الجديدة**

لكن أموراً ثلاثة حدثت، أموراً ثلاثة يمكن التنبؤ بها لكنها غير متوقعة. حسير وغندور، ممتلئ وليس جذاباً جداً، دخل بالتاسار في واحد من عدد لا ينتهي من أحاديث العشاء التي لا تحصى مع السيدة الجالسة قربه إلى الطاولة. كان حديثهما يجري جيداً حين أدرك بالتاسار أنه يؤدي دوراً رومانتيكياً تعلمه بشكل تام ويؤديه في هذه المناسبات الاجتماعية. لكن هذا الدور كان، في الوقت نفسه، أصيلاً بشكل كامل، لأن كل ما قاله تواشج مع قناعة حميمة، حتى لو لم يكن تعبيرها الكلامي موفقاً بشكل خاص. كان هذا الطلاق، في وقت واحد، زواج كلماته. كررها مرة بعد أخرى بمزيج من اللامبالاة والشغف منذ زيارته إلى ليما، ليبحث عن أوفيليا سلمنكا وملمحاً أنه بعد أن حكم عليه بالموت قائد رجال العصابات المتوحش ميغيل لانزا، كان عليه أن يتعاطف مع التاج، في النهاية لن يمنحه المتمردون حماية من أي نوع.

لم يستطع أن يغير خطابه في تلك الليلة، كان أصيلاً ومزيفاً في آن. لكنه وجهه إليها، منذ أن اكتشف في منتصف العشاء أنه كان يتحدث إلى غابرييلا كو. منح وجهاً لذلك الوجه، حاجبين لذلك المحيا، عطراً لذلك الجسد، والآن لا يستطيع أن يوقف تدفق كلماته، التي تميل كعربة على منحدر الجبل. وفي كل مرة كانت تجيبه بطريقة مهذبة لكن قاطعة، ذكية، صارمة، وتدل حتى على التسلية. هل كانت تضحك عليه كما فعلت تقريباً معظم الفتيات التشيليات اللواتي كن من الجمال والذكاء بحيث لم يأخذنه على محمل الجد؟ وألم يكن ذلك هو ما رغب فيه بالضبط: أن يترك حراً في ملاحقة شغفه الحقيقي، البحث عن أوفيليا؟

«كلما اقتربت من امرأة مثلك أشعر برغبة أن أنتقم من ألمي وخطيئتي من خلالك.»

«لا تقل ذلك.»

«أنت فقط من يستطيع أن يقتل الولع في داخلي.»

«سيكون هذا متعة.»

«أعني اعملي معي معروفاً وسرعي عذابي النفسي.»

«مع من تتحدث يا سيد بستوس؟»

«أقول لك إن روحي تريد أن تنتعش أو تموت وحسب، أيتها السيدة كريمة المحتد.»

«لكنني أعرف كيف أعالج لا كيف أقتل.»

قال بالتاسار خافضاً صوته: «حاولي أن تكوني امرأة أخرى ولن أحاول أن أغريك.»

أجابت بنفس النبرة المنخفضة قبل أن تضحك: «لا أريد أن أكون امرأة أخرى ولا أريد أن يغويني أحد مثلك. كن أكثر تعقلاً يا سيد بستوس.»

كان الشيء الثاني الذي حدث هو أنها كانت تعيد الظهور كل أصيل في الخامسة بعيدة في حديقتها. كانت تقترب تدريجياً، كأنها توحي بأنها

ستقترب، وتسمح لنفسها بأن تكون مرغوبة، وتسمح له أن يجعلها له أكثر فأكثر، أولاً في عينيه ورغبته وربما يوماً ما من خلال الملكية. حركات الرقصة، حالات الوهن المتزايدة، العري المتزايد لذلك الجسد النحيل الطفلي تقريباً، المحكوم بقناع والذي إرادته فم أحمر كجرح وحاجبان سوداوان كسوط، هجت اسمها: غابرييلا، غابرييلا كو، المرغوبة، المثيرة للرغبة، الواعدة، الموعودة، الواثقة أنها لن تخدع عشيقها، إذا أراد أن يكون عشيقها، إذا منح نفسه لها، بعيدة وصالحة للزواج في حديقتها، كما منح نفسه لأوفيليا سلمنكا، الأرملة البعيدة، الأم التي أنجبت مرتين الطفل نفسه، أي أنجبت الحياة والموت، امرأة تحمل عبء المعاناة والشائعات والقسوة المرجحة والخيانات المتخيلة. كان جسد غابرييلا كو الراقص يسأله أن يختار لكنه لم يقل له: أنا أفضل من الآخر. لكنه قال فقط: «أنا مختلف، وينبغي أن تقبلني كما أنا.»

يجب أن يكون الأمر هكذا، كان بالتاسار يقول لنفسه كل بعد ظهر، لأنها لم تعد تتدرب من أجل مسرحية روسو، التي قدمت مرة واحدة وحسب في فناء المنزل المهيب البرتغالي الطراز في كاييه ديل ري. لم تعد. الآن الأداء له وحده. كانت سيدته الصغيرة – قرر أن يمنحها هذا الاسم، تماماً كما سميناه أخانا الأصغر.

ذات أصيل التقى الأخ الصغير والسيدة الصغيرة دون أن يحددا وقتاً. قفز من فوق السور المنخفض الذي يفصل البناءين بينما كانت تخرج من مدخل منزلها. لم يستسلم أحد، لكن كلاهما قدم كل شيء. شرحت له أن سلوكها في تلك الليلة لم يكن الفعل الطفولي لفتاة مدللة تحاول أن تقدم المتعة في مجتمع مهذب. أرادت فعلاً أن تكون ممثلة، وهي تؤمن بالاستقلال – لا السياسي وحسب وإنما أيضاً الشخصي. ذهب الاثنان معاً، على الأقل هذا ما آمنت به. هنا في تشيلي، في أجزاء أخرى من العالم الجديد، حتى في أوروبا، ستواصل مهنتها. قالت غابرييلا كو إنها تحب الكلمات، تمتلك كل كلمة حياتها الخاصة، وتتطلب العناية نفسها التي

يتطلبها طفل حديث الولادة. حين فتحت فمها، كما فعلت في تلك الليلة، وكررت كلمات: حب، متعة، عالم، بحر، كان عليها أن تتولى مسؤولية تلك الكلمة كأم، كراعية، كعشيقة، نعم، حتى مثل سيدة صغيرة، مقتنعة أنه، دونها، دون فمها، ولسانها، ستتحطم الكلمة على حائط الصمت وتموت مهجورة.

لكن أن تتولى مسؤولية كلمات ليست لها، كلمات روسو ورويث دي ألاركون أو سوفوكليس، عليها أن تجهز نفسها فترة طويلة. لن تمنح أي شيء لرجل إلا إذا منحها أولاً الكلمات. بالنسبة إليها كان الحب مهنة قوية كالمسرح، لكن الكلمات أيضاً تغذي الحب. كل هذا كان صعباً جداً، ومحزناً قليلاً، – وضعت غابرييلا كو ذراعها حول بالتاسار وداعبت خصلات شعره – لأن عملها كان مجرد ظل هارب لم يترك علامة: الكلمات، الأشياء المسكينة، التي سبقته، بقيت، وستكون حتى بدونها. من أجل أن تمنح معنى لحياتها التي هي أصوات طيفية، بأي شيء تستطيع غابرييلا أن تفكر عدا ذلك، وبفضل فمها لم تمت الكلمات لكنها اكتسبت بالفعل اليسير من الحياة، جسداً، كرامة، ولا أحد يعرف ماذا أيضاً.

بحثت عن قفا عنق بالتاسار تحت شعره المجعد وسألته إن كان قد فهمها. قال إنه فهمها: كان يعرف أنها فهمته بشكل مساو أيضاً. عرفت أنه أحبها ولماذا تصرف وتحدث بتلك الطريقة أثناء عشاءات سانتياغو التي ذهب إليها دائماً ولماذا سينفصلان حالاً.

«قل لي ليس من أجل تلك المرأة الأخرى.» هكذا ارتكبت غابرييلا كو زلتها الأولى، القابلة للشرح بأي حال، وغفر لها لكنه قرر في تلك اللحظة أن يفصلها عن حياته، أن يمنحها الحرية التي تحتاجها وأن يمنح نفسه للعبودية التي يستلزمها هوسه بأوفيليا إلى أن يحقق حبه. وفي هذه اللحظة، لا يستطيع أن يرى طريقة أخرى ليكون مخلصاً لهذه الفتاة التي تعبد، غابرييلا، غابرييلا كو، حبيبتي، حبيبتي الصغيرة المعبودة، غابرييلا الممتعة، قد لا نعرف أبداً قلبينا بصدق، أيتها السيدة الصغيرة.

وهكذا رغب بالقبلة الوحيدة التي تبادلها هو وغابرييلا. كانت رؤيته لذلك الفعل متوترة، وكانت شفتا الفتاة حمراوين جداً حين أطبقتا على شفتيه. انفصل الفمان وانضم اللسانان وانفصلا ليدغدغا الحنك ويحصيا أسنانه الشرهة والقاسية والرقيقة، التي بزغ منها فم آخر، قبلة أخرى، قبلة سرقت قبلتهما ونفتها، أخذتها منهما وحولتها إلى قبلة وفم وصوت أوفيليا سلمنكا.

وكان هذا هو الشيء الثالث الذي حصل.

وعد نفسه ألا يفكر بغابرييلا إلى أن يقدر أن يكون لها وحدها.

(3)

مندوزا، عاصمة الإقليم الأرجنتيني لكويو التي تواجه سانتياغو ويفصلها عنها متراس الآنديز، كانت المركز الثوري للأميركيتين. جحدت أوديتها العذبة المليئة بالكرمة وأشجار الكرز، كذلك الربيع الأبدي لنسائمها الدافئة وخلفيتها المكللة بالثلج، أراضيها المغطاة بأشجار كمثرى ذهبية وتربة خصبة. منحت مندوزا لتطرف الحساب البارد والضجيج الجهنمي بسبب نشاطات جيش الآنديز الذي كان يتشكل رغم كل اللامبالاة وضد جميع العوائق.

في البدء لم يكن هناك شيء. انطلق سان مارتن محولاً ذلك اللاشيء إلى تموين حربي. أمر بالمساهمات، انتزع المال من الجميع، أزعج الرئيس بويريدون حتى أخبله، اغتصب سيدات مندوزا ليتبرع بمجوهراتهن في المجلس البلدي، حرم الترف، وخفض رواتب الضباط إلى النصف. عن ظهر حصان، ليس أطول من الجنرال المحرر نفسه، وهو يجلس كالسهم استقامة – كان قد شارف لتوه السابعة والثلاثين، لكنه كان يظهر نضجاً أولياً لم يطفئ بشكل كامل التلألؤ المحجب في عينيه أو التصميم العنيد في فمه – أعلن:

«يجب أن تتعرق كيويو نقوداً من أجل تحرير أميركا، من هذا اليوم فصاعداً، كل واحد منا يجب أن يحرس حياته.»

لم يكن المدير الأعلى لمجلس بوينس آيرس السياسي بويريدون يشاء أن يكون مناصراً لسان مارتن لا في الإرادة ولا في الحماسة في عمل فذ قورن في بوينس آيرس بعمل هانيبال، قيصر ونابليون. كتب بويريدون:

«نرسل إليك من بوينس آيرس صناديق شحن وبزات وقمصاناً. نرسل إليك ألفين من السيوف المضلعة المكملة ومائتي خيمة ميدان. نرسل إليك في علبة صغيرة البوقين الوحيدين اللذين استطعنا العثور عليهما. وهذا يكفي. نرسل العالم. نرسل اللحم. نرسل الشيطان. لا أعرف كيف سأتملص من العقود التي وقعتها لأدفع مقابل كل هذا. اللعنة! لا تطلب مني أي شيء آخر!»

وتعرقت كيويو، جفت مندوزا، وعصرت أجراس الكنيسة والكرمة للحصول على بنادق صغيرة وهركوبات (أسلحة نارية قديمة) قربينات ورماح ثلاثية وسيوف ضالعة، ومسدسات ويطقانات، تلك السيوف التركية المخيفة ذات المقابض الفضية.

وكان الراىد دي لا بلاتا يعمل قائداً بحرياً مسؤولاً عن المواد التموينية والأسلحة، وألباريث كونداركو كيميائي توكومان يمزج النترات ليصنع أنواعاً مختلفة من البارود. وكان الأخ لوي دي بلتران الذي يرتدي درعه يثبت رداءه على خصره وهو يوزع المدافع والقذائف، بينما كان جاره تيخادا يتعرق فوق راقوداته ويصبغ الملابس باللون الأزرق ليصنع بزات جديدة. حتى أكثر الحرفيين تواضعاً، كانوا يسهمون بشيء من أجل الحملة، حتى ولو كان رمحاً مصنوعاً من القصب، حتى أفقر تاجر جلود حمير كان يسلم حيواناته، كما كان الأطباء يرسلون أدويتهم إلى المستشفى الذي أسسه الدكتور زاباتا. وإذا لم تأت التبرعات طوعياً فإن رجال سان مارتن ينتزعون بالقوة البطانيات والشراشف من الأسرة المشغولة أو الفارغة لأولئك الذين يعيشون في الجوار. «ليس هناك منزل لا يستطيع أن يقدم شرشفاً عتيقاً»، صرخ قراصنة الحرية هؤلاء معلنين أنفسهم شحاذين بدلاً من لصوص. «حين يفشل كل شيء، سنستجدي جميعاً.»

لكن كل هذا النشاط والفوران، الرنـين والغنـاء والرقـص، المطـارق الـتي تسحق الحديد المحمر من النار،الصهيل، والدوي تحول إلى صمت شاسع، حين، عند حلـول الغسـق، في يـوم كـانون الأول هـذا دخـل ثلاثـة خيالـة معسكر الجنرال خوسيه سان مارتن في مندوزا. ثلاثة خيالة يندفعون بسرعة غير قادرين على كبـح جمـاح الخيـول. كـانوا ينخسـون الخيـول بالمهـاميز لتسرع وتقفز وتتجنب العوائق حول مستودعات الأسلحة، مـأوى التمويـن، والطواحـين، إلى أن دخلـت الخيـول الثلاثـة إلى الزريبـة والإسـطبل الـذي يحوي ثلاثة آلاف حصان، البغال السبعة آلاف، والأبقار المحتشـدة الـتي تشكل المخزون المتقدم لجيش الآنديز.

ترجـل الأصدقـاء الثلاثـة، وهـم يضحكـون ويصيحـون، ويتعـانقون، ويهنئـون بعضهـم بعضـاً علـى الصداقـة الـتي جمعتهـم، ولأنهـم وصلـوا، وأحضروا الأنباء، وقبل كـل شـيء، من أجـل رفقتهـم الرجوليـة، صداقـة الخمسة وعشرين عاماً، النجاح في عبور الآنديز على ظهـور الأحصنـة ومـن سانتياغو بسرعة بحيث كانوا رسلهم الخاصين:

الكاهن فرانسيسكو أرياس، الأنيق والـورع، الـذي يبلـغ عمـره عشـرين عاماً وكرس وقته للقراءات المتحمسة ولتلك الحالات الحسية الـتي يعتبرهـا جديرة بإيمانه الشامل وذكائه النبيل.

الملازم أول خوان دي إينتشاغوي، شجاع ومندفع، بعذاره المحمر والذي يظهر ممشطاً إلى كرة أو متشابكاً بالتراب.

والبطل الشاب بالتاسار، حسير بشكل يدعو لليأس ولكنه ممتلئ بشـكل عنيد. فقد بسبب غذاء من فطائر العسل، الكريمات وحلويات مصنوعة مـن مح البيض،والكعك،الصلابة الجسدية الـتي اكتسـبها في حملـة إنكسـيفي، نفذ الأمر ليعود إلى حالته الطبيعية، السمنة والنعومـة باديتـان عليـه،ولقـد فقد كبرياء رجولتـه النحيلـة ليخـدم القضيـة الـتي عـاهد ثلاثتهـم أنفسـهم عليها، حتى ولو توجب عليهم الرقص مع أبشع الشركاء: الخداع.

«أرياس وبستوس سـينضمان إلى إينتشـاغوي في تشـيلي. البـلاد متلهفـة. رغم هزيمة رانكاغوا، لم تنهزم روح التمرد. النقيب ضابط فاشل ومتوحـش.

وسانتياغو هي مركز كل هذا الانفعال والهياج. صادقوا الجميع، انشروا شائعات كاذبة. ناقضوا بعضكم بعضاً. شوشوا أي شخص يريد انتصار لإسبان. أغروا أي شخص يستطيع أن يخدم قضيتنا. لا تتركوا حقيقة واحدة دون أسئلة، اخلقوا كوناً من الشك والفوضى والتناقض والشائعات والأنباء الكاذبة... ولا تعتقدوا أنكم أبطال. لستم إلا جزءاً من جيش من لجواسيس والجواسيس المضادين مبعثرين في كل أنحاء تشيلي. انشروا معلومات مضللة لكن اعرفوا لنا الحقيقة. اعرفوا عدد قواتهم ومواقعهم وتموينهم وتحركاتهم وخططهم. ولكن، قبل كل شيء، اجعلوهم يعتقدون بأننا سنهاجم من جميع الجهات، على طول الخط من أكونكاغوا إلى بالديبيا.»

هذا ما طلبه الجنرال سان مارتن من ثلاثتهم أن يفعلوه وهذا ما أنجزوه. لآن يريد بالتاسار أن يأكل شرائح لحم البقر، وشعر إيتشاغوي بأنه انتقم لموت عمه الذي حدث، كما قالت الشائعة، بين ذراعي أوفيليا سلمنكا، زوجة المركيز ذي القرنين، والأب أرياس كان ينظر إلى صديقيه بعينيه لجميلتين الواهنتين والغامضتين اللتين أغرتا النساء والرجال وجعلتا لجميع يشعرون أن هذا الكاهن الشاب يستطيع أن يفعل ما يشاء. كان واضحاً أن الله نفسه شاء ذلك وجسد مشيئته المقدسة في هذا الكائن لحساس والقوي والرقيق الجاهز دائماً للصفح لكن الميال للغضب، هذا لرسول الشاب لله والمسيح.

ساروا متشابكي الأذرع بعيداً عن الإسطبلات حيث ترجلوا يرافقهم بعض سكان المعسكر الذين بدأت ضجتهم المعتادة تملأ بعد الظهر مرة أخرى بعد مقاطعة عدو خيول الأصدقاء.

أغرقت أصوات الإوز والدجاج والخنازير، والبط صوت المطارق والصهيل بشكل ساحر. ونظر أرياس إلى بستوس وإيتشاغوي. لو فقط كان صحيحاً أن بالتاسار ابتكر – كانت ضربة عبقرية – حجة الجميلة أوفيليا ليبرر مروره في تشيلي، لو فقط أنه لم يعرفها أو يحبها. لو فقط أن إيتشاغوي لم

يعتقد أبداً أن رفيقه يحب المرأة التي قتلت عمه. لو تستمر أعجوبة الحيـاة هذه، وحدة الأصدقاء الشبان الثلاثة، الذين لم يفصلهم أي شـيء، وتتـلألأ بشكل طويل قدر الامكان، قبل أن تنتصر الانقسامات المحتومة. حين سأله صديقاه ما الذي كان يفعله قال أريـاس إنـه كـان يصلـي بطريقتـه الخاصـة مستخدماً كلمة أوخالا – مشيئة الله – ذات الأصل العربي الخالص. ثم تناولوا الطعام وشربوا سوية، رووا النكات، استرجعوا ذكريات عن الأسرة والسيدات الصديقات، تذكروا مزحات من أيام الطفولة وأحبوا بعضهم بعضاً كالأطفال.

قال إيتشاغوي لبستوس: «لقد أحبتك تلك المرأة.»

سأله بالتاسار مستاء: «أية امرأة.»

لكن إيتشاغوي وأرياس تبادلا نظرة وصمتا. لقد أقسما أن لا يذكـرا أبـداً اسم غابرييلا كو.

(4)

قدم الثلاثة تقاريرهم إلى الجنرال سان مارتن بعد أن نظف رئـاتهم هـواء مندوزا، المدينة الأكثر أشجاراً في العالم، المدينة العذبة لأنها محمية بسقف من الأوراق المنسوجة مع بعضها كأصابع دائرة ضخمة لعشاق لا ينفصلون.

كان الكاهن يرتدي الملابس السوداء، رداء الغفارة الطويل، ولعينيه لـون إلهي.

حمل الملازم أول خوذته الجلدية بقضبانها الذهبية وكان يرتدي صدرية سماوية أزرارها مختومة بشعار الأرجنتين.

أعاد بالتاسار بستوس نظارته إلى علبتها الجلدية ووضع قبعته القماشـية السـماوية ذات القضيـب الذهبي الوحيـد تحـت ذراعـه. كـانوا ثالوثـاً مـن الأصدقاء الفخورين ينظرون إلى وجه بطل ويتساءلون عند أيـة نقطـة سـيغير القدر الشخصي لكل منهم الأحداث والحـرب أو الرجـال الآخريـن أو متـى تغيرهم أحداث كهذه أو رجال آخرون مثل سان مارتن. لكن البـاطل، كمـا

كتب روسو، يقيس الطبيعة وفقاً لضعفنا ويجعلنا نعتقد أن الصفات الـتي لا نمتلكها هي مجرد أوهام.

في الصالون العاري إلا من طاولة مثقلة بـالخرائط والسندات والنظـارات المكبرة وأختـام الوثـائق قـرر الجـنرال، بوضـوح، أن خطـة تحريـر أميركـا الجنوبية تتوقف على غزو البيرو. ولكن للسيطرة على البيرو لا بد من غـزو تشيلي. إن فعلاً قويـاً متواصـلاً لا يمكـن توقعـه مـن الجمهوريـات البالغـة الصغر في البيرو العليا. سيفعلون ما فعلـوه دائمـاً: يشـنون غـارات ليصرفـوا انتباه قوات ومصادر ليما.

كان كل شيء جاهزاً. هنأ الرجال الثلاثة لانجـازهم مهمتهـم في تشـويه الأمور في تشيلي. كان ماركو دل بونت مرتبكاً بشكل كامل وغير متأكد مـن المكان الذي سيشن منه الوطنيون الهجوم. كان واثقـاً أن إيتشـاغوي اسـتفاد من رحلة العودة لينفذ الأوامر. أجاب الملازم أول الشاب أنـه حفـظ الطريـق بأكمله إلى آخر حجر دون الحاجة إلى تسجيل ملاحظـات. نظـر بالتاسـار والأب فرانسيسكو إلى خوان ثم إلى سان مارتن. كانا يعرفان السر، لم تكـن هناك حاجة لجعلهم يقسمون على التزام الصمت. لكـن هنديـاً يتكـئ علـى رمح عند مدخل غرفة الخرائط في مندوزا نظر إليهم بكآبة بعيدة. هـل كـان يصغي؟ طبعاً. هل فهم؟ نعم، لا، نعـم. «لقـد عشـت معهـم. أعـرف أنهـم يفهمون كل شيء»، قال بالتاسار حين أمر سان مارتن الهندي أن ينسحب. ولكن المرء لا يستطيع انتزاع السر من إيتشـاغوي إلا مـن خـلال التعذيـب، قال الأب أرياس.

قال بستوس لأرياس في نوبة غضب مفاجئة: «في البيرو نسميهم التشولو الخرائيين.»

«لا تنزعج يستخدمون ضد بعضهم كلمات أسوأ.»

أصر بستوس وكان نوعاً ما مهتاجاً من واقعية الكاهن الشـاب الشـكية: «إنهم لا يحلون مشكلة العدالة. هل سنحرر أنفسنا من الإسبان كي نحتـل، نحن الكريبيوليين، مكانهم، ودائماً فوق التشولو والهندي؟»

ضحك إيتشاغوي: «لا تفكر الآن بذلك يا بالتاسار. ركز على العظمة.»

دندن قائلاً: جاء يوم النصر. احمر خجلاً واستعاد هدوءه: «اعذرني يا جنرال. نسيت أين كنت. المسألة هي أن ثلاثتنا أصدقاء حميمون.»

قال سان مارتن: «أنا أيضاً مهتم بالعدالة، وأينما ذهبنا، سوف نؤسس التجارة الحرة، ونقمع محاكم التفتيش ونلغي العبودية ونمنع التعذيب. لكنكم جميعاً رأيتم ما حدث لبلغرانو وكاستيي في البيرو العليا. لقد أعلنا مثل التنوير للهنود الذين لم يفهموها وللكريبوليين الذين لم يريدوا ثورة مستمرة. لا تكفي النظريات ولا الأشخاص لتحقيق العدالة. يجب أن نخلق مؤسسات دائمة. أولاً، يجب أن ننجز الاستقلال. بعد ذلك ستبدأ أوجاع رأسنا.»

«تخلقون قوانين يا جنرال، لكن يجب أن تؤمنوا بها من البداية»، قال بالتاسار المتهور، سعيداً بعودته إلى صفوف الوطنيين، متأكداً أكثر فأكثر من قدرته على مزج أحلام وحقائق الثورة.

ابتسم سان مارتن وقال: «نحن قانونيون جداً. نحب التوازن، التناسق القانوني، لأنه يقنع فوضى مجتمعاتنا السيئة الثقافة. تمتعنا التراتبية، الحماية من خلال العقيدة، كل ما ورثناه من الكنيسة أو من إسبانيا. نسينا أنه تحت قباب اليقين وأعمدة القانون ثمة حلم مليء بالصخور، الهوام والرمال المتحركة التي ستعرض توازن المعبد للخطر.»

قال إيتشاغوي المبتسم وقفازه الأبدي في يده: «نحتاج إلى إرادة حديدية، إلى رجل يستطيع أن ينقذنا.»

رد عليهم سان مارتن بابتسامة مرة: «يا أصدقائي الشبان لا أعرف إن كنا سننتصر أو أننا سنقطع إلى شرائط في الجبال. لهذا أخبركم، الآن وهنا، حتى ولو ربحنا سننهزم إذا سلمنا السلطة إلى الذراع التي تستخدم السيف، إلى الرجل العسكري الناجح.»

أصر إيتشاغوي: «ولكن إذا كانت المسألة مسألة إنقاذ أمة.»

«سينقذ الأمة جميع مواطنيها وليس القائد العسكري.»

«لا تفكر بتلك الطريقة في أثناء الحرب.»

«ولكن يا ملازم إيتشاغوي إذا لم نخلق في فترة السلام مؤسسات، إذا لم نحقق الوحدة بين الأميركيين، سوف نتحرك بسرعة من الخلافات إلى الحرب. أقسم لكم أنني سأقتل إسباناً لكن لن أقتل أرجنتينيين مطلقاً. إن سيفي الضالع لن يغادر غمده لأسباب سياسية.»

«اعذرني من فضلك أيها الجنرال لأنني تحدثت. لا أدعي الحديث مع صديقي اللذين...»

«إنه ناري مثل عمه.»

«سيكون دون مارتن إيتشاغوي فخوراً بأفعالي. آمل أن أكون دائماً فخوراً بأفعالك يا سيد.»

قال لبستوس وبشكل أثار فضول الأب فرانسيسكو أرياس: «إذاً لا تطلب مطلقاً مني أو من أي شخص آخر أن أكون جلاد مواطني. يستطيع الجندي أن يرقى إلى السلطة وهذه النية في ذهنه وحسب. احذروا المدنيين كذلك. لا تجعلوا أحداً يسيركم إلى السلطة بحيث تقتلون باسم العسكر. لا تجعلوا أحداً يحضركم إلى تقاطع طرق السلطة من أجل أن تقتلوا أو تُقتلوا.»

ضحك من الصمت الوقور للشبان وطلب منهم أن يعذروا الخطب المنمقة للرجل الذي على وشك أن يصبح في سن الأربعين والذي أراد أن يؤدي واجبه وحسب ثم يستقيل ويذهب إلى إحدى زوايا العالم ليعيش كإنسان بسلام واحترام. «هل سيؤمن أحد، إذا استقلت وعدت إلى مزرعتي هنا في مندوزا أنني لست سنسيناتوس[1] مزيفاً بل سولا[2] حقيقي ينتظر ليسيطر على الأمور. اللعنة!

ضحك الجميع واتهمهم بإثارة هذه المناقشة حول مستقبل افتراضي بسبب الحضور الكلي الواضح،الإرادة الأميركية لنيل الاستقلال: لقد

---

[1] رجل دولة روماني من القرن الخامس قبل الميلاد.

[2] قائد عسكري روماني.

شاهدوها، كانت هذه الإرادة حولهم، لم ير أبداً شيء مثلها من قبل في الأميركيتين. لم تكن لحظة بكاء على غيوم العاصفة القادمة إنما إتباع تلك الشمس، تلك الإرادة التي تجلت حولهم في كل مكان – شبان، وطنيون، أميركيون. من يستطيع أن يقول، بعد تلك الحملات، أن أرجنتينياً وتشيلياً وبيروفياً لم يعرفوا كيف ينظمون أو يحكمون أنفسهم؟ كان البرهان صحيحاً في الخارج! وفي الخارج، منح متطوعون جدد بزات، ارتدوها في العراء مباشرة بعد أن عروا أنفسهم لبضع ثوان. جاء الأب فرانسيسكو أرياس ليساعدهم على ارتدائها. لم يعرف كثيرون كيف يرتدون البزات بشكل لائق أو يزررون الصدرية، ويعدلون الحزام ويصالبون الطوق الجلدي على الصدر. لوح للاثنين الآخرين أن يأتيا لمساعدته. سحب بالتاسار خوان إلى الوراء.

«لا تفعل ذلك. ستنتابك مشاعر سيئة حين يأتي اليوم الذي تقدر فيه أن تكون رفيقاً لأولئك الذين ليسوا أنداداً لك. لا يوحدنا سوى الحرب. المجتمع سيقسمنا.»

في الصباح التالي، وبينما كانت القوات مجتمعة أمام الدير الفرانسيسكاني، عيّن سان مارتن القائد على الصفّ العمود وأعلن أن راعية جيش الآنديز هي سيدة جبل الكرمل. في مركز الشكل الذي زُيِّن كدمية، وصار مثلثياً كعضو المرأة الجنسي المحبوب، تخيّل بالتاسار مكان الوجه المحجب ببياض العذرية الأمومية! صورة أوفيليا سلمنكا، التي تبتسم له وكأنه كان كل شيء: مالك الدمية، عاشق المرأة، ابن الأم.

(5)

قدم إيتشاغوي لسان مارتن وصفاً تفصيلياً لطريق لوس باتوس، الذي سيسلكه حشد الجنود بقيادة برناردو أوهيغينز. في الجنوب، كان العقيد لاس إراس يتقدم على طريق أوسباياتا القصير بالمدفعية. وستنتشر صفوف

شمال وجنوب هذين الصفين لتؤكد الانطباع بأن الجيش كان يهاجم تشيلي عبر جبهة عريضة، من جبل أكونكاغوا إلى بالديبيا. وهكذا سيلهون القوى الملكية التي أنهكتها حملة الشائعات التي نشرها سان مارتن كمروحة خداع من لا ريوخا وممر كوميكابايوس إلى سان خوان وطريق بسمانتا، حتى الأسفل في الجنوب، عبر ممري بورتيو وبلانتشون حيث خان هنود بيتشنتشه الوطنيين. انطلق مشاة منتظمون وعناصر الميليشيا، ورماة القنابل والرماحون من إقليم بوينس آيرس على طرق الغزو الكبير الذي لا سابق له في العالم الجديد. من الرجال الذين يبلغ عددهم 5423 في الجيش، كان عدد المقاتلين 4000 وحسب. شكلت البقية صفوف التموين: عربات الحنطة، الماشية، اللغامون، الخبازون، حاملو المصابيح، عربات الماء وعربة محملة بالصناديق والخرائط، تجرها ستة أحصنة – كلها تسلقت إلى ارتفاع أربعة أميال فوق مستوى البحر، حيث حدقت بوجه جبال الآنديز، التي هيمنت على أولئك الذين يريدون أن يهيمنوا عليها. هؤلاء الرجال الأوائل، رجال الاستقلال، الذين تستريح أقدامهم على أرض من الحطام البركاني والمجالد المنقرضة تأملوا الوجه البني والتاج الذهبي لهذا الإله الميت. وسواء أكان ميتاً أم لا،بدا دائماً كأنه على وشك أن يجدد كارثة متقطعة، كامنة في طبيعة ارتجفت صباح عبور سان مارتن إلى تشيلي حاملاً ذكريات عوالم مدمرة ووعود عوالم قادمة، عوالم لن يراها أبداً رجاله الذين يبلغ عددهم خمسة آلاف.

هل سيشاهدون، بدلاً من ذلك، حرب قتل الأخوة، التي تنبأ بها الجنرال، والبلدان الجديدة التي دمرتها سلالاتها؟ وفي أثناء الصعود إلى ذلك المعبد الأكثر ارتفاعاً في الآنديز، بحث بالتاسار عن أعين صديقيه. كانا يبذلان جهداً في تسلق المرتفعات، منشغلين في إصدار الأوامر، مبتهجين من المشهد المهيب، ثملين ربما من إرادة النصر في المعركة، من إرادة القتال. هل امتلكا الوقت، مثل بالتاسار، لينظرا في قلبيهما ويفكرا باللحظة التي سينفصل فيها الكلام عن الفعل؟ لحظة سامية. ويجب ألا يفسدها أحد. دع

أولئك الذين يمتلكون امتياز كونهم أميركيين وكونهم على سقف أميركا بصحبة محرر أميركا يبتهجون أثناءها باسم الأجيال القادمة.

ناموا. شربوا من مزاداتهم. حلق لبعضهم حلاق مرتجل كي لا يعتقد الإسبان أن الجيش يتألف من رعاة بقر متوحشين من السهول. كانت الليالي صقيعية وكانوا ممتنين للبطانيات التي سرقت من سكان مندوزا الطيبين. مرت المدافع في رتل واحد وحمل الهنود العدة. وكان يسمع من المؤخرة خوار الماشية وهي منحنية تحت حمولاتها. انهار بعض الرجال، أغمي عليهم، تقيأوا بسبب من دوار المرتفعات، لم تسمع غيتارات في تلك الليلة البطولية، رغم أن أحدهم غنى *البيداليتا*، وهي أغنية حب أرجنتينية حزينة. حلم سان مارتن أنه يمتلك ركائز ويستطيع أن يعبر الجبال بخطوة واحدة.

بدأوا الصعود في 12 كانون الثاني وبدأوا هبوطهم في 2 شباط. في الرابع من شباط اصطدموا مع كتيبة ملكية في ممر جبلي يدعى أتشوبالاس تتألف من مائة جندي تابعين للملك لم يستطيعوا أن يقاوموا هجوم سيف إيتشاغوي العاري. منذ تلك اللحظة فصاعداً، اندفع صفا الجيش من أكونكاغوا إلى وادي تشيلي المركزي. في 12 شباط، وفي ضوء القمر، كانوا جميعاً ينحدرون، بسرعة، ليشتبكوا مع قوات ماركو دل بونت الملكية في تشاكبوكو. وفي ضوء القمر نظر الأصدقاء الثلاثة، بالتاسار وفرانسيسكو وخوان، إلى بعضهم للمرة الأخيرة، غير قادرين على المصافحة أو العناق أو التفوه بكلمة. كانت أوامر أوهيغينز: اسحقوا العدو، حاصروه، لقد وضع نفسه بشكل صائب في المركز، بحيث نستطيع أن نفعل ذلك — اصنعوا دائرة من الموت. بدأ الخيالة يهاجمون مع أوهيغينز على طول كويستا نويفا الخاصرة اليمنى للإسبان. وهذا منح سولر وقتاً ليأتي فيما بعد ويدمر ما تبقى من مؤخرة الخاصرة اليمنى للعدو. كان الأصدقاء الثلاثة بين أوائل من هاجموا من الجهة اليسرى. وكانت هذه حرب سيف مقابل سيف، قتالاً بالسلاح الأبيض، وسط اشتباك فرسان، جاء وراءهم مشاة حملوا سيوفهم بأسنانهم لكي يتسلقوا على أكتاف بعضهم ليصلوا إلى جذع الشجرة الذي

يعيق الطريق والـذي نصبه العدو. قفزت الأحصنة فوق المتاريس. سقط إيتشاغوي الشجاع وهو يقفز ورأى بالتاسار رأس صديقه مسحوقاً. في هجمة أخرى، لطخت طلقة بندقية الرداء الأسود للأب أرياس بالدم. هجم بالتاسار وقد غطى الضباب نظارته، وضغط إطارها المعدني بشدة على أذنيه المهتاجتين المشتعلتين. حاول أن يترك قلبه فارغاً، أن يمنع الألم من أن يشكل قشرة هناك. ومع ذلك نقش بسيفه الضالع، بذهنه، فعلاً طوعياً من صلاة الشكر هو أنه لم يكن الذي سقط. كتب بالتاسار بستوس شهادة كوميض البرق ترك فيها لنفسه ذكرى الموتى. ورث صديقيه الميتين: موت جندي شاب، أكثر شجاعة وأناقة من البقية، موت كاهن شاب أكثر أناقة وورعاً من البقية. ورّث بالتاسار نفسه حياتيهما، شاكراً الرب أنه ليس أنيقاً وشجاعاً وورعاً مثلهما. كان حياً ويستطيع أن يعيش لغزه: ولع تانتالوس، الهارب والذي لا يمكن لمسه. فرض عليه الموت في ساحة الوغى، في تلك اللحظة، أن ينتزع نفسه من حياته الخاصة قبل أن يهلك مثل صديقيه. ربما أيضاً ليسرع اللحظة التي ستعيد توحيده معهما.

في ليلة معركة تشاكبوكو، قيل إن نافخ بوق سان مارتن، نفخ بشدة إلى أن طار دماغه من أذنيه.

(6)

واقفاً أمام جسدي الأب أرياس والنقيب إيتشاغوي في كاتدرائية العاصمة التشيلية التي بلا برج، والتي دخلتها القوات المحررة في 14 شباط، قال الجنرال سان مارتن لبالتاسار بستوس: «لم نفقد إلا اثني عشر رجلاً، والمؤسف أن هذين الاثنين بينهم.»

«كم فقد العدو؟»، سأل بالتاسار دون أن ينظر إلى سان مارتن، كان يتفطر حزناً على فقدان صديقيه وبسبب كلمات الجنرال، وكأن ألمه امتد إلى قلب المحرر، الذي اعتقد أنه متجمد.

«خمسمائة. كلفتهم تشاكبوكو تشيلي والبيرو. لم تعودا مستعمرتي
لإسبانيا.»

أغري بالتاسار ليقول: «ما فقدته هو أعظم من بلدين.» لكن سان مارتن
طلب منه أن ينظر بشكل جيد إلى وجهي صديقيه الميتين لأنه حالاً سيرى
لا وجهي الصديقين الميتين في قضية عادلة وفي عظمة المعركة من أجل
الاستقلال، وإنما أوجه أصدقاء يقتتلون في حروب بين الأخوة من أجل
الاستيلاء على السلطة. سأل بالتاسار إن كان ذلك مؤكداً كما جعلته كلمات
سان مارتن يعتقد، كلمات ذكرته بتلك الكلمات التي تفوه بها رئيس
مجلس إسباني متفائل ومختلف جداً عن سان مارتن. قاطعه سان مارتن
«توحدنا لنقاتل الإسبان. رأينا أنه إن كنا متفرقين فإنهم سيهزموننا. كل م
أطلبه يا صديقي بستوس هو أن تدرك هذا وأن تعي الخطر الناجم عن
غياب الوحدة. من المحتمل أن يؤدي غياب الوحدة إلى نهايتنا. ينبغي أن
نخلق مؤسسات حيث لا توجد. وهذا يستغرق وقتاً، ويقتضي تفكير
سليماً، وبحاجة إلى أيد نظيفة. يمكننا أن نعتقد أن القوانين تجعل الواقع
غير واقعي كونها منفصلة عنه. ليس الأمر هكذا. سيفرقنا الواقع والقانون،
وإرادة الاتحاد الفدرالي ضد إرادة السلطة المركزية. لقد خرجنا إلى السهول
المفتوحة وها نحن الآن بلا سقف يحمي رؤوسنا. ولكن ليس هذا سبب
للتوقف عن تنشق الهواء الحر وللبقاء داخل المنزل إلى الأبد. كل ما أطلبه
هو أن تدرك ما هي المجازفات. لا لست مؤمناً بالقضاء والقدر. لكنني لا
أريد أيضاً أن أكون أعمى. افهم الأمور مثلي يا صديقي بستوس. قرر أن
تكون معي، مواطناً حقيقياً، واشجب إلى الأبد، كما أفعل الآن، أمام
صديقيك الميتين، احتمال أن تصير ملكاً، إمبراطوراً أو شيطاناً.

قال بالتاسار بستوس وقد انحنى رأسه إلى الأسفل: «كان بوسعي أن
أؤسس عالماً مع صديقيَّ.»

بدأ سان مارتن: «وبدونهما...»

«أستطيع أن أحيا هيامي وحسب.»

لم يفهم الجنرال ما قاله الشاب. وضع يده على كتف بالتاسار وقال: «كانا بطلين». ثم رفع بالتاسار إلى رتبة نقيب على الفور.

بقي بالتاسار في الخلف وحيداً مع جسدي فرانسيسكو أرياس وخوان إيتشاغوي. هل كانا فعلاً بطلين؟ هل كان خوسيه دي سان مارتن نفسه بطلاً، شيئاً أكثر قرباً إلى بطل حي سبق وعرفه بالتاسار؟ في ظلمة الجنازة، في الكاتدرائية، التي لم يعترضها حتى التألق الباروكي الذي بعثره هناك مهندسوها، الذين، بالإضافة إلى كونهم يسوعيين، كانوا بافاريين، رأى بالتاسار ببصيرته المحرر أصدقاءه، ميغيل لانزا والهندي بالتاسار كارديناس، الأب إلديفونسو دي لاس مونييكاس، وجميع المحاربين الذين التقى بهم. رآهم دون خيالة، دون ساحة معركة، دون مشاة. ربما كان هذا ما آمن به سان مارتن في أعماق روحه: رؤية عالم دون أبطال،فيه بشر مثله، وأيضاً مثل لانزا وكارديناس، الأب الشاب أرياس والنقيب إيتشاغوي، صديقيه، أشخاص لن يعود من الممكن وجودهم، لأنه لن يكون هناك معارك بالسيوف الضالعة، ولا بالسلاح الأبيض، ولا شفرة شرف، لن يكون هناك إلا حروب بين الأخوة، معارك تربح ضد الأخوة، وليس ضد الأعداء، حروب يمكن التنبؤ بها، مبرمجة، يكون فيها الموت محدداً ومكتملاً من مسافة. حروب قذرة يكون فيها الضحايا هم الضعفاء.

استدار البطل لينظر إلى كتفي الجنرال خوسيه دي سان مارتن المربعتين، وهو يسير بوقار نحو المخرج، منقطاً بضوء القباب المنتشر – سيكون عندئذ كإله الجبال، إلهاً ميتاً. ثم تخيل رثاء سان مارتن وقد أصبح طاعناً في السن، مصمماً ألا يلطخ سيفه مطلقاً بدم المواطنين الأرجنتينيين، يعظ من خلال المثال، يرفض أن يكون «الذراع القوي»، مهما كان مزعجاً خصام «العنيدين وفاتري الشعور والمتوحشين.» في قمة النصر، رفض سان مارتن أن يحتفل بغزارة رومانتيكية. ولقد عذرت الصرامة القشتالية الرواقية حد الإفراط، الوقار العرضي لهذا الذي ينحدر من أبوين من بلنسية. وإذا كان سيتجنب إغراء الديكتاتورية، لن يكون هذا تجنباً للمسؤولية تجاه

الأرجنتين بل ليقول للأرجنتين: إن الجميع يجب أن يتصرفوا مثله. يجب أن يتحمل الجميع المسؤولية. من هذا اليوم فصاعداً يجب أن يحرس كل منا حياته. كان ينبغي أن يقولها أحد ما، ولكن ليس من هاوية الفشل القادم، وإنما هنا والآن، في الظهيرة العظمى للنصر، والانتصار على الشغف بالانتصار.

حين فهم بالتاسار بستوس هذا شعر برغبة أن يركض إلى البطل الأخير ويعانقه. لكن هذا سيكون احتفالاً آخر، نكراناً لجدية الإله الميت. لن يهينه بالاتهامات المضادة أو بالمديح. كان من الأفضل أن يبقى بالتاسار مع رفيقيه، أن يتمسك بتلك الرقة، بتلك الآمال، النكات، تلك الحالة الحميمة التي لن يعرفها أبداً مرة ثانية.

فهم الجنرال وتمنى له رحلة سعيدة.

في أحد صباحات شهر شباط المشمسة استقل بالتاسار مركباً شراعياً – الأروكانا – المبحر من فلباريزو إلى بنما. عبر أسطول اللورد كوشرين الصغير، الذي يستعد للهجوم على ليما. وبينما كان يبحر، سمى بالتاسار سفن الأسطول الصغير بنوع من الوداع للسلاح: الفرقاطة لوتارو ذات الستة وأربعين مدفعاً، الشراعية غالبارينو، المسلحة بقذائف حارقة، المركب الشراعي موكتيثوما، رجل الحرب سان مارتن، وسفن النقل ولنشات الهجوم.

قيل له في سانتياغو: «المرأة التي تبحث عنها هي في كاراكاس. لكن لا تتوقع منها أي شيء جيد.»

لقد انتهت الحرب، بالنسبة إليه، ولم يبق إلا الهيام.

لكن في سانتياغو لم يكن يريد أن يبحث عن غابرييلا كو.

الفصل السابع

منزل المهرج

(1)

بعد أن سافر بالتاسار بستوس مع البحارة الإيرلنديين بين كاياو وبنما، استعاد الشكل النحيل الذي امتلكه في أثناء تلك الأيام التي أمضاها في البيرو العليا. مرتدياً قبعة بنمية اشتراها من غواياكيل ليستخدمها كغطاء، ألح على عبور الغابة الزمردية بين البحرين، بين بدرو ميغيل وبورتوبيو. كان هنود سان بلاس، بوجوههم المعلمة بندوب زرقاء، الشبيه المجروح لتماثيل باريلز، هم الذين قادوه عبر التماثيل الطينية التي بهيئة رجال يجلسون على أكتاف بعضهم بعضاً. لم تعكس مياه الأهوار البنمية أي شيء، وكانت الشمس متوترة إلى درجة أنها أعمت الرجال في النهار. وفي الليل، استطاع أن يميز أضواء بورتوبيو، حيث كان ينتظره مركب شراعي على الجانب الآخر من البرزخ، ليأخذه إلى مراكيبو، الحصن القديم للبر الأسباني، الذي كانت تحاصره بين فترة وأخرى الأسلحة وفيما بعد شهرة دريك وكافيندش. لكن الآن، في الذاكرة الأكثر قرباً، ارتبطت شهرة مراكيبو بالقرصان لورينت دي غراف، الذي لم يكن يهاجم أبداً الميناء الفنزويلي إلا إذا رافقته أوركسترا خاصة من عازفي الكمان وقارعي الطبول، والكابتن الفرنسي مونتاوبان، الذي لن يظهر في شوارعها البحرية إلا على محفة يحملها عمال السفن ويسبقه أحياناً موكب من حاملي المشاعل.

ولم تكن شهرة القراصنة الإنكليز والفرنسيين والهولنديين شيئاً يقارن بما يتنقل أمام بطلنا بالتاسار بستوس، في بحثه الاحتفائي عن أوفيليا سلمنكا

عبر القارة الأميركية. كان سير حيوانات الألبكة والبغل بطيئاً، الأدغال كثيفة، سلاسل الجبال قاحلة، لا تعبر، بحار القراصنة دموية، والوهاد عميقة، لكن الأنباء كانت تسافر أسرع من أي رسول هندي أو مركب شراعي إيرلندي: شخص بمظهر لا يترك انطباعاً، ممتلئ وشعره طويل، وحسير، كان يطارد الجميلة التشيلية أوفيليا سلمنكا، من مصب نهر بلاتا إلى خليج مراكيبو. قالوا إنه لم يشاهدها أبداً، إنه لم يلمسها، لكن هيامه كان يعوض أي شيء، وعلى الرغم من ضعفه الجسدي، كان يحرضه على القتال مشهرا سيفاً ضالعاً، من أجل استقلال أميركا، إلى جانب رجال العصابات المخيفين الذين يقودهم ميغيل لانزا في وحل إنكسيفي مع الأب الخرافي إلديفونسو دي لاس مونييكاس على رأس حشود هنود أيوبايا، مع خوسيه دي سان مارتن في العبور البطولي لجبال الآنديز.

بطل ما! أسر بالتاسار بستوس لنفسه حين سمع في ميناء بوينابنتورا النتن الأغنية الأولى عن حبه الذي تحول إلى أغنيات ورقصات، بين نباتات لسان الحمل الطويلة والسوداء التي تشبه أعضاء عمالقة منقرضين، إلى جانب نساء سوداوات ضخمات رؤوسهن محملة بمناديل حمراء مربوطة ربطة رباعية. والتنورات الكثيرة التي ترتديها النسوة لم تمنعهن من توصيل ما كان هناك في الأسفل أو من تحريك أردافهن إيقاعياً، بانتظام، وبمتعة وببطء. بطل ما! كرر بالتاسار لنفسه في بنما، مصغياً إلى قصة حبه الخائب يتحول إلى تامبوريتو وترقصه فتيات كريبوليات بيضاوات كالكريم، مكسوات بتنورات ضخمة تحول أجسادهن إلى مراوح، كتلك العناكب الحليبية. بطل ما – كان عليه أن يصارع إغراء كعكات الغريبة والبودرة التي تذوب على الشفتين، الصبار، والتفاح في مرافئ الرقص تلك بين محيط هادئ لاذع، يخلو من المياه المتجمدة لتيار البارون فون همبولت، والكاريبي المهدهد، الذى لا يفصله إلا خصر بنما الذاوي، والوشاح الذي ترتديه الفتيات السوداوات الراقصات والمغنيات: لقد جاء بستوس باحثاً عن أوفيليا سلمنكا من السهول إلى الأراضي المنخفضة! بطل ما! من سيتعرف

عليه، إذ أنه ليس ممتلئاً كما وصفته الأغنية، لكنه أصبح مرة أخرى نحيلاً وقد تصلبت عضلات معدته بسبب الأيام التي قضاها أمام الصارية مع البحارة الإيرلنديين، الذين جعلوا ساعات عملهم لعبة مريحة وساعة سكرهم وراحتهم - التي كانت مثل بعضها - بكاء نوستالجياً: بالتاسار بستوس، الذي بلون الكستناء، شعره بلون العسل، لحيته وشاربه شقراوان، الذي ولد من جديد، ويشبه الصبار، قاوم إغراء الطعام. فخذاه مشدودان، ساقاه العاريتان مغطيتان بزغب ذهبي، صدره يخلو من الشعر ورطب من التعرق، وشعر إبطيه الطويل يوحي بأسرار داعرة جداً. لم يكن هذا بالتاسار الذي تناقلت قصته الأغاني.

سبقته شهرته، لكن لم يتعرف عليه أحد. رمى آخر علامة لهويته الخرافية - نظارته المستديرة ذات الإطار الذهبي - في البحر حين غادر فم نهر غوايار، حين سمع أغنيته الآندية الساخرة الأولى، قطعت السامبا الطريق من بحيرة تيكيكاكا إلى جبل شيمبورازو، هذا إذا لم يكن قد جرها كندور ميت وبعد ذلك غنتها لامة غاضبة.

كان هذا قدره: حوله البشر إلى تمثال وأرادوه أن ينتصر في الحرب والحب. حتى السود، الذين كانت تبعدهم عن معبر المركب الشراعي في مراكيبو صيحات: «سلالة شريرة»! ووبخهم ضباط ملكيون غاضبون، حدقوا من بين أكياس الكاكاو، التي هي أكثر بياضاً منهم وأقل لعنة. هؤلاء السود، الذين يحتقرهم الأسبان والكريبيوليون، كانوا القوات المهزومة لتمرد آخر، «تمرد النوع الآخر»، الذي أدرك حالاً حقيقة حروب الاستقلال. أراد الجميع الحرية لأنفسهم، لكن لم يرد أحد المساواة للسود، الذين عبروا عن غضبهم ضد كل رجل أبيض في فنزويلا - الإسبان والكريبيوليين، سيمون بوليفار نفسه (الذي شجب تمرد السود في غواتير واعتبره عمل بشر متوحشين تغذوا على دم وملكية الوطنيين). ولقد رأى بالتاسار بستوس جمار الغضب في أعينهم الصفراء وأجسادهم المتعرقة، التي أبقاها الإسبان في الخلف بحيث يمكن إنزال متاعه ومتاع البحارة الإيرلنديين الذين انسجم

معهم. سار على الأرض التي بدت له غير مستقرة، تحت سماء رأى أنها كلها متدلية كغيوم نحدق بها وقتاً طويلاً في فصول الصيف الهادئة، نأمل أن تتحرك، بحيث نستطيع أن نتحرك أيضاً. كيف نستطيع أن نتحرك إذا كان العالم قد توقف ميتاً في مساراته؟

كانت الثورة تنتصر في الجنوب بقيادة سان مارتن، وفي الشمال، قضى على انتصارات بوليفار الأولى الغزو الإسباني الجديد الذي قاده الجنرال المتوحش موريللو. ولم يغذ الثورة في الشمال إلا عناد بوليفار، الذي نفي أولاً إلى جامايكا وعاد أخيراً إلى قاعدته الجنوبية في أنغوستورا، متراسه وملاذه بعد أن هزمه موريللو في معركة سيمن، التي حصلت متزامنة مع انتصار سان مارتن في معركة تشاكبوكو وبستوس إلى جانبه. وتبعت تلك المعارك هزيمة رجل السهول العظيم بايث في معركة كوخيديس. سيمن وكوخيديس معركتان حصرتا الوطنيين في جنوب أورينوكو، وكلمتان كوميديتان: الأولى، لأسباب واضحة، الثانية لأنها ذكرت بفعل كريبيولي لطيف يعبر عن الزنا. استمتع بهما بالتاسار واعتبرهما فألاً حسناً عن ثرواته الغرامية في فنزويلا، التي كانت أوفيليا سلمنكا قد وصلت إليها، متحمسة، بشكل وحشي، حيال الوحشية الملكية التي لا تقهر لموريللو.

«مرت في غواياكيل متجهة إلى بويناينتورا.»

«ترجلت في بنما، عبرت البرزخ.»

«استقلت سفينة في كارتاخينا إلى مراكيبو. الإسبان أقوياء هناك، بحيث تستطيع أن تشرب نخب انتصاراتها، تلك العاهرة.»

مرفأ مريض، مليء بالمواخير والحوانيت، وهذه الأخيرة فارغة لأن مراكيبو كانت تحت حصار مستمر من قوات التمرد، والسابقة تتدفق بكل الرفض الذي قذفته حرب استمرت ثماني سنوات، وفي تلك الأعوام كانت جيوش الملك تقاتل الوطنيين على المحاصيل والماشية بينما كان العبيد يفرون من المزارع المحترقة والأسياد يتمسكون بعناد بالعبودية مع

الاستقلال أو بدونه. لم يكن الفلاحون يملكون أرضاً ولم يكن لدى سكان البلدات بلدات يعودون إليها، ولم يكن لدى الحرفيين عمل، وتدفقت الأرامل والأيتام إلى المرفأ الملكي، الذي كانت الشوكولاتة تصدر منه بكميات تقل دائماً. وكما حدث دائماً، أرسل عشاؤنا المر جميع حلوياته إلى العالم.

قذف بالتاسار بستوس نظارته في نهر غواياز. لم تساعده في العثور على أوفيليا سلمنكا. الآن، دون دليل، إلا هيامه، سيجتاز السهول والجبال، الأنهار والحصون، إلى أن ينهك الأسطورة ويحولها إلى واقع.

طول عام كامل، وبينما كان بوليفار يفتح نيو غرانادا والقوات الملكية تبدد نفسها لأنه كان ينبغي عليها أن تكون في حالة حراسة مستمرة، عاشت فنزويلا في ترقب قلق منتظرة المعركة الحاسمة بين المحرر والملكيين، بين بايث ورماحيه وموريللو وقواته النظامية. لكن في مواخير مراكيبو، وباراتها ومستشفياتها، وعلى أرصفتها البحرية وفي مستودعاتها – وليس في الصالونات، كما حصل معه في ليما وسانتياغو – بحث بالتاسار بستوس عن أخبار عن عشيقته تبرر، حين يلتقيان، الأغاني التي كان يغنيها هناك – وليس في حفلات كريبولية راقصة لم تعد موجودة – العاهرات والبغالون والأطفال وعمال السفن والراهبات من محطة الإسعاف الأولي: أنشودة بالتاسار وأوفيليا.

هل كانت تعرفها؟ هل كانت تعرف تلك الأغنيات، التي بعضها مضحك وبعضها الآخر سخيف وقذر؟ هل كانت كما وصفتها الأغاني: أمازونية، بنهد مقطوع، من الأفضل أن تستخدم قوسها ونشابها، جاءت من بلاد ليس فيها إلا النساء، تغادرها مرة في العام لتحمل، والتي كانت تقتل جميع الأبناء الذكور. ولم يكن وصف تلك الأغاني له صحيحاً أيضاً. مهووساً سار في كل شارع وزقاق في الميناء الاستوائي آملاً أن يجمع معلومات صحيحة ولا يسمع إلا أغنيات كاذبة، منهكاً نفسه في الرطوبة التي لا تلين، يأكل طعاماً سيئاً، ومعرضاً لخطر الحمى الدائم.

تبعته عينان حين أصبح شكلاً مألوفاً رغم أنه غير قابل للتحديد. لم يكن هذا الرجل هو رجل الأغنية. لكن العينين اللتين تبعتاه شاهدتاه هكذا من قبل كما هو الآن، تماماً كما كان حين عاد من حملة البيرو العليا، نحيلاً وصلباً. من نافذة ناتئة، راقبته العينان من خلال أضلاع المصاريع والحجب السوداء. لقد ظهرت هذه المرأة دائماً بملابس سوداء، لكن فساتينها ذات السواد الحزين الجنائزي لم تعد تنعكس في تلألؤ ليالي ليما ذات الرذاذ الكثير.

أرسلت طفلاً أسود صغيراً يقظاً يلبس ثياب مهرج كي يحضره. وهكذا حدث ودخل بالتاسار منزل المهرج في مراكيبو للمرة الأولى. أبقته الشهرة بعيداً. كان الماخور مشهوراً كأسطورة أوفيليا وبالتاسار وكان خائفاً من أن يتعرفوا عليه هناك. ذلك أن الشهرة يمكن التعرف عليها في كل مكان. كان بستوس هناك وقد تم التعرف عليه ولكن ليس حين دخل، ليس برفقة حوريات المبغى، نساء من جميع الألوان والأذواق، اللواتي تخيلهن بالتاسار وهو يطوف بين الجواري ذات البطون العارية، وجميعهن مقيدات إلى الطبيعة بسررهن الواسعة أو العميقة أو المجعدة أو البدائية، لكن كانت جميع تلك السرر تتنهد بحياة خاصة بها، وكأن العاهرة عاهرة لتطيل العطالة الرائعة أو الشهوات غير المذنبة، معلقة في العدم، الحياة ما قبل الولادية. عاهرات متموجات: سوداوات داعرات من بويرتو كابايو، هنديات نحيلات من غوايانا، خلاسيات تائبات من أروكا، فتيات كريبوليات ساخرات من كاراكاس، فرنسيات من المارتينيك بمراوحهن، هولنديات من كوراكاو، عاهرات إنكليزيات مخبلات من بربادوس تظاهرن أنهن لسن هناك أبداً. ثم بالتاسار بستوس الذي كان يقوده المهرج الأسود خردلهن وبولهن، بخورهن ونتانتهن، القنجر وخشب الصندل، الجوافة وخشب كامبيتشي، الشاي والرمل المبلل، والخراف. تجمعت كل هذه الشائعات في الصالون المهيب المزخرف على طراز قصر نابليون الأول، بمساند للأقدام وسفينكسات جصية، مصابيح مثبتة، ساعات معلقة،

الصالون المهيب للمبغى الأكثر شهرة في ميناء مشهور بالقرصنة، والنهب والعبودية، الذي يحاصره الآن وطنيو إمبراطورية إسبانيا التي اعتقدت أنها ستبقى هناك إلى الأبد.

وصل المهرج وبالتاسار أخيراً إلى وجهتهما، ووقف بالتاسار كأنه أمام ملكة مهزومة، هزمت نفسها. تبعته الأعين الجشعة للعاهرات إلى أن أغلقت خلفه الأبواب. لم تضيع المرأة التي ترتدي السواد أي وقت: قالت إنها كانت تتوقع أنه سيستدير، على الرغم من معرفتها بأنه لا يريد أن يجد داخل الماخور ما يبحث عنه خارجه. كان منخرطاً في أشياء أخرى – قيل لها كل شيء – لأنه لا يمكن أن يتوقع العثور على أوفيليا سلمنكا هناك. لكن هنا كان يتوقع، هل هذا صحيح؟ لا، هز رأسه، ليس هنا أيضاً. لقد فقدت تقريباً كل أمل في العثور عليها. في تلك المرحلة من اللعبة، يا بالتاسار، من الأفضل ألا تجدها أبداً، أن تبحث إلى الأبد لأن هذا يبرر حياتك، هذا الإيقاع الذي يجعلك مجنوناً ويجعلنا نحن النساء جميعاً مجنونات حين نغني ونرقص عليه؟ ليس حتى فتاة صينية بثلاثة نهود؟ يا عزيزنا؟

«لا تخني. تعرفت عليك في حفلة في ليما.»

أقسمت ألا تقول من هو بالتاسار وكانت تعرف كيف تحفظ سراً. لم يرد أن يعرف كيف جاءت إلى هذا المنزل من صالونات نائب الملك، أليس كذلك؟ لم يقل بالتاسار شيئاً. شكرته على تحفظه لكنها وعدته: «حين تعود، سأخبرك كل شيء.»

أضافت بسرعة، بتعبير ندب، بدا أنه وجه المساء نفسه، والذي تلألأ بين لحمها وثيابها السوداء، مانحاً الضوء للموت: «الآن ينبغي أن تذهب إلى مريدا ومن هناك إلى الجبال، إلى بارامو، السهل البارد العاري، ثم، في بيكو دل أغيلا، استدر وعد إلى هنا.»

«هل سأجدها هناك؟»

«لا أستطيع أن أضمن ذلك. بأية حال، ستعثر على أسطورتها.»

«أعرف هذا من قبل. لقد غنيت مع أسطورتي.»

«لا أحد يعرف الحقيقة عن تلك المرأة التي ترغبها.»

«إذاً كيف سأعرفها أنا؟»

«أعتقد أنك ستعرفها من خلال بحثك عنها، حتى ولو لم تجدها.»

«هل التقيت بها في ليما يا لوث ماريا؟»

«لا تتفوه بهذا الاسم بعد الآن. لم أعد تلك المرأة أبداً.»

(2)

وترت الكلمات جوع بالتاسار. دون نظارته، لم يكن يرى جيداً، لكن حواسه الأخرى – حاسة الشم والسمع خاصة – كانتا أكثر توتراً من قبل. وبينما كان ينطلق في رحلته الجديدة، شعر بأنه لا يقدر أن يميز بين ما رآه وبين ما شمه وسمعه، وأخيراً، ما حلم به. قال مرة في البيرو العليا إنه يخاف أن يعجب بأي شيء لم يكنه، فقط من أجل ذلك السبب. لكن سلسلة سريعة من الأغاني – هل ستكون الأغاني دائماً الوسيلة الأسرع للتواصل في هذه القارة الشاسعة والزاحفة؟ – قدمت لبالتاسار بستوس صورة رجل كان ولم يكن نفسه: جسدياً لم يكن ذلك الرجل، رغم أنه كان، في روحه، المرآة المتحركة للأزمنة التي كان يعيشها. كان الهيام الذي احتفت بذكراه تلك الأغاني حقيقياً. من يعرف إذا كانت قصة بطل استخدم الحرب ليعوض الغياب المفجع للحب، كانت حقيقية أيضاً. لكن لم يقل أي لحن من الألحان الحقيقة التي أوصلها إلى أبوين، والده والمعلم اليسوعي جوليان ريوس، ولصديقيه دوريغو وأنا، فاريلا. وبالطبع، كنا بعيدين، منشغلين بساعاتنا وسياسة بوينس آيرس – سقطت حكومات. غزا قواد حروب من الأقاليم، هيمنت الفوضى على أحلامنا – حتى أننا لم نتذكر أسطورة صديقنا بالتاسار والجميلة أوفيليا. صديقان آخران، ملأتنا حياتهما

وموتهما بالحسد والحماسة، الكاهن أرياس والملازم أول إيتشاغوي، ماتا دون أن يعرفا سر بالتاسار: اختطاف واستبدال الطفلين. وهذا قدم بعض الراحة لكبريائنا المحطمة. لقد بدأنا نصبح أرجنتينيين دون أن ندرك ذلك.

لكننا أدركنا أن بالتاسار، في بحثه عن أوفيليا سلمنكا، كان يبحث ليس ليرضي هيامه وإنما أيضاً ليحظى بالصفح.

وبينما كان يتسلق على ظهر بغل من الأودية العميقة وعبر الممرات الضيقة لجبال مريدا إلى الأسوار الحاجزة ذات الفتحات في التلال السفحية لجبال الآنديز، طلب الصفح لمرة أخيرة: سامحيني يا أوفيليا سلمنكا على ما فعلته لولدك.

وماذا عن الرضيع الأسود؟ ألن يطلب بالتاسار الصفح – بدافع اللباقة – لما فعله له؟ لا. من المحتمل أن الأم السوداء، التي جلدت علناً لأنها تجاسرت على الحمل رغم إصابتها بالسفلس، عانت كل ما استحق الطفل نفسه أن يعانيه. لكن بالتاسار، في بحثه عن أوفيليا، كان يرضي هياماً آخر بالإضافة إلى هيامه الرومانسي: الهيام الروحي للبحث عن أوفيليا كي يركع أمامها ويطلب الصفح: سامحيني لأنني خطفت طفلك.

بين تاباي وموكورمبا، أزاح مشهد الآنديز غطاءه، وظهر عارياً، بنياً ومائلاً إلى الرمادي، متفسخاً متقطعاً، وأمامه ألح قارئ روسو الشاب على تخيل رجل في الطبيعة كان جيداً ومغترباً عن المجتمع يقنعه شر لا علاقة له بالطبيعة إطلاقاً: شر جاء من مكان آخر، ليس منا. فقد مادة الإخلاص الرومانسي، وكأنها كانت كعكة صينية باردة، حين أخبره عجوز يجلس على كيس بطاطا في بلدة موكوتشيِّس أن أوفيليا سلمنكا الخائنة مرت وفي ذلك المنزل الذي تراه هناك، المدهون باللون الأحمر والقرنفلي، طلبت من عقيد ملكي ألا يقتل وطنياً مسلحاً تمترس فيه، وكان من غير المتوقع أن يخرج حياً، لكن «دون أن يمس شرفه» وافق العقيد. رمى الوطني أسلحته في الخارج من النافذة ذات الإطار الأبيض. ثم دخلت ونزعت ثيابها وأظهرت عريها للوطني. لم تتفوه بكلمة. كانت البلدة كلها في حالة ترقب،

تنتظر أن تشاهد ما سيحدث. كان يمكن رؤية كل شيء من خلال النوافذ المفتوحة. كانت عارية ولم تقل شيئاً، لكنها سمحت للوطني أن ينظر إليها، إلى جسمها كله، ثم أمرته أن يخرج وطلبت هي نفسها من فرقة الإعدام أن تطلق النار.

ما الذي شاهدته جميع الفتيات، اللواتي لهن وجوه مستديرة وخدود تفاحية، اللواتي ربطن قبعاتهن بلفاعات كي لا تطيرها الريح؟ ما الذي فكر به جميع الرجال العجائز الذين يجلسون على طول الشوارع الرئيسية لجميع هذه البلدات الآندية؟ لم يمت مطلقاً أولئك الرجال العجائز. عاشوا هنا ألف عام، المدة الزمنية التي عاشها عشب اليارغوا الأحمر، المرعى الغني على هذا الجبل الأصلع - ماشية عجوز، أيضاً. في البلدات التي في الأعلى، لم يترك إلا الأطفال والعجائز، عجائز بتجاعيد لامعة كالفضة وفتيات بشعر طويل. ما الذي شاهدنه، ما الذي سمعنه عن أوفيليا سلمنكا؟ قالوا إنها أمرت بقتل كابتن متمرد بينما كان يتبرز على بوابات لا غويرا. انتظرت إلى تلك اللحظة، فقط لتذله. في بلنسية، من ناحية أخرى، أجبرت جنرالاً ملكياً أن يسلم نفسه ويموت بحبل حول عنقه. ركع على ركبتيه ليستجدي الصفح .

أوفيليا سلمنكا: تماماً كما كانت أزهار الفريليجون الصفراء التي تتحمل برد الأراضي المرتفعة تبقع المنحدرات الجبلية كفن الخط، كانت القصص عن أوفيليا سلمنكا تبقع سلسلة جبال سانتو دومنغو. وتماماً كما تشكل أزهار الفريليجون شمعداناً يرتفع فوق الشجيرة البدينة، هكذا نهضت هنا، تصطاد الوطنيين حتى لا يبقى أحد وتبقى بدون ضحايا. هنا في هذه البلدة الخراب، حيث تحلق الصقور دون توقف، قالت تلك المرأة التي تفتقد لنهد وللحس الجيد، قالت لقائد التمرد الذي يحاصر الحصون على طول نهر أورينوكو:

«إذا هزمت الملكيين، تستطيع أن تأسرني وتقتلني.»

«وإذا انتصر علينا الإسبان؟»

«سنمارس الجنس.»

«فرصة ممتعة، أيتها العاهرة المحبة للإسبان. لن أخسر وبوسعك أن تراهني على ذلك.»

«لكنَّ هناك شرطاً واحداً. يجب ألا تسمح لنفسك بأن تخسر كي تضاجعني وحسب، لأنني سأقتلك عندئذ.»

«اتفقنا؟»

وجعل نفسه ينهزم كي يضاجعها وحسب – كما سيغني ذلك شعراء الجبال – وهكذا مات بين ذراعيها، من طعنة خنجر في ظهره. ما الذي عرفه أولئك الرجال الذين ماتوا بين ذراعيها، بأمر منها، حين شاهدوها عارية، حين سمحوا لها أن تهزمهم؟ من كانت تلك المرأة الكريبيولية؟

في الطبيعة المهجورة للخرائب الفنزويلية المرتفعة، أصغى بالتاسار بستوس لكنه لم يجد تبادلاً ممتعاً في روحه المنعزلة المكتفية بذاتها، وهذا يوحد المرء مع الأشياء، أو الوعد مع الواقع. على العكس، كانت أفعال أوفيليا الإنسانية تتحاشى أية إمكانية للمصالحة، وكان عمل الطبيعة يصور نفسه على أنه شيطاني، بدا كأن السيدة التشيلية الجميلة والقاسية تنبعث منه وعثرت فيه على تبريرها وانعكاسها. كذلك تبدد إيمانه بمصالحة ممكنة بين الإنسان والطبيعة في تلك اللحظة. نحن تحت عبء ذنوب كثيرة، همس في أذن الأرض الخراب، للعجوز وللفتاة. أية مصالحة ستكون إجبارية، لا نملك خياراً آخر إلا أن نستمر في إيذاء بعضنا بعضاً، ولا شيء سيؤذينا أكثر من الأهواء المتقلبة، الازدراء الفاشستي، السلطة التي تمارس دون قيد: أوفيليا سلمنكا.

شاهد وجه المرأة في الجبال المتجمدة، القاحلة، ذات الجمال الهائل. وصل محمياً بقبعته البنمية إلى قمة الطير الجارح، ظهر الجمل الميت، منقار النسر، الذي له هيئة عقد، أضاعته هناك أوفيليا سلمنكا، تلك المرأة الغامضة، اللغز الأبدي، التي أنهكت أخيراً عاشقها الرومانسي، وكان ممتناً أن الزهرة الصفراء المتوحشة لا تغزو ذلك العراء الخالص إلا بين تموز وآب، وتهجر الجبال لتتركها في عزلتها النظيفة وغير المزخرفة. امرأة باروكية، ذات ترف فاحش، كانت إفرازاتها المحيرة ومكافآتها الكئيبة،

تحاول أن تبعث شيئاً هامداً: في تلك اللحظة، آمن بالتاسار أنه طردها أخيراً من قلبه ونفاها من ذهنه.

لكن الفراغ الذي تركته كان ضخماً. انحدر شيئاً فشيئاً، مقتنعاً أنه عثر على المرأة التي تحولت إلى حجر أبدي، زهرة تصادفية، الحجر قاحل، الزهرة سامة، وثانية بحث عن المتعة التلقائية في العذوبة المنتشرة لمشهد الأودية الذي ولد من جديد، حوافر الخراف، سقوف المنازل القشية، حقول الألوان الخضراء كغيضات الليمون.

لم تستطع كل تلك الأزهار الأسبانية في الآنديز - القرنفل، الورود، إبرة الراعي - أن تملأ الفراغ الذي تركته أوفيليا. لكن الحرب استطاعت أن تفعل ذلك: وفيما كان يسير قرب ظل الأفاريز الممتدة لمنازل القرية، قبل بالتاسار أن حياته، التي تخيلها فريدة في إحدى المرات، دون صدوع - تصالح التاريخ والطبيعة في شخصه - كانت إلى الأبد مقطعة، وكما قالت كتب الأناشيد المحتومة تلك: كل ما ترك له هو أن يقفز من حرب إلى أخرى، من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب ليحقق قدره الأسطوري، الذي رسم سابقاً في أنشودة شعبية.

... سيقف عند شروق الشمس ليتناول جبنة جبلية لذيذة، خبزاً آنديا وخمرة الأناناس، ولكن حتى تفاصيل الحياة هذه لم تنبع من القدر الذي أملته الأنشودة مسبقاً. فكر وهو يمضغ بهوميروس، والسيد[1] the Cid، وشكسبير: كتبت مسرحياتهم الملحمية قبل أن تعاش. لم يفعل أخيل وخيمينا، هيلين وريتشارد ذو الحدبة شيئاً في الحياة الواقعية إلا إتباع تعليمات الشاعر المشهدية وتنفيذ ما وضع مسبقاً. ندعو هذا العكس للاستعارة: «التاريخ»، الاعتقاد الساذج بأن الأشياء تحدث في البداية ثم تكتب. كان هذا وهماً، لكنه لم يعد يخدع نفسه.

---

[1] - لقب في الأدب الإسباني لرودريغو دياث،بطل المسيحية في الحرب ضد المغاربة (1040-1099).

في تلك اللحظة، وبينما كانت امرأة عجوز تقدم له صحناً من الكعك في نزل إلى جانب طريق ماكورومبا، خطر لبالتاسار بستوس أن يسألها عن الحرب فأجابت: «أية حرب.»

ضحك بالتاسار وتابع تناول طعامه. أحياناً، في هذه البلدات المعزولة، لا يسمع الناس عن أي شيء أو يسمعون متأخرين جداً، وحين يقدم الشاعر ترجمته للأحداث وحسب. لكن في موكوتشيز، بعد ساعات، وجد العجوز نفسه يجلس على كيس البطاطا نفسه وسأله السؤال نفسه: «كيف تسير الحرب؟» وحصل على نفس الجواب: «أية حرب؟ ما الذي تتحدث عنه؟». انتشرت الأنباء في جميع أنحاء البلدة على الفور. انتهز الأطفال الفرصة ليحظوا ببعض الفكاهة ويضايقوا. شكلوا حوله دائرة وهم يغنون: «أية حرب؟ أية حرب؟» وحين خرج من الدائرة السحرية للأطفال وسأل كبارهم من هو سيمون بوليفار وأنطونيو بايث وخوسيه أنطونيو سكري أجابوا جميعهم: «لا نعرفهم. هل هم من هذه الأنحاء؟ هل سمع بهم أحد؟ اسأل العجوز الذي يعزف الكمان في إل تاباي.»

كان رجلاً برأس مربع، منحوت بجراح السيوف، التي جعلته يبدو ككتلة خشبية. عثر عليه بالتاسار في الداخل، بعيداً عن الطريق، في منزل شاسع وسيىء. ولكي يصل إليه كان على بالتاسار أن يتسلق الهياكل العظمية للأبقار. كان العجوز على مصطبة مظللة، جالساً على جمجمة بقرة، تماماً كما كان يجلس خوسيه أنطونيو بستوس في مربى ماشيته في السهول حين كان بالتاسار طفلاً. كان العجوز يعزف على كمانه، ولم يفعل أي شيء آخر سوى تأمل رجل أسود في حوالي الثلاثين من العمر، عار من الخصر إلى الأعلى، ويرتدي بنطالاً قماشياً قذراً وممزقاً.

حين اقترب بستوس ممتطياً بغله توقف الرجل العجوز الداكن والمربع الشكل، مسح الرطوبة عن شاربه بيده، وحدق بعينين غلبهما الوهج. ذلك أن الشمس خبزت عظام الأبقار واستدعت نظر المرء ليصبح أيضاً أبيض، كالضوء. فهم بالتاسار، كما لم يفعل من قبل، الحاجة إلى الظل، هذا ما

قاله، عن طريق التحية، للعجوز، ولم يزعج نفسه بتحية الأسود - كان هناك دائماً أسود أو هندي، صامت، يتكئ على أعمدة الباب. تحولت العدالة إلى شمس وعظام بيضاء في رأسه، لقد جاء بحثاً عن الحرب وسأل العجوز: «أين؟ ماذا يحدث؟»

أجاب العجوز: «لا أعرف شيئاً، يوسيبيو هنا يمكن أن يعرف بعض الأنباء.»

لم يتوقف الأسود عن التحدث، ذلك أن بالتاسار لاحظ أنه كان يتحدث طول الوقت لكن بصوت منخفض جداً. لكنه تحدث بصوت أكثر ارتفاعاً مكرراً: «شكراً لك أيها السيد. بسببك لست لصاً، ولست هارباً، شكراً لك يا جنرال لأنك استقبلتني في مزرعتك.»

قالت امرأة ظهرت من ضوء باهت في المنزل وهي تمسح يديها بمئزر: «تريد أن تفلت لتقتل وتسرق.» ثم قالت وهي تنظر إلى بالتاسار: «وأنت ماذا تريد؟»

خطر لبالتاسار أن يجيب: «أنا جندي، كيف أستطيع الالتحاق بأقرب كتيبة؟»

نظرت إليه المرأة دون أن تفهم شيئاً، نظر العجوز بشفقة والأسود بابتسامة عريضة. وبدوا، واحد مع كمانه والآخر مع امتنانه والمرأة بغضبها، كأنهم معلقون في الزمن وغائبون.

نطق بالتاسار بالاسمين السحريين للبطلين: بوليفار وسان مارتن، وكأنهما تميمتين.

خيم صمت طويل، بعد ذلك توقف العجوز عن العزف وتحدث: «قال، يا رفاق، إن الثورة لا تمتلك نقوداً، لكنها تمتلك أرضاً. انظر قدر ما يسرك، من البحر في مراكيبو إلى غابة غوايانا، من غيغل بيك، إلى منبعي نهر أورينوكو، وما ستراه هو أرض. أخذها الإسبان من الهنود، والآن نحن ننتزعها من الإسبان. خذوا أرضكم، قال لي، ليس اليوم بل غداً حين ننتصر في الحرب. هذه كفالة، هناك أخرى لعاملك، الأسود الجاهل.

استخدمت الكفالة، كما فعل جميع الجنرالات، لكن لديك هنا هـذا الولـد. إنه أسود جاهل. لم يعرف أن يفعل أي شيء. انتهت الحرب. يوسـيبيو لا يعرف كيف يمارس حقوقه.»

قال الأسود: «كنت سأصبح لصاً لو لم تحميني.»

قال العجوز الداكن الذي يشبه المربع: «لا يعرف هؤلاء البشر شيئاً عـن الأوراق. لا يريدون إلا أن يبقوا على قيد الحياة. نملك كل شـيء، لكننـا لا ننهي شيئاً.»

قالت المرأة الكريبوليية الستينية التي لا بـد أنهـا كـانت جميلـة فيمـا مضى، وهي تضحــك: «تـابع، أنـت نفسـك أسـود تقريبـاً، لا تخـش مـن المظاهر، لكن أنا أيها العجوز منحت لك كراتب لخدمتك في مربـى الماشـية هذا، وأنا جاهزة لأخدمك كخادمة طالما لا ينبغي علي أن أعـرف مـا الـذي يجري هناك في الخارج. بالتأكيد، سيطر السود على كاراكاس.»

ضم العجوز الكمان إلى صدره وقال: «لأن كل شيء بالنسبة إليك سيء.»

قالت المرأة قبل أن تغادر وظهرها ناحيتهم: «سئمت من مراقبتك وأنـت تقاتل. اشكر نجوم حظك، هذا أفضل من لا شيء.»

وما إن غادرت حتى أغمض العجوز عينيــه، جعـد جبينـه، واسـتدعى بالتاسار بيده قائلاً: «اقترب بحيث لا تسـتطيع أن تسـمعنا.لكنـني أعـرف الحقيقة. أعرف ما حدث. خين بوليفار. لقد أداروا لـه ظهرهـم كمـا أدارت زوجتي ظهرها منذ لحظة، أرسلوه ليمـوت وحيـداً، لكـن هـذا قدرنـا. لقد أنهوا سان مارتن، أحاطوه بالجواسيس بحيث لم يستطع أن يعيش بسلام، ثم أنهوه ونفوه مرغماً.»

قال بالتاسار محاولاً متابعة القصة الغريبة للعجوز: «من؟ الإسبان؟

«لا، وإنما العسكر الكريبليون، نحن.»

قال الشاب ضاحكاً: «أنت خلاسي، خلاسي أيها العجوز.»

«أنا أختبـئ هنـا لأنـني لا أريـد أن أكـون جـزءاً مـن عـدم الامتنـان أو الجرائم التي ارتكبت ضد أخوتي». قال العجوز هـذا بقـوة مدهشـة وكـانت

زوجته قد ظهرت لتسأل: «ما الذي تقوله؟ أما تزال تتفوه بحماقاتك وتقول ما سيحدث؟ يا للهوس! من سبق وقال لك إنك نبي أيها العجوز الأحمق؟»

بدأ الرجل يعزف على كمانه وقال: «لست نبياً. لا أقول إلا ما حدث سابقاً. ما حدث منذ زمن بعيد.»

في مسار عودته البطيئة إلى مريدا، ومن هناك إلى البحر، لم يعثر بالتاسار بستوس على دليل عن الحرب، ولم يعرف أحد شيئاً عن المعارك القديمة ولم يتذكر شخص واحد الأبطال. كانوا أحياناً يقولون نعم، ستحدث المعركة غداً، لكنهم سيذكرون فيما بعد أسماء لا تعني له شيئاً: بوياكا، بتشينتشه، خونين. وحين كان يسأل عن التفاصيل لم يستطع أحد أن يخبره عن مواضع تلك الأمكنة أو يقدم له تواريخ، لم يقدروا أن يقولوا وبصوت رتيب إلا: «معركة واحدة وحسب وسوف يتم إنقاذ الوطن.»

دخل مدينة محروقة حيث سار في رماد يصل إلى كاحليه. قيل له إن الرماد سيبقى هناك إلى الأبد ولا أحد يستطيع أن يتخلص منه. فيما بعد، عاد إلى مزرعة الجنرال عازف الكمان. كانت المرأة قد ماتت وكانوا يدفنونها في ذلك الأصيل. وكان الأسود قد رحل إلى الجبال. لقد هرب،وسيهبط إلى السهول ويطلق النار من بندقيته. سيقاتل إلى الأبد .أما هنا كان سيجن. ترك العجوز وحيداً، وشعر بالتاسار أن العزلة كانت تعيد إليه روحه القديمة. روى له العجوز مزيداً من القصص عن حروب ضد الفرنسيين واليانكيين، عن الانقلابات العسكرية والتعذيب والمنفى، عن تاريخ متواصل من الفشل والأحلام المخفقة، جميعها أجلت، وأحبطت، الأمل المحض، لا شيء ينتهي ومن المحتمل أن هذا أفضل، لأنه،هنا، حين ينتهي أي شيء فإنه ينتهي بشكل سيء.

هنا وهناك، شاهد بالتاسار عجلات مدافع حديدية منسية، وفي أثناء النهار كان يبرد جبينه عليها وفي الليل يستخدمها ليدفئ يديه. من المحتمل أنهم خسروها أيضاً في فنزويلا، استسلموا للإحباط وللأشياء نصف المنجزة. في أحد الأيام، في مقبرة مكتظة بالمدافن المطلية بآلاف الألوان

المختلفة صادف الجنرال العجوز العازف يقود حاشية جنازة متضعضعة، من الواضح أنها مشكلة من الندابين المأجورين، الذين طوعهم ذلك البطل العجوز نفسه الذي كافأه سيمون بوليفار بالأرض بدل النقود كما فعل السيد مع محاربيه القشتاليين. من الذي مات؟ من أيضاً - نظر إليه الجنرال بعطف - غير يوسيبيو المتمرد الأسود؟ رسم بالتاسار إشارة الصليب أمام التابوت الذي كان يحمله أربعة عمال.

قال الجنرال: «لا تقلق. الشاب الصغير ليس في الداخل. المتمردون يدفنون دائماً بعيداً في أرض مجهولة، في الليل وبدون اسم على القبر كي لا يعرف أحد إن كانوا أحياء أو أمواتاً! التابوت فارغ.»

«فقط جريمة أخرى وسيتم إنقاذ الوطن»، شرح بالتاسار الجملة الأخيرة التي تفوه بها الجنرال.

«بالطبع، أنا أدفنه هنا باسمه، قرب الأم التي شعرت بالعار منه، اللعنة! ولكن أي عار، أي خوف، أية ممنوعات خرائية!» قال العجوز.

(3)

كان خائفاً من أن يتحول إلى روبنسون كروزو الجبال، وهكذا في أحد الأيام انطلق عائداً إلى مراكيبو. ترك خلفه أرض الخراب القارسة والجبال المنقطة بالفريليجون. حين وصل إلى الأودية ودعته الأشجار الطويلة، النحيلة، ذات الأعضاء الملتحية، والطحالب الاستوائية المتدلية دائماً كمثل شعر رمادي من الرأس المتجدد أبداً لجذع ممتلئ بالنسغ الفتي.

ترك خلفه كتيبة ضائعة. لن يعثر عليها أبداً أو يسمي أبطالها. شعر أنه كان يغادر زمناً مختلفاً وذكره عبوره للنجد المرتفع الأجرد بفترة أخرى قصيرة، رفضت ذاكرته أن تسجلها، هربت من أعراف عقله الفلسفي. لكن في تلك الأيام، كان عقله أقوى، أما الآن فقد تآمر كل شيء، أو هكذا

اعتقد، ليضعفه. والوقت الذي أمضاه في هذا الإقليم الأجرد بدا أكثر قابلية للفهم والقبول من ذلك الوقت الآخر الذي أمضاه على الجبل الآخر. مع ذلك، كانت الكلمة المفتاح هي الزمن، وكان كل ما عليه أن يفعله هو أن يدخل مراكيبو في صباح ضبابي، يستشير الصفحة الأمامية لصحيفة صادرة في كاراكاس بيعت في المرفأ، يثبت الموعد مع صيدلي طلب مالاً مقابل استخدام تقويمه، ويجب أن يقبل أن فترة من الوقت كانت في تجربته طويلة جداً، وشملت في ذاكرته ثلاثة شهور برمتها، لم تكد تبلغ أسبوعين. أسبوعان بين مغادرته لمراكيبو وعودته.

كانت المرأة التي تعيش حالة حداد دائمة تنتظره في منزل المهرج. دعته إلى الدخول. كان مثلها، لم يكن أي شخص آخر، كلاهما جاء من الجنوب الكريولي، ارتادا صالونات نائب الملك، وعرفا كيف يأكلان بشكل لائق، وسيتنحى- كما افترضت – عن سيدة. كلا، لم يكن من أجل ما كان يفكر به. السيد الأنيق من ليما، الذي في إحدى الليالي، وبحضور زوجته، دعاها بصمت أن تصبح عشيقته. عرف ما الذي كانت تفعله. مترملة مؤخراً، كانت جائعة للجنس، لكن الجنس المتخيل. فهم البيروفي الذكي والفاسد ذلك وعرف أنها لا تستطيع أن تقاومَ جرأته على مغازلتها رغم أنف زوجته. كان الأمر وكأنه ينتزع حدادها ويعجل في ترمل زوجته. نعم، كان ذلك الأرستقراطي من ليما يمتلك مخيلة. أصيب هو أيضاً بالسفلس ووبخ المرأة التي ترتدي الملابس السوداء لوقوعها بسهولة وقبول الحب الملطخ الذي لا يستطيع السيد حتى أن يقدمه لزوجته. قالت له إن الأرملة لا تنفع إطلاقاً. ليس هناك أرستقراطيون أكثر قسوة أو غروراً من أرستقراطيي البيرو، أضافت الأرملة. إنهم فلورنسيو العالم الجديد.

«إذاً، لماذا جئت إلى مراكيبو؟»

«أخبرني طبيب صيني في ليما أن هواء البحر في هذه الأنحاء يشفي تلقائياً الأمراض التناسلية.»

«أنت لا تثيرين قرفي»، قال بالتاسار بشكل مباغت - وكأن صوتاً آخر قال له ذلك وأدهشه أن صوتاً لم يكن صوته عبر عن نفسه بتلك الطريقة. فضلاً عن ذلك، تعرف عليه كأنه صوته. كان نائماً ومختبئاً قبل ذلك.

ضحكت: «تابع، إذا كان هذا ما تريده. ستجعل الفتيات يحصلن على ذلك مجاناً. إن عضوي يا بالتاسار بالوعة.»

«وطبيبك يا لوتسيا وغد ودجال.»

كلاهما أحب الاسم، اسم النواح المستمر للمرأة التي من ليما. ليلاً ونهاراً سنجد بالتاسار في الماخور حيث، بحساب بسيط، أدرك أنه أصبح رجلاً مرغوباً. ربما اقتربت منه بعض الفتيات لأن لوتسيا شرحت وضع البطل الشاب المنهك، ولكن رغم أنه لم يدفع لأي منهن، بحثن جميعهن عنه، لأنه، كما كن يهمسن في أذنه، أنيق وغني وناعم، بسبب عينيه الحسيرتين، اللتين لا تشاهدان، بسبب الطريقة التي يعامل بها النساء، جميع النساء، كسيدات ذوات أصل رفيع. قالت له الفتاة الإنكليزية: «تجعلني أشعر بأنني دوقة.» قالت الفرنسية: ... لم تقل الهندية الحرونة شيئاً لكنها كانت ممتنة كما قالت الثرثارات السوداوات: «معك نشعر أننا مختلفات. إنك تريحنا من قرون من الإهانات والرفسات، اللعنة على ذلك!»

لم يعرف أحد أنه كان يمنح حريم الماخور ما كان يدخره لامرأة واحدة، الكولومبية العنيدة. أراد أن يطردها من ذهنه، تماماً كما طرد الجنرال العجوز الذي يتخيل المصائب القادمة، في مربى الماشية في تاباي، كما طرد، بحسه، جميع المحررين من بلدانهم التي صكت حديثاً. مع ذلك، لم يتوقف عن كونه موالياً لأوفيليا سلمنكا، وفتاة كريبولية من كاراكاس، بعينين ذات جفنين ثقيلين وجسد بلون الزيت، قالت له: «من الممكن أن تكون وفياً دون أن يتوجب عليك أن تكون مخلصاً.»

غطى وجهها بالقبل. وتمنى لو أنه قادر على تغطية وجه أوفيليا سلمنكا بالقبل أيضاً لكن دون أن تعرف ذلك. على الأقل في هذه المرحلة،

تتوحد الرغبة مع الواقع: ذابت الفتاة الكرييولية في ذروتها لأنها كانت فعلاً واقعة في الحب. ولم يعد يهم ما الذي يمكن أن يحضره الليل. لكن بالتاسار عاش أولاً – وبكل امتلاء – فقط ليقدم نفسه فيما بعد أمام أوفيليا بعد أن عاش مع نساء أخريات ما أراد أن يعيشه معها: ليلاً من القبل التي لاتنتهي على وجه الحبيبة، ولن تعرف أبداً. قال النزيل الديكارتي لماخور منزل المهرج: «اسمع، إذا كنت تعاملنا كسيدات، هل تعامل سيدتك كعاهرة؟»

غالباً ما اعتقد – وهذا كان وفاؤه الذهني الأعظم – أن أفضل ما فيه يمكن أن يبزغ من إعجابه بكل شيء لم يكنه. لقد لخص مصيره في هذه الفكرة. كانت طريقة أخرى للتفكير أنه، بتعرضه لخطر هذا الإعجاب، سيكون في النهاية أفضل ما يكونه عقلانياً. شرح بصبر كل هذا للوتسيا، حين، في نهاية عمل اليوم، كانا يأكلان ثمر الببابيا مع الليمون والجوافة العطرية في غرف المدام، التي تحميها المصاريع من حرارة مراكيبو .

قال للمرأة التي من ليما: «شهدت تلك الأوقات كثيراً من الرجال الذين هم أقل اقتناعاً بأفكارهم من كونهم متلهفين لفرضها على الآخرين.»

أصغت إلى حديثه وكررت، بشكل غامض، شيئاً قاله لها منذ أعوام كثيرة: «أو يعاقبونهم لأنهم لا يمتلكون هذه الأفكار. أنت مصيب.»

قال للوتسيا، لوث ماريا سابقاً في صالونات ليما، كل ما كان يعرفه عن نفسه عدا اختطاف طفل أوفيليا سلمنكا. أجابت أن هناك دائماً شيئاً مجهولاً أو يترك دون أن يقال، لأنه ليس هناك تواصل بين الفعل والكلمة. نحتفظ بالأشياء دون أن نعرف ذلك، لنقولها أو نفعلها حين تسنح الفرصة. تكون دائماً هناك، لكننا لا نعرف ونندهش من الأمر.

قال لها بالتاسار: «إنني أصغي إلى أصوات في داخلي لم أصغ إليها من قبل.»

«أتفهم ما أعنيه؟ لا تسكتها مهما حدث.»

في إحدى الليالي بدأت الفتاة الإنكليزية الشاحبة تتقيأ دماً وتحول بالتاسار، دون أن يدري، إلى ألطف قواد من المهنة الأكثر قدماً، حملها بنفسه، بين ذراعيه، وأخذها إلى مستشفى مراكيبو.

لم تدهن تلك الثكنة الصفراء المتوجة بشجيرات رفضت أن تموت طيلة ثماني سنوات. ولماذا الانزعاج؟ كان عدد الجنود الجرحى من الإسبان كبيراً جداً، وكان مشكوكاً بنصر أي طرف وهيمن شعور قوي بأن الحرب ستطول، بحيث أن القلق من المظهر الزائف بدا، في صيغته الأفضل، طيشاً وفي الأسوأ، فعل تشكيك. وعثرت راهبات أورسولوين، اللواتي بدين في أغطية رؤوسهن كنوارس مصطادة على سرير للدوقة بينما كان بالتاسار، مطلق الأسماء، يدلكها. بالنسبة إلى بالتاسار، معرفة الأسماء، منحها، اشتقاق الأسماء المستعارة، كان جزءاً من لعبة راديكالية بدأت حين قرأ أفلاطون تحت رعاية مدرسه في السهول جوليان ريوس، الذي قال: «من المهم أن ننوه أن انسحارنا بأسمائنا أدى إلى ظهور البحث الأول في النقد الأدبي Cratylus لأفلاطون. تذكر يا بالتاسار، في ذلك الحوار، يعثر أفلاطون على مكان لجميع نظريات الأسماء. يقول البعض أن الاسم جوهري للشيء. البعض يعارض ذلك قائلين إن الأسماء اصطلاحية محضة. يقول سقراط إن الأسماء مجرد اقتراب من الأشياء، تخمين فظ. وبهذه الطريقة، الأسماء تسمي الفلسفة والحب أيضاً، وجميع النشاطات البشرية: «مجرد اقتراب.»

كرر بالتاسار بالإنكليزية ممسكاً اليد الباردة للفتاة الإنكليزية: «اقتراب». أكانت هذه إشارة جيدة، مع حقيقة أنها إنكليزية - الأبرد، الأكثر امتلاء بالحياة. لم تكن كذلك، ماتت بعد بضع ساعات بين ذراعي بالتاسار، متوسلة إليه أن يكرر كلمة اقتراب. اقتراب من ماذا؟ من الموت، من وطنها المفقود، من الحب المجهول للمحظية الأجنبية الفقيرة؟ لم يعرف أبداً. مكث معها، وحملها فترة طويلة. حتى بعد أن طلب منه أن يتركها، تمسك بالجسد الجميل الشاحب ذي الأعضاء النحيلة كعيدان الكبريت.

كان من الصعب عليه أن يذهب. قال له صوت: «كن مسؤولا عنها إلى النهاية. في اليوم الذي تدفن فيه لن يكون هناك أحد لمواكبة الجثة. أنت فقط ستعرف بالتأكيد أنها ماتت.» تذكر الجنازة وقبر إيوسبيو الذي بلا اسم، الابن الأسود للجنرال العجوز ذي الجلد الأسود في تاباي، ولم يرد أن تكون شاهدة قبر الإنكليزية دون اسم. وبما أنه يبتكر أسماء، أي اسم يمنح لتلك المرأة التي لا تملك أوراقاً تحدد هويتها؟ برد خياله في وجه الموت. ربما الدوقة وحسب، دوقة مالفي. ثناء أدبي. ويبستر، إليزابيث ويبستر. من خلال تسميتها أعاد خلقها لكنه كان يطيع الصوت الذي حذره وحسب: «كن مسؤولا عنها.»

كان خائفاً من أنه إذا أصغى لذلك الصوت فإنه سيتوقف عن كونه سيد مصيره وقالت له تجارب حياة قصيرة، على أية حال – وبينما كان يتجول في صالة المستشفى الطويلة، حيث كان المرضى، الذين معظمهم من الجنود، ممددين على أسرتهم النقالة – إن مصيره كان خورساً من الأصوات، صوته وصوت الآخرين. لا شيء آخر.

كل ليلة، كان الضباط الإسبان يدخلون بصخب إلى ماخور لوتسيا – وهي نفسها بدأت تستخدم الاسم – وكان بالتاسار يصغي من بعيد لصرخاتهم وأسرارهم وانفجارات الصداقة الحميمة. لم يخرج أبداً إليهم. أثاروا قرفه ولم يكن لهم علاقة بتعامله السعيد والحر مع المدام التي من ليما. كان يزور الفتيات بعد الظهر، حين يكن جميعهن، ودون استثناء، عذراوات. سيتحدثن كثيراً عن الضباط، وأحياناً يقمن بملاحظات ستمر، بطريقة أخرى، دون أن تلاحظ. عالم المنطق الفرنسي، الذي شاهد الفعل حتى قبل واترلو، أصر أن النساء مجرد حجة، شيء يثير هؤلاء الرجال الأنيقين الحاصلين على شهادات من الأكاديميات الأوروبية، والذين، بالنسبة إليهم، كانت الرجولة جزءاً من دعوتهم العسكرية وهويتهم القومية، لكن التحديدات الطبقية كانت أكثر أهمية. كانوا طواويس وخيول استيلاد عاهرات مراكيبو، لكن، هي، العاهرة الفرنسية، لاحظت كيف

نظروا إلى بعضهم بعضاً في أسرة النساء، كيف كانت رغبتهم ببعضهم أكثر قوة من رغبتهم بالنساء. ياه! لم تستنتج احتمال أنهم في إسبانيا يفضلون نساء طبقتهم على الرجال من الطبقة نفسها، ولكن في ميناء الحمى وقمل العانة هذا، وافق جميع الرجال والنساء: كانوا يريدون ثقوباً إسبانية.

أحد الضباط، الذي كان نحيلاً إلى درجة أنه غير مرئي من المقدمة، لأنه كان كله صورة جانبية: أنف طويل، عينان واهنتان، شارب ممشط إلى الأعلى، شعر ملمع كجلد بوطه، استخدم جسده كله ليستنشق ما حوله. كان ككلب صيد، أنفه يحمر ويتوقف عن كونه صورة جانبية بسبب رائحة غير عادية وغرائبية. كان فوجه يدخل ويخرج من مراكيبو باستمرار، منخرطاً بقوة في حرب حتى الموت ضد بايث وبوليفار، لكنه دائماً يأتي إلى ماخور منزل المهرج. وفخر بنفسه لأنه نام مع جميع الفتيات عدا العاهرة الإنكليزية. كان خائفاً من «إنكلترة الخؤونة»، وخاصة بين الأغطية، وشله الرعب حين عرف أنها ماتت. كان متأكداً، كما قال، إنها لو ماتت عليه في الفراش، لسحبته إلى قاع البحر، الذي هو فردوس الإنكليز.

في إحدى الليالي شم شيئاً غير عادي. متظاهراً بالمرح، اقترب، متحدثاً عن ليالي آب في مدريد، حين يكون ارتداء بزة تذوقاً للجحيم، وفجأة أزاح ستارة المرحاض حيث تظاهر بالتاسار بستوس، بدوره، بأنه يغسل وجهه في حوض، رغم أنه كان، في الحقيقة، يتجسس على الضباط الإسبان.

التقت عيناهما وتساءل بالتاسار أين شاهد العينين من قبل، في أية مناوشة، صالون نائب ملك، أو تقاطع طرق بين لا باث وبحيرة تيتيكاكا. أين؟ كان السؤال نفسه واضحاً في عيني الضابط الملكي. عرف كل منهما أنهما على الأرجح لن يذكرا أبداً لقاءهما الأول، وإن كان قد حصل فعلاً.

حاصر رجال سهول بايث، القادمون من الجنوب مراكيبو وبدأ الطعام ينفد وامتلأت المستشفيات بالجرحى. دمرت الحرب حتى الموت فنزويلا.

وصل الفارون السود، معتقدين أنهم يستطيعون الاندماج في المرفأ المختلط، لكنهم اعتبروا متمردين وقبض عليهم الملكيون وأعدموهم كما أعدم المتمردون غيرهم. لم يعرف أحد من سيشنق أو لماذا: لأنه ملكي أم غني أو أسود، أو متمرد...؟

رافق بالتاسار بستوس، إلى مستشفى مراكيبو، الفتيات اللواتي أصبن بالتيفوس أو التهاب الزائدة الدودية أو اللواتي ظهرت عليهن أعراض. كثيرات منهن لم يعدن وعادت أخريات بسبب علاج الكالوميل. ولكن بعد وهلة لم يحتج بالتاسار إلى حجة ليسير في المستشفى. عانى وأرعبته معاناة الجميع وما من شيء كان أكثر هولاً من مراقبة البتر الذي يمنح فيه الجنود كأس براندي ومنديل ليعضوه وحسب. كان بالتاسار يقف إلى جانبهم، ممسكاً أيديهم، عارفاً أنهم كانوا بحاجة إلى شيء أكثر دفئاً من قطعة قماش أو كأس. وشعر كم تمسكوا به بقوة كأنهم يتمسكون بالحياة. انغمس في حياة المستشفى. شعر أن مكانه كان هناك، ليس لأن الجرحى كانوا أعداءه الأبديين، وإنما لأن الإسبان قتلوا فرانسيسكو أرياس وخوان إيتشاغوي وأفسدوا أوفيليا سلمنكا – ومن يشك بذلك؟

بين كل الحالات، أثرت واحدة به بعمق. رجل شوه وجهه انفجار وكان هناك ثقب من اللحم النيء بين حاجبيه وفمه. كان لا يزال حياً. لم يذهب دماغه. كان حياً رغم الجرح الكريه، في زاوية كئيبة ومدهشة من رأسه. كان يحرك يديه النحيلتين كباقي أعضائه وكان زوج من أبواط الفرسان يقفان منتصبين، ملمعين بشكل جميل، عند قدم سريره.

أمسك بالتاسار يدي الضابط. كان متأكداً أنه تعرف عليه الآن – رغم أنه لم يكن متأكداً في منزل المهرج – لا، لم يذكر أين شاهدا بعضهما للمرة الأولى، كانت الحرب تخاض طيلة ثمانية أعوام وتسلسلت عبر منطقة أكبر بثلاث مرات من الأراضي التي قاد فيها قيصر أو نابليون حملاتهم الأولى. لكنه تذكر أين شاهدا بعضهما آخر مرة: حين أزيحت ستارة في مبغى منذ بضعة أسابيع.

لا بد أنه الرجل نفسه، وحتى لو لم يكن، فمن غير المحتمل أنه كان ذلك الرجل ذو الصورة الجانبية الضيقة والشعر المشع، والأنف المستنشق، المغازل، المقتنع بنفسه. ومن المستبعد أنه تشوه بينما كان يطوف حول المنزل، مستذكراً ليالي الصيف في مدريد وهو يستنشق بأنفه العصبي، الذي تلاشى الآن إلى الأبد - كان هذا كافياً لبالتاسار ليقول لنفسه وله: «أعرف من أنت، لقد تعرفت عليك. لا تقلق، لن تموت دون أن يعرف أحد من أنت. ثق بي. سأكون قربك. لن أتخلى عنك. سأضع اسماً على شاهدة قبرك.»

حين مات الضابط الإسباني عاد بالتاسار إلى منزل المهرج وهو يبكي وأخبر لوتسيا ما الذي حدث. داعبت رأسه ذا الخصل التي بلون النحاس وقالت: «كنت أنتظر هذه اللحظة، أو لحظة مثلها لأحررك من هذا المكان.»

«أنا حر. أحبك. أنت أفضل صديقة لي. لا أريد أن أفقدك، لقد فقدت سابقاً...

«خذ هذه الرسالة. إنها من أوفيليا سلمنكا. تريدك أن تنضم إليها في مكسيكو. إنها تنتظر مع الأب كينتانا في فيراكروث. هنا التوجيهات والخريطة. أسرع يا بالتاسار. آه نعم، اشتريت لك نظارة. ابدأ باستخدامها من جديد. يجب أن تقرأ الرسالة بحرص. لا تبدأ بالهلوسة، ينبغي أن ترى الأمور بوضوح.»

الفصل الثامن

فيراكروث

(1)

لم تمتلك عذراء غوادالوبه وقتاً لتنشر ذراعيها مقلدة ابنها على الصليب قبل تلقي الطلقة. كانت تقف هناك ويداها متشابكتان في صلاة، عيناها منخفضتان وعذبتان، إلى أن اخترق الرصاص عينيها وفمها، ثم رداءها الأزرق وقدميها الأموميتين الدافئتين. تحولت النجوم إلى غبار وتكسر قرنا القمر إلى ألف قطعة، وفر الملائكة المفضوحون.

كرر قائد حصن سان خوان دي أولوا الأمر: سددوا، أطلقوا! وكأن زخة واحدة لم تكن كافية لعذراء الاستقلال، وكأن التمثال الذي يبجله الفقراء ومثيرو الشغب الذين يحملون صورته على كتافياتهم وعلى راياتهم التمردية، يستحق أن يعدم مرتين في اليوم.

الكاهن إدالغو في غواناخواتو، الكاهن موريلوس في ميتشواكان، والآن الكاهن كينتانا في فيراكروث. تمرد جميعهم في ظل راية عذراء غوادالوبه المرفوعة عالياً. ورغم أنهم في النهاية أسروا وقطعت رؤوسهم عدا كينتانا الملعون، الذي كان لا يزال طليقاً، كان بالإمكان إطلاق النار على العذراء ساعة يشاء المرء، أينما كان هناك قائد تمرد يأخذ مكانها.

راقب بالتاسار بستوس طقس إطلاق النار على العذراء حين وصل إلى فيراكروث من مراكيبو، واستنتج أنه وصل إلى الأرض الأكثر غرابة في الأميركيتين.

كان عقد الثورة يقترب من نهايته، وإذا كان سان مارتن وبوليفار وسكري وأوهيغينز قد هزموا الإسبان في أميركا الجنوبية ولم يكن هناك فرصة للرد، فإن تضحية كهنة الأبرشية الفقراء في المكسيك، الذين قادوا الانتفاضة الوحيدة للهنود والفلاحين، تركت الاستقلال للنتيجة المشكوك بها، لاتفاقية بين المتحاربين. من جانب، كان هناك الجنود المحترفون المنهكون للجيش الإسباني، ممثلو الرجعيين الذين أعيدوا بعد كونغرس فيينا وعودة فرديناند السابع إلى العرش، الأكثر غباء وتأييداً لسيادة البابا. وفي الجانب الآخر، كان الضباط الكريبيوليون العصبيون والذين أثيرت أعصابهم، يقودهم أوغسطين دي إتربيده، الذين لم يعد بوسعهم التظاهر (حتى من أجل خداع أنفسهم) بدعم فرديناند أو كارلوتا. ووعد العسكر الكريبيوليون أن يحموا مصالح الطبقات العليا ويمنعوا السلالات الملعونة المؤلفة من الهنود، والسود، والخلاسيين، الزامبوس، الكامبوخوس، أرباع الزنوج، والخلائط السلالية الأخرى، من الاستيلاء على السلطة.

وهكذا قتلت عذراء غوادالوبه بالرصاص مرة أخرى في الصباح الذي وصل فيه بالتاسار بستوس إلى فيراكروث، ومن خلال عيني أم الإله المثقوبتين، عبرت أشعة شمس استوائية رصاصية. كان بالتاسار بستوس يدخل المكسيك: كانت هذه المرحلة الأخيرة من حملته، حملة الحب والحرب. لقد مرت عشرة أعوام منذ أن اختطف الطفل الأبيض ووضع الأسود مكانه في بوينس آيرس، ولكن لم يمر إلا شهران بعد أن سلمته لوث ماريا السابقة، مدام منزل المهرج، تلك الرسالة البسيطة المباشرة التي كتبت في فيراكروث:

تعال فوراً.

أوفيليا

أحضر بالتاسار معه من مراكيبو شيئاً أكثر أهمية من هذه الملاحظة: كان يدخل المكسيك بأوراق ضابط إسباني، نحيل وعصبي ككلب صيد، أزيل وجهه ومات بين ذراعي بالتاسار.

كان يدخل فيراكروث ليبحث أولاً كما أرشدته لوتسيا، عن الكاهن كينتانا. وكان دخول فيراكروث كالسير في فرن ملتهب.

لم يكد بالتاسار يقدم أوراقه إلى قائد الميناء، الكابتن كارلوس سورا، قائد فوج رماة القنابل الخامس التابع لعذراء كوفادونغا، حتى انتزع معطفه الملكي واستخدمه ليغطي ميتاً بائساً في شارع مكتب الجمارك. كان معوزاً، وقالت مخلوقات أخرى بائسة حوله: «لا يوجد نقود من أجل جنازته.»

«لا أحد يريد أن يشتريهم أحراراً، لا الكهنة ولا الحكومة.»

(2)

«أنت تبحث عن الأب كينتانا؟ حسناً، لنر إن كنت ستجده!» قال الرجل الأدرد في أوريثابا ضاحكاً حين دخل بالتاسار بستوس في مجال رؤية تلك المدينة المطرة القريبة من البركان، مدينة احتلتها القوات المتمردة للكاهن أنسيلمو كينتانا دون أي سبب سوى تدمير زاد الإسبان من التبغ استناداً إلى الثرثرة الماكرة لمدينة فيراكروث، أو ليكسو قواته بالنسيج الممتاز الذي ينتج في أوريثابا، كما روجت الثرثرة الطيبة للميناء نفسه، أو لأن الأغنياء الإسبان أخفوا ثرواتهم في الأديرة ويعرفون أن هذا الكاهن لا يحترم الراهبات كما يقول الشكاكون. ولقد حصل بالتأكيد، من راهبة أو أخرى على أحد أبنائه العديدين غير الشرعيين. في النهاية، كان السبب الرئيسي لهذه الحملة هو إخافة الإسبان ثم دخول أكثر المدن غنى وقداسة لينهبها قبل أن يهرب بالغنيمة ويبدأ الحملة التالية.

قالت السيدات الكريبيوليات وهن يهوين أنفسهن أمام كنيسة فيراكروث: «يا إلهي! متى سيكون هناك سلام.»

قالت سيدة أخرى لبالتاسار بستوس: «لقد آمنا بأتربيده والضباط الكريبيوليين الملكيين.»

«نريد أن تنتهي الحرب حتى ولو ذهب الإسبان. لكن كرمى لله لا تجعلوا الهنود والسود يأخذون كل شيء، مثل ذلك الكاهن المحروم كنسياً، والمجدف كينتانا الذي استولى على مدينة أوريثابا. جاء جميع البشر الظرفاء إلى المرفأ هاربين من الاعتداءات الوحشية التي قام بها الكاهن الملعون». قال مزارع بن من سيمباولا، يقف على مدخل مكتب الترخيص. وهذا الرجل الذي يدعى مينتشاكا جاء ليتحقق من إعفاءات الضرائب بحيث يتمكن من تصدير أكياس بنه. هنا يقولون إن الهنود قاموا بعمل الغزو لأنه بدونهم كان الآزتيك سيتعشون كورتيث وأسبانه الخمسمائة. والآن نحن الكريبيوليين أحرار في تحقيق الاستقلال، وهكذا لا ينتقم الهنود.

السادة الذين يلعبون البلياردو ويدخنون في البارات قرب أحواض السفن والبحر السباتي سألوا بالتاسار بنبرة خطابية: «هل تسأل من هو هذا الكاهن كينتانا؟» إنه رجل خطير، غاو للنساء، لديه طن من الأبناء. يضحك بصوت مرتفع على مرسومات محكمة التفتيش التي تحرمه كنسياً. لقد كان كاهناً هنا قرب لا أنتيغوا. بالطبع نعرفه. أحب أن يسبح عارياً في نهر تشاتشالاكاس مع قطيعه. إنه خالد. ويراهن على ديكة المصارعة. أتعرف لماذا أصبح متمرداً يا كابتن سورا؟ لأن قانون الاندماج الذي أصدره البوربونيون في 1804 صادر امتيازاته كعضو في الإكليروس الأصغر. فقد امتيازاته وخاصة من العدالة المدنية. هذا هو السبب، والآن أخذوا على عاتقهم امتياز نهب كل مزرعة يصادفونها في طريقهم. تماماً مثل إدالغو وموريلوس وماتاموروس. هذه أرض كهنة متمردين، يستغلون الدين ليخدعوا الحمير ويتصرفوا كالقراصنة.»

«إنه يحب المظاهر ويرتدي أردية مترفة ويغطي رأسه بقبعة حمراء وكأنه كاردينال.»

«إنه وريث إدالغو وموريلوس»، قال محام شاب وهو يصفع وجه بالتاسار بقفاز بينما انسكبت قطع لعبة دومينو تمت مقاطعتها على أرض المدخل.

«إنه أملنا الأخير لمنع المجرمين والأوغاد مثلك يا كابتن من استغلال المكسيك مرة أخرى. الموت لأتربيده! الموت للكريبيوليين! يعيش الأب كينتانا ومساواة السلالات!»

كان على بالتاسار بستوس أن يوافق على مبارزة مع المحامي التافه من فيراكروث في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي على الطريق إلى بوكا دل ريو، لكن في ذلك المساء نفسه، غادر على ظهر الحصان إلى أوريثابا، مسافراً صعوداً على الهضبة طول الطريق. بعد فجرين، على مرأى البلدة الضبابية، حيث المدارات الاستوائية علقت حجب صوم كبير أبدي، لم يعان من صعوبة في الدخول إلى البلدة التي احتلها الكاهن المشهور كينتانا، المدافع الأخير، كما يقول الجميع، عن ثورة مساواة في أميركا الشمالية. أضافت قلة أنه لن يمضي وقت طويل حتى يخون أتربيده والعساكر الكريبيوليون هذه الثورة.

على أية حال، من النادر توقع انتصار هذه الثورة، وستكون الأخيرة بشكل ملائم، كما كتب بالتاسار إلينا، نحن صديقيه في بوينس آيرس، إذا كان من باب الاهمال السماح لأي شخص أن يدخل معسكر الجنرال كينتانا ويسأل عنه دون أن يوقفه حارس أو حتى يسأل عن كلمة السر. لماذا؟

«لأن الأب كينتانا يقول حتى البابا نفسه لا يقدر أن يحميه.» الرجل الأدرد من أوريثابا الذي قال له هذا حدق ببالتاسار – بنطال أزرق من الفلانيله، قميص كتاني، سترة من الخام – وكأنه يريد أن يشير أن كريبيوليياً غنياً وصغيراً مثله، يرتدي ثياباً كهذه، وبنظارة ذات حواف ذهبية، لا يمثل أي تهديد للأب كينتانا. وحالما يصبح في فم الذئب، كم سيطول عمر هذا السيد الصغير ذو الأنف المستقيم والشاربين الجانبيين المتشابكين والخصلات العسلية اللون، إذا حاول ارتكاب أية إساءة؟

شجع الفتى بالتاسار قائلاً: «يقول الكاهن كينتانا: تماماً كمثل الليل والجبال اللذين يحميان جيشنا من يبحث عني سيجدني. حاول ذلك أيها الشاب. اعثر على أنسيلمو كينتانا بطريقتك الخاصة، هناك أوامر سارية بعدم تحديد مكانه أبدا.»

لا يمكن عبور طرق فيراكروث في الصيف ذلك أن المطر لا يتوقف أبداً، ولكن يبدو أن كل تلك المياه تنشأ في أوريثابا ثم تتدفق عائدة إليها. خاض بالتاسار الأنهار حين اختفت الطرق تحت المنزلقات الطينية. قبل أن يبدأ اليوم تناول إفطاراً من ثمار الأناناس والمانغو التي لا تزال دافئة من الشمس. لكن كان كل شيء في أوريثابا يفوح برائحة التربة الرطبة والفاكهة المؤلفة من البرتقال والفريز والسفرجل والبرقوق والتي كانت تغلى في مراجل ضخمة من أجل صناعة المربيات.

لم تكن أسلحة المتمردين مهمة إذا ما قورنت بما شاهده لدى خوسيه دي سان مارتن وبشحنات الأسلحة التي عبرت في مراكيبو: بعض البنادق، رماح كثيرة ومقاليع بدائية. وكأنه من أجل تعويض قلة المدافع كان هناك أرشيف غزير يشكل جبالاً من الورق على مدخل مستودعات التبغ القديمة حيث أسس المقر العسكري. أوراق فوق أوراق، تنافست مع الجبل الغيور، قمة أوريثابا التي سماها الهنود سيتلالتيبتل، جبل النجم. وراكضين كالفئران حول رقائق الجبنة هذه، كان هناك موظفون ومحامون، وخطاطون منشغلون في كتابة تصريحات، وسطاء ودعائيون من جميع الأنواع. وكانوا أكبر عدداً من جنود الجيش المتمرد نفسه.

رأى بالتاسار بستوس ما يكفي من الثورة في أميركا الإسبانية ليكون قادراً على التعرف عليهم دون أن يخبره أحد. كانوا هناك ليقدموا شهادة عن الأفعال، ليقنعوا الميالين إلى الشك، ليكذبوا على الخبثاء، ليسنوا القوانين، ويشرحوا الدساتير. كان نجم هذا الجبل القانوني هو الفصاحة – سهل وافر ووقور ومغر في نفس الوقت: بركان خطابي. وبينما كانوا طموحين، لم يكن محامو الاستقلال أولئك شكاكين. دوريغو، وأنا، فاريلا، كنا بشكل لا يتوقف نصلح ساعاتنا في بوينس آيرس، وغالباً ما قلنا إنه في حالة الثورة من أجل الاستقلال فإن رهان باسكال حول وجود الله كان بشكل مطلق لا معنى له: الإيمان بالله رهان لا تقدر أن تخسره. إذا كان الله موجوداً أربح، إذا لم يكن موجوداً لا يهمني الأمر.»

في ثوراتنا، وخاصة كثورة الكاهن كينتانا الهشة والمنهكة على طول ساحل خليج المكسيك، إذا فشلت حركة الاستقلال، سيعدم المتمردون. ما كان ضرورياً، قال لي خابيير دوريغو حين دعاني إلى العزبة التي حصل عليها على الطريق إلى سان إسيدرو، لأعجب بساعته التي حصل عليها حديثاً، هو إيمان تمكن مقارنته بإيمان أنسيلم الآخر ذاك، القديس الذي حاجج قائلاً إذا كان الله أعظم ما يمكن أن نتخيله، فإن عدم وجود الله مستحيل، إذ لا نكاد ننفي الله حتى نجد أن الشيء الأعظم الذي نستطيع تخيله قد أخذ مكانه، وهذا الشيء هو الله. ولكنني أنا اليعقوبي أكثر من صديقنا دوريغو فضلت أن أقتنع بصيغة ترتوليان كأساس للإيمان بالله: إنه صحيح لأنه عبثي.

كانت كلتا الحجتين – حجة أنسيلم[1] وحجة ترتوليان[1] – ضرورية لنا، في فوضى العام XX في الأرجنتين، كي نتابع إيماننا بحسنات الاستقلال. بالكاد نستطيع أن نتخيل مواطننا الثالث في مقهى دي مالكوس، شقيقنا الأصغر، بالتاسار بستوس، مستعداً للمجازفة بحياته وإيمانه في الخط الأول للثورة الأخيرة، الثورة المكسيكية، ويجد نفسه محاطاً، وكأن الأمر من خلال أسوأ لعنة غجرية، بالمحامين وعلماء لاهوت القانون وآباء الكنيسة من الأمة الناشئة، جميعهم مهتاجون وكأن الانتصار في الحرب يعتمد على الورق وكأن ذلك الذي يمكن أن يكتب فقط يمكن أن يكون حقيقياً في بلداننا الجديدة، وكأن ما كان حقيقياً كان مجرد سراب، يحتقر إلى درجة أنه لا يتوافق مع المثال المكتوب؟؟؟.

«إن القانون هو أعظم ما يمكن تخيله.»

«هذا صحيح لأنه عبثي.»

دبابير ومخادعون: شاهد نفسه فيهم وشاهدنا، أو ربما رجال مثلي، أنا مانويل فاريلا، رجل الطباعة غير النادم أو التائب، الواثق بأنه يستطيع أن

---

[1] –كبير أساقفة كانتربري (1033–11019).

[1] – لاهوتي نصراني قرطاجي.قال بأن الإيمان الأعمى هو السبيل الأوحد للخلاص.

يغير العالم برمي الكلمات عليه، ورجال مثل خابيير دوريغو، كريبيولي غني مقتنع أن نخبة متنورة تستطيع – إذا قادها العقل – أن تنقذ هذه المدن الفقيرة التي دمرها الطغيان أولاً ثم الفوضى ودائماً الحقيقة البسيطة الساحقة لجهل الأغلبية. لكن ألم نكن جميعاً أيضاً حاملين للثقافة الإقليمية البسيطة لزمننا، متعلمين ذاتياً من كتب مراقبة أدخلت إلى الأميركيتين بين الزخارف والآنية المقدسة لكهنة متواضعين لم يدفعوا رسوماً، ولم تفتش أملاكهم، وهي امتيازات منعها قانون البوربونيين المحدث؟

ألم نكن نحن – بالتا، دوريغو وأنا، فاريلا، والميتين إيتشاغوي وأرياس – العاجنين الصبورين لحضارة لم تتحول إلى خبز بعد وهكذا لا نملك شيئاً لنوزعه؟

كانت تلك الأفكار كمثل جسر وحّدنا، هنا في ريو دي لا بلاتا، مع أخينا في خليج المكسيك.

لكن ليس بيننا أو بين أولئك الذين بدوا مثلنا سيجد بالتاسار الشخص الذي كان يبحث عنه. كانت تابعات المعسكر يرحن ويجئن حاملات سلالاً من الثياب النظيفة على رؤوسهن، يخفقن الشوكولاتة في مراجل ضخمة بعد طحنها في مطاحن كبيرة، يركعن على ركبهن ويغسلن، ويحضرن خبز الذرة في تلك الوضعية الأمومية الذليلة، فوق مطحنة الذرة الحجرية التقليدية، وإحداهن، أنشط من الأخريات تبدو وكأنها تعتني بكل شيء وبالجميع في الوقت نفسه، شعرها مشوش، قدماها عاريتان، وتمسح أنفها الذي كان يسيل بسبب برد مزعج.

جنود يرتدون قمصاناً وبمناديل مربوطة حول رؤوسهم، فرسان بمناجل وسيوف، خيالة أنيقون كالمرتزقة القدماء، يجلسون على صناديق التموين، مختالين بمناديلهم الحريرية المطرزة في زواياها والتي تعوم بحرية حول أعناقهم، أبواطهم الخاصة بالحملة جميلة اللمعان، بنطلوناتهم مطرزة بالصفائح الذهبية. أما الذين لا يجلسون على الصناديق فقد استخدموا مقاعد مصنوعة من الأماليد التي كانت منهكة بحيث بدت هي أيضاً

كالذهب. لكن لا يمكن أن يكون أحد منهم كينتانا - إلا إذا كانت عينا بالتاسار بستوس الحسيرتان، والعصبيتان، غير قادرتين على التقاط القائد - دون شك لأن القائد لم يكن مختلفاً عن أي شخص آخر.

ربما كانت فكرة كرسي الأغصان والذهب هي التي جعلته يدير رأسه ويلمح رأساً من الشعر الأشقر اختبأ بسرعة في سقيفة للتبغ، مختلطاً مع الأطفال الضاحكين المختبئين هناك وهم يلعبون لعبة الغميضة. خرج الصبي الأشقر معصوب العينين بمنديل، وهو أكثر بياضاً من الأوساخ التي على قميصه القطني الخشن وبنطلونه. اصطدم بجسد بالتاسار وعاد راكضاً إلى السقيفة بينما ارتفع صوت ضحك رفاقه.

كان بالتاسار مندهشاً من هدوء القوات والنساء والأطفال الذين تبعوهم من مكان إلى آخر متغلبين على مسافات القارة الشاسعة بسبب الحرب، ربما ربطوا فكرة الحرب بنهاية قرن من العزلة وبرروا بحب الموت، والألم، والفشل، كل ذلك من أجل الحركة والاتصال مع رجال ونساء وأطفال آخرين.

هدوء أم إيمان بالقضاء والقدر ؟ بالكاد نظروا إلى بالتاسار، وأجابوا على جميع أسئلته باختصار، تقريباً بعبارات أنيقة ودقيقة. سؤال واحد فقط ترك دون إجابة: «أين كينتانا؟» «من منكم الكاهن؟»

بدوا وكأنهم يقولون إنه إذا نجح في الوصول إلى هذا المكان البعيد، فهذا يعني أن هذا الشاب واحد منهم، وإذا لم ينجح لن يتركوه على قيد الحياة... في غضون ذلك، لماذا ينزعجون؟»

«قبل أن يصبح كاهناً كان عاملاً في مزرعة وسائق بغل، إنه يعرف الأرض بشكل أفضل من أي أسباني أو كريبيولي محلي. وإذا لم ينته رابحاً الحرب فإنه لن يجعل أعداءنا ينتصرون أبداً.»

«كان دائماً فقيراً و لا يزال. إنه كاهن كفافي. آخرون يحصلون على أجورهم وأموالهم من مصادر خاصة. أما هو فقد جرد من ذلك. كان لديه راتب جرده منه ملك إسبانيا، فقط ليظهر سلطته وقذارته.»

«تابع يا هيرمينيغيلدو. لا تقل للسيد إن الأب كينتانا لم يتمرد إلا لأنهم جردوه من دخله.»

«لا، أعتقد أنه تمرد ضد عزلته في العالم. انظر إليه يجلس هناك.»

«احذر يا هيرمينيغيلدو، اخرس، لدينا أوامر.»

«اعذرني يا أتناسيو، لقد حدث وخرج الكلام.»

قال الرجل الذي يدعى أتناسيو لبالتاسار: «لنر إن كنت ستعثر عليه. لا تصدق عيني فأنا أعمى أكثر من خفاش.»

«هل قلت عزلة؟ من يعرف؟ اعتاد أن يحب مصارعة الديكة والمقامرة في بلدته. اختلط مع عامة الناس. من يدري إذا لم يبدأ القتال لينهي القمار وحسب.»

«أو هكذا يستطيع العودة إلى القمار بعد الحرب»، قال رجل عابر يقهقه، كبير البطن ومرح. لكنه أيضاً لم يكن كينتانا، قال بالتاسار لنفسه، بينما كان يتفحص الوجوه الداكنة ووجوه آخرين خلاسيين وقلة قليلة من الهنود، وأغلبية من الهجن.

«رأيت بعض الأطفال الشقر يلعبون. من أين جاؤوا؟»

«من هنا. ألا تعرف أن فيراكروث كانت المدخل إلى المكسيك لكل أجنبي منذ هرنان كورتيز وأنه يوجد الكثير من الأطفال ذوي الأعين الزرق والشعر الجميل في هذه الأنحاء.»

«جميعهم أبناء ليال بلا نوم.»

«ليس هكذا. أنت ترى، قائدنا جيد جداً في الاختباء. مرة في غواناخواتو كان يهرب من الإسبان راكضاً حين لم يكن لدينا أسلحة، وانتهى عاشقاً لزوجة محام مشهور ينتمي إلى التاج. غمزنا وأخبرنا: لن يفكر أحد أبداً أن يبحث عني في سرير السيدة.»

«أتريد العثور على الأب كينتانا؟ ماذا لو كان ميتاً ولا نريد أن يعرف ذلك أحد.»

«ماذا لو أنه لم يوجد أبداً وأننا اخترعناه لنخيف الإسبان وحسب.»

«لكن يا سيدي لا تصدق هذه القصة لأن البشر الذين يعتقدون أن بابا أنسيلمو ميت يموتون أنفسهم من الخوف حين يشاهدونه بعد أن يظهر من جديد.»

«يعتقدون أنهم ضربوه، أنه يموت من الجوع، أنه يعيش في كهف وأنه صار جباناً. لكن كينتانا ينبعث، يعود ويبدأ من جديد. لهذا سنتبعه إلى أي مكان. إنه لا يستسلم أبداً.»

«لأنه لن يخسر شيئاً. فهو كاهن مسكين وراتبه، امتيازاته الملكية، كانت الثروة الوحيدة التي حصل عليها الكهنة الفقراء في إسبانيا الجديدة.»

«كيف يملك أي شيء وهو ذهب إلى الحرب لأنه يؤمن أن رجال الدين يجب ألا يحصلوا على أي شيء، بما أن قوانين روما تمنعهم من امتلاك أي شيء؟»

«توقف، ماذا عن تلك البزات الأنيقة التي يحب أن يرتديها؟ جميعنا نعرف ذلك.»

«إذاً، من الذي لا يحب البزات الأنيقة؟ لماذا ينبغي أن نبرهن أن الإسبان يقولون الحقيقة حين يدعوننا بالشحاذين الذين يرتدون الأسمال؟ على المرء أن يبدو في أجمل صورة بين حين وآخر وخاصة في العروض، في المعركة وفي جنازته. ألا توافقون؟»

«الجزء الأفضل يا سيدي أن يتأكد أننا نملك بزات جيدة أيضاً.»

«ولن يقبل أي شخص في القوات إذا كان لا يستطيع أن يمنحه سيفاً وبندقية.»

«إن الذين أفكر بهم هم البحارة الفقراء الذين يعملون للجنرال الأب دون أنسيلمو كينتانا لأنه حين يأسر الإسبان معاطفه فإنهم سيعدمون الخياطين الفقراء الذين فصلوها.»

«كم يكرهونه!»

«لا تكن غبياً، لهذا لا تحوي معاطف الجنرال على رقع.»

«وليس هناك حتى فواتير، أو إشارة واحدة في الدفاتر إلى وصول استلام أو مدفوعات»، قال المحامي الذي يحمل صرة من الورق. توقف ليحتسي كوباً من القهوة يتصاعد منه البخار ناولته إياه المرأة المصابة بالزكام، التي عرضت أن تحمل الأوراق من أرشيف إلى آخر. أعطاها المحامي الأوراق ثم استدار إلى بالتاسار: «أنت تبحث عن كينتانا؟ حسناً يا بني، لقد منحت كلمة السر، أليس كذلك؟ تستطيع أن تعثر عليه إن أردت، أو إذا كنت قادراً على ذلك.»

«هل هو هنا؟»

«لا أستطيع أن أخبرك يا بني، من أنت؟»

«لن أخبرك. ما هو جيد لكينتانا هو جيد لي.»

«أنت لا تتحدث كمكسيكي، لكنك لا تبدو إسبانياً أيضاً.»

«حسناً، إنها قارة كبيرة ومن الصعب علينا جميعاً أن نعرف بعضنا.»

«حسناً يا بني، دعني أقدم لك نصيحة. في الحقيقة يبدو الجنرال هادئاً لكنه يصبح نمراً حين يرفع ظهره، لهذا عليك بالحذر ولا تلعب معه.»

«ماذا تعني؟»

«أي حق تمتلكه لتخاطبني بهذا الشكل المألوف؟»

«وأي حق تمتلكه لتناديني بالصبي؟»

«لدي شهادة في القانون من جامعة بالادوليد الملكية في ميتشواكان.»

«فهمت. في هذه الحالة ماذا يرغب سيادتكم أن يقول لي؟»

«يا بني، أريد أن أخبرك ما حدث لرجل يشبهك كان معنا في حملة أواخاكا. ضابط كريبولي صغير، في مثل سنك تقريباً، وكان متمرداً على الجنرال كينتانا. عصا الأوامر وزار امرأة لكنه وجدها بين ذراعي قائد البلدة الإسباني فشعر القائد بأنه سخيف ومهان وهو يرتدي ملابسه الداخلية. ماذا يساوي الضابط دون بزته، سواء أكان كريبولياً أو أسبانياً؟ لا شيء! هدده ضابطنا الشاب فأفضى الضابط ببعض الأسرار العسكرية. بعد ذلك ركض ضابطنا الصغير ليبلغ عما عرفه لكنه لم يعثر على أحد في مقر

القيادة. وهكذا تصرف بطريقته الخاصة وهاجم دون أذن حرس الحامية الإسبانية في المؤخرة في خوخوتيتلان على طول طريق أواخاكا. وسمح لنا عمله أن نسيطر على أنتغويرا القديمة يا سيد...؟»

«أرى أنك يا سيدي فضولي ووقح في آن.»

«أيها الصبي، أريد الحقيقة، الحقيقة كاملة، ولا شيء سوى الحقيقة، كما نقول في المحكمة.»

«أنا النقيب بالتاسار بستوس. كانت مهمتي الأخيرة هي أن أرافق الجنرال خوسيه دي سان مارتن في حملة الآنديز.»

«ألف عذر أيها النقيب، تبدو...»

«غراً. نعم. إن قصتك تهمني، أكملها من فضلك.»

«سررت بمعرفتك، دعنا نرى الآن. اجلس على هذا الصندوق. نفتقد أسباب الراحة.»

«تابع وحسب. لقد واجهت كينتانا معضلة: أينبغي عليه أن يعاقب الضابط أم لا ؟»

«بالضبط أيها النقيب، إن حدة ذهنك مدهشة.»

«ليس أكثر من مكرك أيها المستشار.»

«أنت تتملقني أيها النقيب. تلك هي المعضلة. يعاقبه أو يسمح بازدهار تقليد من الفوضى والنزوات. تعرض الكاهن كينتانا لما يكفي من أوجاع الرأس وهو يدافع عن نفسه ضد مرسومات الحرم الكنسي واللعنات من أجل الهرطقة.»

«ولن يضيف إلى الحرم الكنسي غياب النظام ؟»

«ولم يستطع أن يسمح للأرستقراطيين الكريبوليين - عذراً أيها النقيب - أن يضعوا أنفسهم فوق القانون.»

«الذين تمثلهم أنت أيها المستشار.»

«بالضبط. أن يتابعوا نزواتهم.»

«وهكذا أمر بإعدامه رمياً بالرصاص.»

«بالضبط. إنه من العدل تحذير الذين يأتون إلى هنا مدعين أنهم وضعوا جانباً الطبقة الاجتماعية وأصبحوا واحداً منا.»

قال جندي يرتدي قميصاً أبيض ويجلس على صندوق أمام زجاجتين من الخمر، كان يدرسهما بينما كان يصنع خرطوشاً من الورق: «انظر جيداً إلى جلدي أيها النقيب: أنت أبيض وأنا أسود جداً. ما الذي تعنيه حريتك لي إذا كانت لا تتضمن حقي في المساواة؟»

سأل بالتاسار الجندي، الذي بدا وجهه، بشفتيه السميكتين المفتوحتين، مرناً وصلباً كزق خمر من الجلد المجعد: «ما الذي تفعله؟»

«أحاول أن أختار بين هاتين الزجاجتين.»

«لماذا ؟»

«لأن نوعاً من الكحول رحيم والآخر عدو. أنظر إلى الزجاجتين وأحاول أن أحذر.»

«لن أقدر أن أحذر. وماذا تفعل بتلك الأوراق؟»

«إنني أحول مرسومات الحرم الكنسي التي نشرتها محكمة التفتيش ضد قائدنا الأب كينتانا إلى خراطيش.»

قال بالتاسار: «لكنك الأب كينتانا.»

رفع الجندي وجهه الأسود المجعد قائلاً: «وكيف عرفت ذلك؟»

«لأنك الشخص الوحيد في هذا المعسكر كله الذي يتردد بين شيئين حتى ولو كانا زجاجتي خمر. وأيضاً أنت تريني رأسك العاري بينما الجميع يغطون رؤوسهم. لا تريد أن تُحدد من خلال قبعتك التي ترتديها دائماً. إن قبعتك ستخونك، ولكن حقيقة أنك تخلعها تخونك أكثر.»

قال كينتانا دون عاطفة مغطياً شعره الأسود المجعد بقبعة سمراء مصفرة بغطائي أذن طويلين: «كلا! ليس الكحول هو الذي يهمني بل خبز القربان المقدس. نحن نصنعه من الذرة ومن البطاطا الحلوة ومن كل ما لدينا. ليس هناك قمح في هذه المنطقة وينبغي أن أفكر بتأثيرات العشاء الرباني ليس على جسد المسيح وحسب، وإنما أيضاً على جسدي. أتفهم؟»

ركز نظره على عيني بالتاسار المبتهجتين دون أن يتوقف عن صناعة الخراطيش وأضاف أنه إذا كان على الصبي أن ينضم إليهم، ينبغي أن يعرف من البداية أنه كل خميس – غداً – على الجميع أن يعانوا بدون الأب مرة في الأسبوع وحسب، من الخميس إلى الجمعة، لكن كل أسبوع دون استثناء يقبلون خبز القربان والخمرة كالجسد والدم الحقيقيين، ليس للمسيح وحسب، بل لجميع الذين يتناولون العشاء الرباني: كينتانا، بستوس، ذلك الرجل الأدرد الذي هناك، المرأة المصابة بالزكام، الأطفال الذين يلعبون لعبة الغميضة. «لا تحاول أن تعرف عدد الذين معي، لأنني أنا نفسي نسيت ذلك في سياق الحرب. كذلك المحامون المصابون بالإمساك والذين يحشون رأسي بالمشاريع والقوانين.» رفع كينتانا صوته بحيث تسمع الأطراف المهتمة: «لأنهم يحبون أن ينجزوا الثورة بطريقتهم، من خلال النظام والقانون، لكن بدوني لن يربحوا أية معركة، حتى ضد الحماة.»

«وهكذا نحن جميعاً، أيها النقيب بستوس، بدون الأب لأن يسوع يموت على الصليب ونبعثه في القربان المقدس وحسب، ينبغي علينا جميعاً أن نعيش هذا الألم المبرّح وذاك الأمل من الخميس إلى الجمعة وإلا لن نملك الحق في أن ندعو أنفسنا مسيحيين. لكن أنا وحسب، يا نقيب، أحظى بمتعة أن أمزج في فمي خبز القربان والخمرة وأن أحرر بلعابي والكحول الجسدين: جسدي وجسد المسيح. ولا يكفي الإبقاء على أيام الجمعة الأولى لأن المسيح قطع وعداً رائعاً للقديسة مارغريت ماري! وهذه ليست مسألة طوبى– غبطة – ونعمة، إنها مسألة ألم وضرورة، كل أسبوع على الأقل، وليس كل يوم كي لا نصدم أي شخص.»

توقف الكاهن أنسيلمو كينتانا ليأخذ نفساً ونظر حوله بمزيج متفرد من الغرور والفكاهة والسخرية والاتحاد مع قومه، وختم كلامه قائلاً: «لهذا ينبغي علي أن أختار بحرص شديد أية خمرة أشرب في القداس. وأنت ترى أنني أصنع خراطيش من مرسومات الحرم الكنسي وأعيدها كشمعات رومانية إلى الإسبان. والآن هيا وتناول طعاماً وتحدث لوهلة، لا بد أنك مرهق.»

نهض.

«آه، نعم، دعني أصافح شخصاً قاتل إلى جانب خوسيه دي سان مارتن. لكن لندخن سيجاراً أولاً.»

(3)

لم يكن هناك وقت لتدخين أي شيء في صباح يوم الأربعاء ذاك في أوريثابا التي فاحت برائحة العاصفة. وحالما حل الوافد الجديد اللغز الذي وضعه أمامه المعسكر، هبط سرب المحامين والنساخين على الكاهن كينتانا بالالتماسات والتحذيرات والطلبات والأنباء: «إذا احتل الأرشيف مسبقاً أكثر من عشر عربات فما الذي سنفعله به؟» قال كينتانا: «أحرقوه.»

«لكن بعد ذلك لن يكون هناك دليل على ما كنا نفعله. إن حملتك أيها الجنرال ميزت نفسها دائماً ليس، من خلال الانتصار في المعارك وحسب وإنما أيضاً بوضع القوانين وتحرير الأرض ومنح دساتير وضمانات فيدرالية لأولئك الذين يعملون في الأرض،وإذا لم يكن من أجل اليوم، بالتأكيد من أجل الغد.»

«حسناً ماذا تريدون؟ أن تدرسوا جميع هذه الأوراق بحيث تستطيعون أن تحرقوا بعضها وتحتفظوا بالباقي؟ إن أوراقكم تسبب لي الجنون، افعلوا بها ما يحلو لكم، لكن احتفظوا لي باثنتين، لأنني أريد أن أحتفظ بهما وأذكرهما إلى الأبد.

«أي ورقتين أيها الجنرال؟»

توقف الجنرال في طريقه إلى مستودع التبغ، حيث كان ذاهباً مع بالتاسار. أخرج سيجاراً من جيب قميصه لكنه لم يرفعه إلى شفتيه أو يشعله. لوح به كزوفا أو سوط أو قضيب أمام أعين المحامين والناسخين.

«واحدة هي وثيقة فعل تعميدي الأول ككاهن أيها السادة. في تلك الأيام كانت العادة تقتضي إخفاء سلالة المولودين حديثاً. كان الجميع يريـدون أن يصبحوا إسباناً، ولم يرغب أحـد بسـوء السمعة الـتي تنجـم عـن تسـميته بأسود أو هجين أو أي شيء آخر. وهكذا حـين عمـدت ذلـك الولـد الأول، كتبت بشكل طبيعي: *من السلالة الإسبانية*. احتفظوا لي بتلك الورقة أيضـاً لأن ذلـك الطفـل الأول الـذي دهنتـه بـالزيت المقـدس كـان ولـدي. الورقـة الأخرى هي قانون أمليته عليكم في مؤتمر كوردوبا والذي ينص على أنه مـن الآن فصاعداً لـن يكـون هنـاك بعـد الآن سود أو هنـود أو إسـبان، وإنمـا مكسـيكيون وحسـب. احتفظـوا لي بذلـك القـانون: الأخـرى لهـا علاقـة بالحرية، لكن هذا يتعلق بالمساواة، التي بدونهـا جميـع الحقـوق أحـلام لا سبيل إلى تحقيقها. ثم أحرقوا ما تبقى وتوقفوا عن مضايقتي.»

لكنهم لم يفعلوا ذلك. شكلوا دوائر سريعة حول كينتانا وبالتاسـار بينمـا كانا يقفان تحت شجر المنغروف المبلـل الـذي تنـافس أريجـه مـع الرائحـة المتصـاعدة لمسـتودع التبـغ، الـذي فـاح برائحـة التربـة الخصبـة والأفخـاذ الأنثوية والشعر المسود من الدخان واللفاح، زهر الربيـع، اليقظـة، الكمـأة، وكلهـا مختلطـة مـع بعضهـا بعضـاً. تمتـم كينتانـا: «يجـب أن نـأخذ احتياطات، يقول كاييخا دل ري إنه مهووس بأسرك على قيد الحياة قبـل الهزيمـة الحتميـة للقوات الملكيـة. إعدامـات، احتجـاز رهـائن مكافـأات للبلدات التي ترفض أن تساعدنا، تدمير تلك التي تسـاعدنا – جميـع هـذه الأشياء تزداد ياجنرال, والأسـوأ مـن ذلـك هـو أن المكسـيكيين الكرييوليـين الذين يكرهونك جداً لا يريدونـك في الأفـق السياسـي حـين يسـتولون علـى السلطة بعد الاستقلال.»

وفي هذه المرة نظر إليهم كينتانا برعشة عصبية في جفنـه الأيسـر: «مـاذا تشيرون علي أن أفعل.»

«تصالح معهم يا جنرال، أنقذ شيئاً ما من كل هذا، وقبل كل شيء أنقذ نفسك.»

«أصغ إليهم يا بالتاسار. هكذا تخسر الثورات وحتى خصيتيك.»

«تصالح أيها الجنرال.»

«الآن متى تحين الساعة الأخيرة، متى يصبح عدوي الحالي – إسبانيا – على وشك أن ينهزم، ومتى سيكون عدوي التالي هو الضباط الكريبيوليين؟ ولكن إذا لم أتصالح طيلة عشر سنوات مع ملك إسبانيا الذي هو على الأقل منحدر من الملكة إيزابيلا الكاثوليكية، فلماذا أتصالح مع كريبيولي صغير وسخيف مثل دون أوغستين دي أتربيده؟ من تظنونني أيها السادة؟ ألم تتعلموا أي شيء طيلة عشرة أعوام؟»

«حسناً، ما الذي ستفعله إذن؟»

كان المحامون يوجهون السؤال لأنفسهم أكثر مما هو يوجهونه لكينتانا.

«الشيء الوحيد الذي فعلناه منذ البداية. حين كنا دون أسلحة عوضنا ذلك بالعدد والعنف. بدأنا الحملة بحثاً عن الأسلحة، وهكذا سننهيها. إذا ضربوا حصاراً سنأكل لحاء الأشجار والصابون والحشرات كما فعلنا تماماً حين انضممنا إلى موريلوس في كواوتلا. إذا أسرونا وحكموا علينا، سنهب أرواحنا لله.»

كان ينبغي ألا يكون جبرياً، كان يجب أن يفكر بهم، أن يهاجم أتربيده، وهو نفسه، أنسيلمو كينتانا، بسبب نفوذه على القوم، ينبغي أن يعلن نفسه سموه الأكثر هدوءاً ويجب أن يشكل مع مستشاريه مجلساً من الوجهاء للمملكة.

«إن المجلس السياسي الوحيد الذي آمل أن آراه هو نهران ينضمان إلى بعضهما، والسمو الوحيد الذي أريد أن أجربه هو قمة الجبل. ستكون المكسيك جمهورية وليس مملكة. وإذا كان هناك من لا يحب طعم ذلك فليجمع عدته ويرحل. ثمة كثيرون آخرون يمكن الاختيار منهم. معي تعرفون إلى أين أنتم ذاهبون، وبدوني لا نذهب إلى أي مكان. إذا انضممت إلى الإسبان فإنهم يطلقون عليك النار. لقد انتهى العفو، انضم إلى أتربيده وسوف يذلك. اعذروا غروري. أعرف أن هذا ذنب خطير.

أمسك كينتانا يد أحد المحامين، ذلك الذي دعا بالتاسار بالصبي وقبلها. ثم، بدون أن يفلتها،انحنى أمام المحامي وعيناه منخفضتان طالباً الصفح عن نوبات غروره، لقد احترمهم، قبل أي شيء آخر، لأن ما فعلوه، سيبقى، بينما ما فعله ستحمله الريح وتحوله إلى زرق طيور. قال وعيناه لا تزالان منخفضتين: «ليس هناك مجد أعظم من كتاب، ولا عار أعظم من انتصار عسكري. سامحني. أفهم أنه بدون الثورة، كانت حياتي ستصبح غامضة، دون أن تحوي حوادث أعظم من علاقة حب مع امرأة غفل بين فينة وأخرى. لستم بحاجة إلي.»

نهض ونظر إلى كل منهم في عينيه: «فعلاً سامحوني، ولكن طالما أن هذه الحملة ستستمر فإن الرجل السمين الوحيد هنا هو أنا.»

قهقه، أدار ظهره، وتركهم منذهلين من خطابه ذي الأسلوب الفيراكروثي السريع كالنار، الذي يختلف عن خطاب المحامين الملهم أحياناً لكن السخيف، قال المحامون لأنفسهم، وهم يديرون ظهرهم إليه ويتجهون إلى مكاتبهم المرتجلة بين جبالهم الورقية. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي فعل ذلك بهم فيها، وكانوا لا يزالون هنا. لماذا؟ لأن عشرة أعوام هي فترة حياة كاملة في هذه الأنحاء حيث، إذا لم تحدث معجزة، لا أحد يعيش إلى ما بعد سن الأربعين، ولأن الكاهن كان على صواب: عند هذه النقطة انتموا إليه، كأولاده ونسائه، أو إذا شئتم، كوالديه. لا أحد سيصدقهم لو حاولوا أن يغيروا الأطراف. لكن رهان باسكال لن يعمل، لأنه إذا لم يربح الإسبان فإن الكريبوليين سيربحون. لا أحد سيصدقهم.

قال المحامي الذي لن ينزع قبعته السوداء أو معطفه الخاص بالجنازة حتى ولو نشب القتال، بينما جعّد أنفه كي لا تنزلق نظارته إلى الأسفل أكثر مما هي عليه: «حسناً! حسناً! في إسبانيا الجديدة هذه، ما من فعل متأكد من النجاح كالخيانة. خان كورتيز موكتيثوما وخان التلاكسكالتيكس الآزتيكيين، وخان أورداث وألبارادو كورتيز. سترى أن الخونة سيربحون وكينتانا سينهزم.»

وفكر هؤلاء الرجال، بسبب سوء حظهم وعلى الرغم من كل شيء، بالأجيال القادمة أكثر مما فكروا بربحهم المباشر. ولهذا السبب كانوا لايزالون مع كينتانا، والكاهن، على الرغم من دعاباته، قد احترمهم. وإذا كانوا يريدون مكاناً مشرفاً في التاريخ، فهو هنا إلى جانب الكاهن. وإذا اعتمد طريق العظمة على كتابة سلسلة قوانين ألغت العبودية وأعادت الأراضي إلى الجماعات وضمنت الحقوق الفردية، فإنهم سيصفون إلى جانبه إلى أن يتم صفهم أمام فرقة الإعدام.

كان كينتانا يعرف ذلك، وعلى الرغم من أنه كان يزعجهم كل يوم بإهاناته، كان يؤدي شهرياً، مع عشائه الديني، نوعاً من العشاء المدني.

«لم يشهد تاريخ المكسيك أبداً ولن يشهد في المستقبل رجالاً أكثر وطنية وشرفاً منكم. أنا فخور بمعرفتي لكم. أنتم، المتمردين، ستنقذون شرف الأمة على مر الزمن.

لم يقاتلوا. كانوا يكتبون القوانين وكانوا قادرين بشكل كامل على الموت من أجل ما شعروا به وكتبوه. كانوا على صواب، هذا ما كتبه بالتاسار لدوريغو ولي، أنا، فاريلا. ألم يكن القانون هو الواقع نفسه؟ هكذا، طوقت دائرة المكتوب مؤلفيها وأسرتهم في العالم الخيالي النبيل لقواهم الابتكارية الخاصة: المكتوب هو الواقعي ونحن مؤلفوه.

أيمكن أن يكون هناك مجد أعظم أو يقين أكثر صلابة لمحام من أميركا إسبانية؟

«ومن هو، من الأرجنتين إلى المكسيك، يا فاريلا - ابتسم لي فاريلا وهو يقرأ الرسالة - الذي لا يسجن في صدره محام يصارع كي يخرج ويلقي خطاباً؟»

كينتانا، الذي هو ثعلب أكثر من رعاته، قال لبالتاسار حين أشعلا أخيراً سيجاريهما في مدخل أحد مستودعات التبغ: «ربما سيهجرونني وربما لن يفعلوا، لكنهم يعرفون جميعاً أنهم مدينون بشخصيتهم لي، حتى ولو أفرحهم جميعاً أن يرسلوني إلى أبرشيتي الريفية.»

«إن التناقضات في الشخصية البشرية لن تتوقف أبداً عن إدهاشي»، قال دوريغو متنهداً حين قرأت له السطور: كـان منشـغلاً بعناد في إدارة سـاعة على شكل عربة مغطاة بقبة زجاجية إهليليجية.

(4)

روى كينتانا المزيد عن ماضيه وهو يتناول العشاء وحيداً مع بالتاسـار في مطبخ مشغل التبغ. تصاعد دخان كثيف مـن المجـامر الـتي كـانت النسـاء تهويها، حين، وضعت واحدة منهن، وهـي المـرأة الجزعـة الـتي تشـهق، والتي رآها بالتاسار حين وصل إلى المخيم، كعكاً محلى من غلـف كوسـت، ملفوفاً بأوراق لسان الحمل، في صحونهم القصديرية. تبـع هـذا أكـواب مـن السيفتشي، على طـراز كامبيتشـي، مزيـج مـن المحـار والقريـدس وشـرائح الإسكالوب بعصير الليمون، مع لحوم متبلة كالتي تعد في أواخاكـا، عابقـة بالزعفران والفلفل.

قـال كينتانـا إنـه ينبغـي ألا يحكـم عليـه كمتمـرد بسـبب فقدانـه لامتيازاته، على الرغم من أنه أقر أن هذا كان السبب الرئيسـي للجوئـه إلى السلاح. بدا التمرد من أجل سبب كهذا كمثل الانتقام، بينمـا بـدا التمـرد مثل الضغينة. ولا يمكن أن يأتي شيء جيد من الحقد. ينبغي على بالتاسار أن يعتبر أيضاً أن الإصلاحات البوربونية أكدت أنهـا وحـدت بـين الواقـع والقانون وحسب. رائع!! في تلك الحالة، لا يحـق للبابـا نفسـه أن يمتلـك أكثر مما يحتاج من أجـل راحتـه الشـخصية. ولا يسـمح لرجـال الديـن أن يمتلكوا الأرض، الثروة والقصور. إن القانون الكنسي يمنع ذلك.

جاءت ثورة الاستقلال وهو، كينتانا، بدأ يفكر بها ويبحث عـن سـبب أفضل من الضغينة ليصبح رجل عصابات. لم يكن الأمر سهلاً، حتى حـين كان أصغر بعشر سنوات، ليترك هدوء منصب راعي الأبرشية ويجازف بحياته.

«أكان ينبغي علي أن أبقى هناك دون أن أفعل شيئاً؟ كان بوسعي ذلك. كان ذلك ممكناً. لماذا انضممت إلى الثورة؟ لم أفعل ذلك لأن التاج جردنا من دخلنا نحن الكهنة الفقراء ولأن دخلي كان ثروتي الوحيدة. سوف أضجرك. بالإضافة إلى ذلك، ستكف عن تصديقي. إذا أخبرتك أنني قدت كثيرين خطوة واحدة وقلت لنفسي إذا كان كل ذلك مسألة احترام للقانون عندئذ علينا أن نتابع الطريق إلى النهاية، لن تصدقني حتى أشرح لك شيئاً ما أكثر أهمية. وهذا من أجل أن أهجر سلامي وهدوئي أو أن لا أمكث في أبرشيتي كمغفل بينما الجميع اختاروا طرفاً. كان علي أن أؤمن أن ما فعلته كان مهماً. لا يهمني أنا استقلال الأمة وحسب وإنما أيضاً إيماني وديني وروحي. وهنا المكان الذي بدأت فيه الصعوبات، لأنني سأحاول أن أقنعك أن تمردي السياسي لا ينفصل عن تمردي الروحي. أعرف، لأنني أعرف من أنت يا بالتاسار، لأنني أرى وجهك وأعرف ما يعرفه أولاد مثلك، كم قرأوا كثيراً وكل ما تبقى بالنسبة إليك لا يمكن أن يكون هناك حرية مع الدين، استقلال مع الكنيسة، أو عقل مع الإيمان.»

تنهد وقذف بصخب قطعة من الكعك في فمه كانت محمرة من الفلفل بحيث بدت كجرح.

«ولكن لنتحدث عن كل هذا. نحتاج إلى الوقت والفرصة أما الآن فلا نملك كليهما.»

أمسك رسغ بالتاسار الفاقد للصبر: «أعرف أنك جئت من أجل أسباب أخرى وليس كي تسمع حديثي.»

«أنت مخطئ. أنا أكن لك احتراماً عميقاً.»

«كن صبوراً. أمر يقود إلى آخر. أنت تعرف أنه كان في بلدتي شحاذ ضرير يرافقه كلبه دائماً. في أحد الأيام هرب الكلب واستعاد الضرير بصره.»

حدق بالتاسار طويلاً بالكاهن الذي تابع تناول طعامه مصدراً ضجة وبمتعة، متذوقاً المول الأصفر إلى آخر حبة أرز. أخيراً قرر بالتاسار أن يسأله: «لماذا تمتلك هذه الثقة بي أيها الأب؟»

مسح كينتانا شفتيه وخص الشاب الأرجنتيني بنظرة صريحة وودودة:
«كنا نقاتل من أجل السبب نفسه طيلة الفترة نفسها. ألا يبدو هذا لك سبباً كافياً؟»

«هذا ليس إلا حقيقة لا تقنعني؟»

«فكر إذاً أنني أرى فيك شيئاً أكثر وأفضل مما ترى في نفسك. أحس أنك تشعر في قلبك أنك غير راضٍ قليلاً عن كل ما فعلته.»

«هذا صحيح. لدي ذنبي وهيامي، لكن لا أتمتع بالعظمة. أجد نفسي مثيراً للضحك.»

«لا تخش من العظمة. اخش من روحك.»

«أحذرك أنني لا أؤمن بالكنيسة أو بالله أو بالسلطة المطلقة للغفران التي تظن أنك تمتلكها.»

«هذا أفضل كثيراً. ارتح اليوم وغداً سنلتقي في منتصف النهار في المصلى هنا في مستودع التبغ. تذكر أن غداً هو الخميس وأنه في كل خميس أصبح قوياً جداً، وأتألق روحياً. تجهز للقتال معي. عندئذ ستحظى بمكافأتك، وسيحل كل شيء. أعتقد أن سنوات صراعك العشر لن تذهب سدى.

لم يسمح بالتاسار للمحادثة أن تنتهي عند هذه النقطة. اعتراه شعور، كما كتب لنا عن ذلك فيما بعد، أن الكاهن كان محقاً وأن هذه ستكون الساعات الأخيرة لحملته الأخيرة من أجل الحب والعدالة.

«ما الذي تراه فيَّ أيها الأب ليجعلك تعاملني بهذا الاحترام... أو الاهتمام البسيط؟ اغفر لي جرأتي في السؤال.»

يمكن أن يكون كينتانا قد حدق إليه بشكل مباشر في العينين. اختار بدلاً من ذلك أن يغرف بقية المول برغيف ذرة.

«لقد توليت مسؤولية أرواح أخرى.»

«لكنني...»

«لقد ارتكبنا جميعاً جرائم. هل أخبرك أمراً؟ هل تريد أن تعرف جرائمي؟»

«أيها الأب، باسم العدالة، استبدلت طفلاً فقيراً بطفل غني في مهده. مات الطفل الفقير بسببي. سرقت الطفل الغني من أمه وتركته لمصير مجهول. ورغم ذلك، تجاسرت على حب أمه، وعلى مطاردتها بشكل سخيف عبر نصف الأميركيتين. عشر سنوات أيها الأب دون نجاح أو مكافأة، وكل ذلك لأصبح، كما تقول، مغفلاً... هل تسمي هذا عدالة؟ أيستحق هذا الاحترام؟ ثم هجرتي لشقيقتي دون تفكير، دون أن أبالي بقدرها، باسم هيامي؟ لم أمنح أبي أملاً أخيراً أو حناناً. هل أنا جدير بالعطف لأنني بقيت على قيد الحياة في تشاكوبكو بينما مات رفاقي؟ هل كنت أفتقد للرحمة حين قلت حقيقة قاسية للمركيز دي كابرا وهو على فراش موته؟ أيها الأب كينتانا... لقد قتلت رجلاً في المعركة.»

«هذا طبيعي.»

«لكنني لم أقتله كجندي. قتلته كرجل، كأخ. قتلته لأنه كان هندياً. قتلته لأنه كان أضعف مني. قتلته كفرد، ظلمته، على الرغم من أنني لا أعرف اسمه ولا أستطيع أن أذكر وجهه.»

بقوة جاءت من إيمان كلي، طلب منه كينتانا أن يهدأ: «لا تجبرني أن أعترف لك بذنوبي.»

«ماذا؟ أنك مهووس بالنساء، أنك تحب مصارعة الديكة، أنه لديك أطفال غير شرعيين في كل أنحاء البلاد، أنك تحب الأردية المترفة؟ أهذه ذنوب خطيرة أيها الأب ؟»

قال بتنهيدة طويلة عبرت عن استيائه: «غداً سأعترف أمامك. سأفعل ذلك غداً. أقسم لك. سأعترف أمامك، على الرغم من أنك لا تؤمن بقوة الغفران. سأعترف أمام أخي الأصغر، الذي تولى في مراكيبو مسؤولية امرأة سقطت واعتنى بجندي مجروح من الأعداء. غداً، الخميس، سأتحدث إلى أخي في الرحمة.»

(5)

نام بالتاسار في تلك الليلة في أرجوحة شبكية هدهدته، لكن ما هدهده أكثر هو الإنهاك الذي لم يأت من يوم واحد وإنما من تراكم عشرة أعوام. كان نوماً جاء حين كان شيء على وشك الانتهاء، نوماً وشيكاً قال له: هنا أفترق عنك، عليك أن تتغير الآن، يجب أن تتولى مسؤولية المدينين والديون، كما يفعل هؤلاء الصرافون وأمناء السر الذين يرافقون الأب كينتانا.

أيمكن أن يكون كينتانا الموثّق العام لحياة بالتاسار بستوس؟ غداً يوم الخميس. سيلتقيان، طلب منه الكاهن أن يجيء إلى المصلى ظهراً. أكانا يملكان شيئاً آخر يقولانه لبعضهما؟ اعتقد بالتاسار أنه اعترف أمام الكاهن في بعد الظهر ذاك وأن ذنوب الكاهن كانت حديث فيراكروث. ماذا كان بوسعهما أن يقولا أكثر من ذلك لبعضهما؟ إلى أي طقس دعاه الرجل الفخور المحاط بهالة من إنكار الذات الغامض؟

كان قد أخبر بالتاسار أنه شاهد في الشاب شخصاً تولى مسؤولية آخرين: المرأة في منزل المهرج والدوقة والضابط النحيل المشوه... كانت تلك قائمة حقيرة من الديون إلى جانب عمود المدينين الذين أحصاهم بالتاسار لكينتانا.

لكنه نام نوماً عميقاً بينما كانت الأرجوحة تهدهده. من الذي كان يهزها؟ لم يكن هناك نسيم وسماء أوريثابا كانت في حالة حداد لكنها لم تبك، وانحدر، دون أن يتحرك، في النوم. وبخ بالتاسار نفسه بسبب عدم إخلاص أكبر والذي كان أنه أخبر الكاهن المتمرد أن كل ما فعله، الصالح والطالح، كان له هدف إيروتيكي وجنسي وعشقي (كما أحب الكاهن أن يدعوه) وهو أن يصل إلى أوفيليا سلمنكا أخيراً كي يلمسها بعد عشرة أعوام من الهيام الرومانسي الذي اشتهر في أنحاء القارة كلها، وأصبح مصدر جميع التنهدات والنكات، وتحول إلى ألحان ورقصات.

ولكي يصل إليهـا، محتفظاً بهيـام استحواذي وفريـد، كـان عليـه أن يضحي بحب الحسناء التشيلية غابرييلا كو، بما أن عدم الإخلاص لأوفيليا سلمنكا، حتى ولو لم تعرف ذلك، سيعني خيانة غابرييلا الفاتنة أيضاً.

يريد أن يراها وجهاً لوجـه، ليقـول لهـا: أحبـك. أغفـر لـك. لأي مـن المرأتين سيقول هذا؟ ألا تغذي كـل منهمـا حـب الأخـرى، ثـم ألم يشـرب الحبان من نبع مشترك هو الغياب؟ هل رغب بهما كثيراً لأنه لم يمتلكهمـا وحسب؟

فتح عينيه. توقفت الأرجوحة الشبكية عن الاهتزاز. أغمضهما ثانية وقد اجتاحته عظمة فرضيته. من أجل ماذا سيسامح أوفيليـا سـلمنكا؟ مـا الـذي كان يعرفه عنها عدا الثرثرة، الكلام الفارغ، قصائد فكاهية غالباً ما خلقـت حقيقة جديدة وحسب من أجل القافية؟ كيف تجاسر؟ ألم تقل له غـابرييلا في سانتياغو دي تشيلي أن التمثيل غير مخلص،عابر، لا يترك أثـراً سـوى الكلمات؟

ثم هبط عمودياً ثانيــة مـن قمـة وعيـه المثـار إلى لاوعـي ظريـف يخـدره هاجس السلامة والراحة بعد عشرة أعوام من السمو. وفي أعمـاق نومـه كـان دائماً في طريق العودة إلى إلدورادو. ممسكاً يد سيمون رودريغز عـاد إلى تلـك الهاوية الأكثر علواً، إلى ذلك الرّعن الكبـير، قلـب جبـل الكويتشـوا، سرّه النوم، وهناك اتهم نفسه، يائساً وغاضباً، وقد اعتراه شعور مريع بأنه فقـد فرصته، لأنه توقف لحظة ليراقب مرور الأحلام في الأعـين المضيئـة لسـكان المدينة حيث كان كل شيء يتحرك في الضوء ويولد من الضوء ويعودإلى الضوء.

وبخ الأحلام ورفض امكانية فهم أي شيء من خلال حلم لم يكن حلمه. لم يكن مرتبطاً بحلم العقل والإيمان بالتقدم المادي، بيقين أن نجاح الكمـال البشـري مؤكـد، وأنـه، في النهايـة، سـتصبح السـعادة والتـاريخ، والـذات والموضوع، شيئاً واحداً، على نحو حاسم.

ربما كانت القصة الأخرى – التحذير وامكانية النجاة – في أعين سـكان إلدورادو، حيث كان الضـوء ضروريـاً لأن كـل شـيء كـان مظلمـاً وحيـث،

للسبب نفسه، يستطيعون أن يروا وأعينهم مغمضة، ويكشفوا أحلامهم على شاشات أجفانهم، يحذرونه ،هو بالتاسار بستوس، أنه، هناك غياب للسبب بدونه سيكف السبب عن كونه معقولاً. حلم ينكر، بشكل متزامن، ويؤكد السبب. إن لكل قاعدة استثناء، الأمر الذي يجعل القانون جزئياً ومقبولاً. لكن إحساسه الأكثر حيوية بينما كان يغادر إلدورادو لم يكن أن الأمور تكمل بعضها، بل، على العكس، تنفي بعضها:

ليس الشر إلا ما يخبئه عقلنا ويرفض أن يتأمله.

والخطيئة الحقيقية هي أن نفصل العالم المحسوس عن العالم الروحي.

بعدئذ، في حلم، توقفت أوفيليا سلمنكا عن كونها صورة على الحائط المتحرك لكهف هندي، مرئية ولكنها عصية على اللمس، وممتعة كما أعلنت عنها عيناه من على شرفة في بوينس آيرس في ليلة أيار البعيدة جداً.

لكنها الآن موضوع لمسته (كانت حيواناً مفرداً لا ينتهي يرتدي حريراً خافقاً)، و كان يسمعها (كانت قداساً في صحراء، صوتاً خارج الوعي تقول له دون أن تمنحه فرصة للإجابة: «أنت تحبني! أنت لا تحبني!»)، وكان أيضاً يشمها (كانت نتانة ممتعة، النتانة،التي بدونها ليس هناك حب وعطر ورقة برسيم)، وكان يراها كذلك: أوفيليا سلمنكا لديها عينان على حلمتيها حدقتا إليه بغضب، بإغواء، باحتقار، بسخرية، إلى أن جعلتاه يستيقظ مجفلاً.

توقفت الأرجوحة عن الاهتزاز. كانت أوفيليا سلمنكا مالكة العالم.

(6)

كان أنسيلمو كينتانا يقف أمام المذبح. وتجسدت الصورة الظلية لبالتاسار بستوس في الضوء، عند المدخل إلى المصلى، وانتظر الكاهن إلى أن توقف صوت كعبي بوطه على أرضية من الآجر المتكسر والناعم جداً في هذا

المناخ الماطر. حين كان قريباً، وضع كينتانا يده على كتف بالتاسار وقال له: «لم تدعني أعترف البارحة. الليلة ستجلس مكاني على كرسي الكاهن، وسوف أركع إلى جانبك وأتحدث سرياً من خلال الحاجز الشبكي.

«أعرف أنك لا تؤمن بالقربان المقدس، ولذلك لا يهم أين نفعل ذلك، مع ذلك يهمني أن أركع على ركبتي لكي أتحدث معك. اليوم هو الخميس، ومن الآن إلى الغد، وكل أسبوع، يموت يسوع المسيح من أجلنا مرة أخرى. كثيرون ينسون ذلك، لكنني لا أنساه. إن أهم ما أفعله هو أنني أذكر كل من يهتم بالإصغاء، أنه إذا كنا هنا أحياء فذلك لأن يسوع ضحى بنفسه ليمنحنا الحياة على الأرض. احمل في ذهنك، إذن، يا بالتاسار، أن ما سأقوله لك هو تحضير لفعل الإيمان المطلق، والذي هو القربان المقدس. ولا ينفصل القربان المقدس عن تضحية المسيح، رغم أن تمثال المسيح المصلوب يكفي، في كل مرة أشرب فيها دم المسيح وآكل جسده، أضيف إلى تضحيته وفعله باسم الأحياء والموتى. إن الصليب هو نقطة التقاء كل شيء: التضحية، الحياة، الموت. إن تمثال المصلوب كما علمونا في المعهد اللاهوتي كان كافياً بحد ذاته. لكن بالنسبة إلي، القربان المقدس أكثر قرباً من الكفاية القائمة على التضحية. ليس أمامي طريق إلى المسيح أكثر يقيناً من القربان المقدس.»

لم تفسح كلمات كينتانا أي مجال للإستجابة، وعلى أي حال، أعاقت القوة التي قاد بها بالتاسار إلى الكرسي أي إغراء.

تهاوى بالتاسار على الكرسي بإحساس رصاصي جعله يرسو هناك وكأنه في زنزانة كريهة، صورة طبق الأصل للكفن الذي فاح مخمله المتآكل برائحة قطط واقعة في فخ.

ركع أنسيلمو كينتانا في الخارج، قرب أذن بالتاسار غير الراغبة.

قال الكاهن: «لم تسمح لي البارحة أن أعترف.»

«لكنني أخبرتك أنني لا أؤمن بقوة الغفران.»

«تعتقد أنني سأحدثك عن ذنوبك بحيث تبعد نفسك عني. لكن ذنوبك لا تهمني، مصيرك هو الذي يهمني وما سأعترف به لك هو أيضاً جزء من مصيري. لنبدأ: إنني أعترف يا أخي أنني أمرت بإعدام مائة جندي إسباني كانوا في السجن وفي المستشفيات وذلك لأنتقم لموت ولدي الأكبر على يد الملكيين. أمرت بذبحهم، ولم تمر في ذهني فكرة الصفح أبداً، لقد أعماني الأمر. قل لي إن كنت ستغفر لي لو كنت أنا والدك وأنت ولدي الميت.»

لم يقل بالتاسار شيئاً. كان شعور من الحياء المتنامي يسيطر عليه، وتملكه احترام وعطف لا ينفصلان للرجل الذي كان صوته يصبح أسود وكثيفاً وخارجاً من الحلق، يعود إلى جذور إفريقية عريقة، وهو تقريباً صوت مرتل مزامير لم يرغب بالتاسار أن يقاطعه قبل أن يسمع كل شيء، الفعل الاسترضائي نفسه، ربما، الذي سيسمح للمؤمن أن يكرر التضحية في موضع الصلب، دون أن يأخذ حتى القطعة الأصغر من كفاية استشهاد المسيح.

قرر أن يصغي إليه إلى النهاية دون أن يجادله، أن يستمع إليه وهو يتحدث هناك راكعاً على ركبتيه، وجهه ككرة قديمة قد شيطت: «أفهم صمتك يا بالتاسار، أفهم تحفظك، لكن افهم صمتي. أشاطرك خوفك من ضعفنا، وأخشى مثلك إذا ما نطقت كلمة في إطار الثقة أن يأخذها الشخص الذي يصغي إلينا بعيداً، ستضيع مع سرنا في الحشود، وسنترك تحت رحمته إذا ذكرها، بسبب من اليأس أو الضرورة، للآخرين، وإذا كنت لا تؤمن بي وبمنصبي الكهنوتي أو في قدرتي على غفران الذنوب سأكرر أنني أفهمك، ولهذا السبب لا أطلب أن تعترف لي بشكل رسمي بل أن تقبل تواضعي وأنا أركع أمامك كاشفاً نفسي لك كشخص يحمل سري بعيداً، وبدون أن يؤمن بالقربان المقدس، يمنح سري للعالم. أقدم نفسي لك كمثال. أعترف أمامك، يا بالتاسار، لأنك قلت البارحة أشياء بسببها علي أن أتحمل بعض المسؤولية، ولا يبدو صحيحاً أن عبء علاقتنا، التي لم تكد

تبدأ، والتي يمكن ألا تستمر طويلاً، سيقع علي عاتقي: يوماً ما يجب أن نقدم نبذة ليس عن أنفسنا وحسب، وإنما أيضاً عن كل شخص قلنا له شيئاً ما أو سمعنا منه شيئاً ما. أطلب منك أن تقبل هذا وأن لا تعتقد أنك البارحة وحسب تحدثت وحررت ضميرك وأنني اليوم سأفعل الشيء نفسه: إن مسؤوليتك ومسؤوليتي هذا الصباح هي أن نمنح قيمة لجميع الكائنات التي تفضلت وأصغت إلينا. أتحب أن تعرف شيئاً ما؟ أخبرتك بجريمتي بحق الأسرى وينبغي أن تفهم أنني، تماماً كما تفعل حين تذنب، ارتكبت جريمة الأخلاق الكونية. يقول القديس بولي إن الخطيئة اعتداء على القانون الطبيعي المنقوش في ضمير كل إنسان. وفي حالتي، كانت أيضاً انتهاكاً لقسم الكهنوت الذي يتضمن الصفح والرحمة واحترام مشيئة الله، الذي هو وحده قادر على منح وأخذ الحياة. وبسبب ما فعلته، خفت من عقوبة الجحيم في ذلك اليوم حين انتقمت لولدي المسكين الذي كان يبلغ العشرين، الذي منح نفسه للقتال من أجل الاستقلال، كان شخصاً أنيقاً، بمنديل أحمر مربوط حول رأسه، جعل من الصعب رؤية الدم حين نفذ الكابتن الإسباني المتوحش لورينثو غاروت الحكم. لقد أنقذ غاروت حياته ونغص حياتي... لكنني أدركت يا بالتاسار أنني لم أخش الجحيم العادية والمعاناة الجسدية، خشيت الجحيم التي تخيلتها وتلك الجحيم هي مكان لا يتحدث فيه أحد: مكان الصمت الكلي والأبدي الذي بدون أي صوت. لهذا السبب أركع أمامك وأتوسل إليك أن تصغي إلي، أن تؤجل جحيم الصمت، حتى وإن لم تتحدث معي، حتى لو كان هناك تلميح بالاحتقار في صمتك العنيد. ولا يهم يا أخي الصغير، أقسم أنه لا يهم طالما لا نجعل لغتنا تموت. أصغ إلي: أعترف أنني تمردت لأنني استأت من فقدان مرتبي، لكن تمردي الآن تجاوز تلك المسألة. ولقد قادني تمردي من مكسب إلى آخر، هذا ما أريده أن يصل إليك كي تفهمه. ربحت الإيمان العقلاني دون أن أفقد الإيمان الديني. كان بوسعي أن أقول بسهولة: أنا كاهن متمرد، والذين حرموني كنسياً هم على صواب.. سوف

أمنح نفسي للاستقلال، لحكمة العصر والإيمان بالتقدم، وسوف ألعن الإيمان الديني. كان كل شيء يقف ضد إيماني: غضبي حين أعلنوا أنني هرطوق ومجدف، خوفي حين أنكروا علي خبز القربان المقدس، حقدي حين قتلوا ابني، إغرائي لأصبح متمرداً عقلانياً وحسب. كان هذا صراعي الأكثر هولاً، وهو أسوأ من معركة عسكرية، أسوأ من الدم المسفوح كله والالتزام بالتنفيذ: أنا لا أستسلم أمام قضاتي، لا أقر أنهم كانوا مصيبين أو أن أمنحهم متعة القول: انظروا، كنا مصيبين، كان هرطوقاً، ملحداً، ولقد استحق الحرم الكنسي. يطلبون مني أن أتوب. لا يعرفون أن هذا سيعني تسليم نفسي للجحيم. سيعني الاعتراف بالشر المطلق الذي في داخلي – عقل دون إيمان – لأنني أستطيع أن أخسر الكنيسة التي طردتني لكنني لا أستطيع أن أخسر الله، والتوبة ستعني هذا بالضبط: أن أعود إلى الكنيسة لكن أن أخسر الله لا العقل، الذي يمكن أن يتعايش مع الكنيسة، لكن الله الذي يستطيع أن يوجد دون الكنيسة والعقل أيضاً.»

خفض كينتانا رأسه ورأى بالتاسار قماش قلنسوته الاحتفالية الأسمر المائل إلى الصفرة يخفي شعره المجعد، الذي كشفه الكاهن لكي لا يعرف بين الرجال الآخرين في المعسكر، لكن بفعله لذلك كشف نفسه بمزيد من الجعجعة، أكثر من لو أنه أعلن نفسه بصوت مرتفع: لا أحد إلا أنسيلمو كينتانا يرتدي قلنسوة بين جميع تلك القبعات الرسمية التي يرتديها المحامون والمناديل الحمراء التي ترتديها القوات، هكذا، أنسيلمو كينتانا هو الرجل الذي لا يستخدم قلنسوة ليقنّع نفسه، لكن الذي للسبب نفسه، لا يرتدي سترة طويلة أو يربط منديلاً حول رأسه والذي يحدق متوتراً إلى الزجاجتين لكي يختار الكحول الجيد من الرديء، تماماً كما يمكن أن يختار بين العقل والكنيسة. لكن ليس بوسعك أن تختار الله وحسب: إن الله – مع الكنيسة أو بدونها – هو العقل أو المؤمنون. تابع الكاهن أنسيلمو: «وهنا ركزت تمردي وأنا أقول لك هذا يا بالتاسار لأنك مثل أخي الأصغر في العالم وأنت أيضاً متمرد ضد قوانينه، لكنك تبقى متقبلاً لآراء

جديدة. كان تمردي الحقيقي هو أن أعاني من الصلب، فقدان كنيستي لكن لا الله... تخيل ما جرى في روحي حين حملت السلاح على ساحل الخليج غاضباً من فقدان مصدر رزقي. تخيلني بأنف أفطس وأعمى، تماماً منذ عشرة أعوام يستهلكني الشبق ومحباً للقمار والنساء، كاهن مؤخرة فرس، بقوات من أولاد الزنا المبعثرين في المكان كله. تخيلني غاوياً للنساء اللواتي جئن ليركعن قربي واللواتي اعتقدن أنهن لكي يتلقين الغفران ينبغي عليهن أن يمنحن أنفسهن لي، ولم أخيب أملهن بين فينة وأخرى... حملت السلاح، وقد كنت الرجل الذي كنته، وبعد ذلك هجم الحرم الكنسي مع مطر التسميات: مرتد على الدين الكاثوليكي، إباحي، مثير للفتن، ثوري، منشق، عدو عنيد للمسيحية وللدولة، قائل بمذهب الربوبية، مادي، ملحد، مذنب بالخيانة البشرية والإلهية، غاو، سادر، داعر، ومنافق، خائن للملك والبلاد. لم يحذفوا واحدة يا بالتاسار. لم تحذف محكمة التفتيش جريمة واحدة. رموها كلها على رأسي المسكين، وفي كل مرة تضربني تهمة بين عيني، أقول: «إنهم محقون، يجب أن يكونوا على صواب. هذا صحيح، أنا أستحق ذلك، ودافعي المسكين والملعون من أجل التمرد يجعلني مجرماً في جميع تلك الأمور، وينبغي أن يكون هذا صحيحاً أيضاً... لكنني أعتقد، أيها الأخ بالتاسار، أن محكمة التفتيش، ذهبت بعيداً، كعادتها، واتهمتني بأمور كثيرة، بعضها صحيح وبعضها الآخر همجي، وقلت لنفسي آنذاك: «لا يقدر الله أن ينظر إلي بكثير من الظلم كقضاتي. في قاموس الله من المرجح أن هناك بضع كلمات لي، ولكن بالتأكيد يجب أن يكون هناك قاموس مألوف ليسوع المسيح وخادمه أنسيلمو كينتانا. رموا علي كلمات كثيرة، ولكن كان كافياً لي كل أسبوع، من الخميس إلى الجمعة، وأنت يا إلهي، لا تزال غير قادر على الكلام، يا يسوعي، مع الشخص الأكثر دعارة والسادر والغاوي بين خدمك..»

«إن الكلمة هي الشيء الوحيد الذي يصلنا مع كل شيء آخر يصبح بلا نفع، خائناً، ومهدداً. الكلمة هي الحقيقة المطلقة ليسوع، صلوات يسوع بيننا، ما يسمح لنا أن نقول، دون كبرياء: «أنا مثله...»

رفع كينتانا صوته حين قال ذلك، وكأن إيمانه يمكن أن يرجع كله إلى تلك الكلمات القليلة، ولم يشاهد بالتاسار، في نصف ضوء كرسي الاعتراف، ومن خلال الحاجز المشبك، رفرفة غطائي الأذنين لقبعة أنسيلمو كينتانا، بل رأس غابرييلا كو متوجاً بالغيوم والأعشاب. كان عليه أن يبدد تلك الرؤية الفاتنة لأن صوت الكاهن تواصل بعد أن انخفض وأصبح أكثر ثقة: منذ ذلك الوقت لم أتحدث إلا معه لكنه كان أكثر قسوة من جميع قضاتي لأنه لا أحد يستطيع أن يخدعه، وليس هناك خدع صغيرة معه. الله هو الكائن المطلق الذي يعرف كل شيء حتى ما نتخيله عنه، إنه يفوز علينا ويتخيلنا أولاً، وإذا تابعنا التفكير أن إيماننا أو عدم إيماننا به يعتمد علينا، يفوز علينا مرة أخرى ويجد طريقة ليقول لنا إنه سيتابع الإيمان بنا مهما حدث، حتى ولو هجرناه وأنكرناه. هذا هو الصوت الذي أصغيت له في تلك الليلة التي عانت فيها روحي من المحن بسبب مرسومات الطرد من الكنيسة والدعوات التي وجهت إلي من أجل التوبة: صوت المسيح يقول لي: «سأتابع إيماني بك يا أنسيلمو كينتانا، حتى ولو كنت غاوياً وداعراً وإباحياً ومنافقاً كما أنت، لماذا تنكر ذلك؟ ولكن ما ليس أنت يا ولدي أنسيلمو هو المرتد، الهرطوق، الملحد، أو الخائن لبلادك، هذا ما ليس أنت...»

أصغ إلي بانتباه، يقول لك إلهك: ليس هناك طريقة لكي أجعل تلك الكذبة تمر.

رفع عينيه ليقول لبالتاسار إن كل ما كان يحتاج أن يسمعه من صوت الله هو تلك الكلمات، ليقاتل طيلة عشرة أعوام، «أن لا أستسلم في معركتي من أجل بلادي أو صراعي الآخر من أجل ثقتي ومحبة خالقي». تخيل كيف سيكون أحد الأمرين دون الآخر. لا الله ولا الأمة، وهذا بالتأكيد سيكون مبعث ألمي المبرح، إنهم يعرفون ذلك، ولهذا يدعونني بالهرطوق ويحرمونني كنسياً ويطلبون مني أن أتوب وأعود إلى زريبة الغنم. لكن يسوع قال لي: «أنسيلمو، يا ولدي، لا تكن مسيحياً مرتاحاً، حوِّل حياة الكنيسة

والملك إلى جحيم، لأنهما يفضلان المسيحيين الساكنين. من ناحية أخرى، أنا أعبد المسيحيين الثائرين من أمثالك، لا تربح شيئاً سوى كونك كاثوليكياً دون مشكلات، مؤمناً بسيطاً، رجل إيمان لا يدرك حتى أن الإيمان عبثي وهو إيمان وليس عقلاً بسبب ذلك. لا يمكن للعقل إلا أن يكون منطقياً. الإيمان غير منطقي ويجب أن يكون هكذا لأنه عليك أن تؤمن بي ضد أي دليل، ولو كنت منطقياً لما كنت إلهاً، لما كنت ضحيت بنفسي، لكنت قبلت جميع الإغراءات في الصحراء وأصبحت – هل تصغي إلي يا ولدي أنسيلمو، هل تصغي إلي أيها الأخ بالتاسار؟ – الشيطان نفسه، الفاسد، ذا الذيل الطويل الذي ابتكر المقولة: «أنا أفكر، إذن أنا موجود.» أي تظاهرا حتى أفكاري ليست لي، حتى وجودي نفسه. أنا لا أفكر ولا أوجد وحيداً. أشاطر الله وأشاطرك كل كلمة، يا بالتاسار، وكل خفقة قلب أيضاً. عندئذ تعلمت شيئاً آخر، أن التزامي، باسم البسطاء في هذا العالم، هو أن أكون معقداً. فقط اسأل نفسك الآن بينما أنظر وأستمع إليك إذا لم تكن مرتاحاً في فلسفتك، لأنني أعتقد أنك بسيط جداً في إيمانك الدنيوي بالعقل والتقدم. أنت ورع بشكل غبي كتلك النساء اللواتي أصبحن عجائز في الكنائس، يكنسن ويشعلن الشموع كل يوم. من فضلك يا بالتاسار، كن دائماً مشكلة، كن مشكلة لروسو الذي تؤمن به ولمونتسكيو ولجميع فلاسفتك. لا تسمح لهم أن يعبروا في روحك دون أن يدفعوا شيئاً في مكتب الجمارك الروحي، لا تمنح إيمانك لأي حاكم، لأية دولة علمانية، لأية فلسفة أو أية قوة اقتصادية وعسكرية دون أن تضيف تشوشك، تعقيدك واستثناءاتك، وخيالك الملعون الذي يشوه جميع الحقائق.

ثم صاح الأب كينتانا في ومضة من الفكاهة الجيدة: «حسناً! ألن أكون أفضل لو فقدت إيماني وتجنبت كل ذلك الألم؟ لا يا سيد، لأنني، حينئذ، لن أكون قد قاتلت من أجل الاستقلال. المسألة بسيطة هكذا. سأترك نفسي أهزم في المعركة الأولى. إيماني بالأمة التي أريدها حرة، دون عبيد، دون

الحاجة المريعة لآلاف مؤلفة من كلاب القاع، لجهلة، يحتضرون من الجوع، كل هذا يا بالتاسار لن يكون ممكناً من دون إيماني بالله. من المحتمل أنه لديك صيغتك الخاصة. وهذه هي صيغتي. ولا أطلب منك أن تعقد إيمانك العلماني. لقد جئت من مكان بعيد جداً، وهذه القارة شاسعة. لكننا نشترك في أمرين: نفهم بعضنا لأننا نتحدث الإسبانية، وإذا أحببت ذلك أم لا، لدينا ثلاثة قرون من الثقافة المسيحية الكاثوليكية، تحددها الرموز، القيم، الحماقات، جرائم وأحلام المسيحية في العالم الجديد. أعرف أشخاصاً مثلك: لقد مروا من هنا، ولقد رأيتهم سابقاً، على الرغم من أن الذين رأيتهم كانوا مهزومين أكثر منك، كالمحامين والناسخين، واضعي القوانين، والمرسومات، الذين برفقتي، لقد تحدثت معكم جميعاً طيلة عشرة أعوام. لقد منحتموني الثقافة، التي، يا للحزن! لم أحصل عليها أبداً. كان أبي وأمي بغالين من الساحل وكنت في معهد للاهوت إبان شبابي، وبعد أن كبرت أصبحت في المعهد العلماني مثلكم جميعاً. لكن دعنا نتقدم في هذا. أنا لا أتنبأ بأي شيء - أملك هذا تماماً تحت أنفي، كما هو أفطس ومحطم. جميعكم يفضلون أن ينهوا ذلك الماضي الذي يبدو لكم ظالماً وعبثياً، وذلك لكي تنسوه. نعم، كم سيكون جيداً لو أسسه مونتسكيو بدلاً من توركويمادا. لكن الأمر لم يحدث بتلك الطريقة. أنريد الآن أن نكون أوروبيين، حديثين وأغنياء تحكمنا روح القانون وحقوق الإنسان الكونية؟ حسناً، دعوني أخبركم أن لا شيء كهذا سيحدث أبداً إلا إذا حملنا جثة ماضينا معنا. ما أطلبه منكم هو أن لا نضحي بأي شيء يا ولدي، لا سحر الهنود ولا لاهوت المسيحيين ولا عقل الأوروبيين المعاصرين. سيكون من الأفضل لو جمعنا كل ما هو نحن كي نستمر ولكي نكون في النهاية شيئاً أفضل. لا تجعل فكرة واحدة تقسمك وتذهلك. ضع جميع أفكارك في إحدى كفتي الميزان، ثم ضع كل ما ينفيها في الكفة الأخرى، وعندئذ ستكون أكثر قرباً إلى الحقيقة. اعمل ضد إيمانك العلماني يا أخي، وضع إلى جانبه إيماني السماوي، لكن كثقل موازنة، وزن، تغاير، وجزء من علمانيتك. أنا

أفعل الشيء نفسه، أعمل مستنداً إلى إيماني وإيمانك. خذني أكثر بعين الاعتبار غداً أكثر من اليوم، وفكر بجدية لو أنني لم أنتم إلى الثورة وحسب بل تابعتها حتى النهاية، وهكذا لن يترك التاريخ الكنيسة خلفه - كنيستي. وانتبه ألا تترك كنيستك ذات الفلسفة الرومانسية المضادة للإكليروس في الخلف. لا أريد أن أجد بعد عشر سنوات من الآن أنك أصبحت رجلاً آخر مرض من اليوتوبيات الخائبة، والمثل التي خينت وحسب. ولا تظنن أنني لا أشكركم جميعاً على نزعتكم الشكية، يا رفاقي المحامين الجيدين. لكنني أمتلك ما تفتقدون إليه، ودعني أقول ذلك بصفح وتواضع. كان علي أن أستهلك زيت منتصف الليل وأنا أقرأ القديس توما الأكويني وألبيرت الكبير[1] والقديس بونافنتييه ودانز سكوطس[2]. روسو وفولتير هما علاج لي، دواء مقيء. ولكن أنتم يا أهل الحداثة، ماذا ستسخدمون كعلاج لما تعلمتموه؟ التجربة طبعاً. لكن تجربة دون أفكار لا تصبح مصيراً، روحاً... تساءل القديس توما: ما هي الروح، إن لم تكن شكل الجسد؟ فكر بالأمر وسترى أن هذا ليس تناقضاً وهمياً: الروح هي شكل الجسد. بدون الروح، لن يستمر الجسد، سيبدأ على الفور بالتعفن والتحلل... امنح جسدك روحاً، يا بالتاسار، ودعنا نأمل أن نرى بعضنا بعد عشرة أعوام... باه! ربما غداً سوف أقع في الأسر، وربما لهذا شعرت بالحاجة للتحدث إليك اليوم. أريدك أن تفكر بي حين تسمع عن نهايتي، وأريدك أيضاً أن تتولى مسؤولية ذاكرتي.»

صمت الكاهن فترة طويلة، وفيما بعد عاقب بالتاسار نفسه لأنه رأى، مع مرور الوقت، أن الجبن صادق على المظاهر الأسوأ في شخصيته، أنه مجادل دون نبالة، حسود لما ليس هو، مستغل للضعفاء ويغريه أن يذل أي شخص يظنه أدنى منه... لم يخدع نفسه فيما بعد. لكن في تلك اللحظة،

---

[1] - فيلسوف ولاهوتي ألماني حاول التوفيق بين اللاهوت وفلسفة أرسطو.

[2] - لاهوتي اسكتلندي، أكد أن الإيمان عمل من أعمال الإرادة.

حين توقف كينتانا عن الكلام، ظن أنه كان يتصرف كما طلب من الكاهن بعد أن منحه روحه، بينما، في عماه، اعتقد أن الكاهن كان يشرح له درساً وحسب.

«كنت أتساءل حين أصغيت إليك، هل ما أزعجني فيك أكثر هو الكاهن الطاهر المنعزل أم الكاهن المشوش الذي لديه أبناء.»

حاول كينتانا أن يخترق بعينيه الحاجز الشبكي الذي فصل بينهما، بحيث يدرك بالتاسار أن الكاهن قد تأذى، وقد أصمتته صدمة مفاجئة أكثر من الإعياء الساحق.»

«أتريد أن تقاتلني؟»

«طلبت مني أن أكون مقاتلاً. أستطيع أن أتخيل أن البابا، في أحد الأيام الرائعة، سوف يلغي الحرم الكنسي وسوف تعتقد أن كل ما فعلته كان بلا جدوى، وفاشلاً.»

«اعذرني فأنا لا أتبع خط تفكيرك...»

«أعني أنني آمل ألا تكون حياً حين تسامحك الكنيسة» وتقول: «كنت مخطئاً.»

«إن فعل محاولة القيام بأمر جيد لهو كاف بحد ذاته.»

«حتى ولو فشل.»

«كرمى لله لا تضع في كل هذا يا بالتاسار. كل ما أردت أن أقوله لك هو أنني أنا وأنت نشبه بعضنا. نحن نقاتل معاً من أجل روحينا، رغم أنك تخلط بين الروح والمادة. ليس لهذا أهمية. يمكن أن تكون محقاً. الروح هي شكل الجسد. لكن أنت وأنا... فيما بعد، أولئك الذين يقاتلون من أجل النقود والسلطة سيجيئون. هذا ما أخشاه، وهذا سيسبب فشل الأمة. وعندئذ أنت وأنا - أو ما أتركه أنا وأنت في هذا العالم - سوف يساعد اللصوص لاستعادة أرواحهم. هذا جوابي لأولئك الذين يغفرون لي بعد مئتي عام من الآن.»

«لكن أنت، جزئياً، تتفق معهم.» حاول بالتاسار أن يحذر النظرة على وجه كينتانا الذي أسيئت معاملته، تحولت إلى شبكة وأصبح أكثر دمامة بسبب الحاجز الشبكي على باب مكان الاعتراف.

«كنت داعراً ومنافقاً وغاوياً...»

سأله الكاهن بعينين منخفضتين وجبين قاس: «أتعرف ماذا تعني كلمة شيطان. إن مشكلتي هي أنني لم أكن معفى من إغراءات الجسد. أما مشكلتك، من ناحية أخرى، هي أنك لن تكون معفى من إغراءات الروح. الشيطان يعني الكذاب.»

«أترى أنك تحاكمني بالقسوة نفسها التي حوكمت بها...»

«آه! وهي أيضاً تعني متهماً. أريدك أن تعرف كيف سيحاكموني يا بالتاسار. سوف يذلوني ويركعوني أمام الأسقف. سوف يكررون الحرم الكنسي ثم سيسلموني إلى السلطات المدنية. سيطلقون علي النار من الخلف ثم وأنا راكع سيتم تقطيعي. سيضعون رأسي في قفص زجاجي أمام الحي العام في فيراكروث. سأكون عبرة لكل من يشعر بميل إلى التمرد...»

لم يستطع أن ينهي الجملة لأن بالتاسار كان قد غادر حجرة الاعتراف حيث أمضى ساعة محتلاً مكان الكاهن، والآن بدلاً من ذلك كان يعانق الكاهن طالباً الصفح، ويسأله لماذا فعل ما فعله له، شاعراً بالقوة، كبحر عاصف، تلك القوة التي كبح بها كينتانا عاطفته، كانت كالبحار المتجمدة حيث العواصف الضخمة تبدو غير قادرة على الحركة، سامحة للريح، لا للمياه، أن تكون اللاعب الرئيسي في العاصفة.

لكن الكاهن عانق بالتاسار وقبل رأسه ورحب به، وفهم بالتاسار أن الأب أنسيلمو كان يتولى مسؤوليته، كي يستطيع هو أن يتولى، في النهاية، مسؤولية ما كان ينتظره...

(7)

بقوة بغال أدار المحارب القديم أنسيلمو كينتانا الجسد المتشنج لأخيه الأصغر، النقيب الذي من بوينس آيرس، بالتاسار بستوس كي ينظر نحو مدخل المصلى.

في مستطيل الضوء نفسه الذي شغله هو نفسه منذ ساعة كانت تقف صورتان ظليتان بوضوح متغايرتان في الجنس والثياب. امرأة وطفل.

«تعالا هنا، ادخلا...»

على عكس بالتاسار، تقدم الاثنان إلى الأمام بصخب. كانا حافيين ولم يقولا شيئاً ليكسرا صمت المصلي. لم يبتلع ذلك الصمت الصوت العسكري المكتوم لبوط بالتاسار. كان معلقاً جسدياً بين شخصيتيه، الرجل الحسير السمين، والمقاتل النحيل ذي الشعر الطويل، بالتاسار شرفات بوينس آيرس وبالتاسار حملات الجبال في البيرو العليا، بالتاسار صالونات ليما وبالتاسار مواخير مراكيبو الحميّة.

الآن، في سن الخامسة والثلاثين، أنجز بالتاسار التوازن بين النظرة نصف العمياء، المتفحصة، الجسد العنيف لكن الرشيق، والشارب غير الجعد الذي منح الصلابة لشفتيه الصغيرتين والمتلثلثتين. كان شعره لا يغلب، وبدا أنه يمتلك حياة خاصة به، وهي حياة أكثر من كافية لقرننا الرومانسي، كما قررنا دوريغو، وأنا، فاريلا، أن نسميه في بوينس آيرس، حين بدأت أخبار قصائد بايرون وشيللي تصل إلى العالم الجديد... ومنحه أنفه الروماني الأنيق دائماً جواً من النبالة والمقاومة والرواقية. واستقرت نظارته القديمة بشكل غير مريح على جسر أنفه.

الشخصان اللذان اقتربا لم يكونا قابلين للمعرفة من النظرة الأولى رغم أن الصبي كان هو نفسه الذي لعب لعبة الغميضة البارحة. صبي أشقر في العاشرة من عمره، ينبغي أن يحدس المرء جمال بشرته بسبب تشوش شعره المتسخ وقذارة قميصه وبنطلونه القطنيين.

وكانت امرأة بعمر غير محدد، شعرها ممشط إلى الوراء، ومعقود على شكل كعكة، بشكل سيء بالدبابيس. وسقط شعر ضال على جبينها المليء بالتجاعيد. غضون الاكتهال حول شفتيها وعلى زاويتي فمها وعلى ذقنها لم تقنعها المساحيق. المرأة، الحافية كالصبي، صالبت ذراعيها وكأنها تغلف نفسها بشال غير موجود، وخان جسدها المرتجف خيانة المناطق الاستوائية في أوريثابا، نتائج الرطوبة المستمرة والمطر. أما زكامها السيء فقد أصبح سعالاً ملحاً.

قال الكاهن بأرق طبقة في صوته: «أوفيليا، لقد شرحت سابقاً للنقيب أنك توافقين على أن يعود الصبي معه إلى الأرجنتين.»

ثم نظر كينتانا إلى بالتاسار الذي كان كتلة لا تقدر على الحركة، سجيناً إلى الأبد في أكثر أنواع الكآبة سرية وثباتاً. حين نظر بالتاسار إلى حياته كلها، إلى المرأة المنشغلة بالتمخط، التي لم تنظر إليه، أخبره كينتانا أن الصبي ولد منذ عشرة أعوام في بوينس آيرس ثم اختطف في ظروف غامضة، لكن أمه رتبت إعادته من المرضعتين السوداوين اللتين أنقذتاه من حريق وطلبتا فدية فيما بعد. أرسلته إلى فيراكروث ليوضع تحت عناية الكاهن كينتانا، آملة أن يأخذه أحدهم ويتولى مسؤوليته.

«أخبرتك البارحة يا أخي إن قدرك هو أن تتولى مسؤولية من يحتاج إليك. وأمتك ستحتاج إليك وإلى الصبي. ينبغي أن يذهب معك. سوف نبقى على قيد الحياة هنا. نحن مكتهلان جداً. أنتم الأرجنتينيين، أولاد الأميركيتين، الأخوة الأصغر لهذه القارة العجوز. خذ الصبي معك وعلمه أفضل ما في العالم أنت وأصدقاؤك الجيدون. سوف تحظى بالسلام والرخاء أما نحن فلا.»

ونجح بالتاسار في أن يقول دون تفكير: «وماذا عنها هي؟»

قال كينتانا وهو يحدق بشكل ثابت إلى المرأة التي بدت منذهلة ولم تكن تصغي: «كانت أوفيليا سلمنكا العميلة الأكثر إخلاصاً لثورة الاستقلال في أميركا. لقد أبقت صراعنا حياً من خلال خلق شبكة من الاتصالات، وهو

شيء يصعب علينا تحقيقه في هذه القارة. وإذا كنت على اتصال مع سان مارتن وبوليفار، فيعود الفضل في ذلك إليها. وبفضلها، عرفنا في الوقت المناسب، أية تدعيمات إسبانية كانت تغادر كالاو إلى أكابلكو أو تتجه من مراكيبو إلى فيراكروث. إنها بطلة يا بالتاسار، امرأة جديرة باحترامنا الكبير. ضحت بسمعتها كي تعرف الأسرار، ولطخت يديها بدماء الخونة الذين تظاهروا بأنهم متمردون بينما كانوا في الحقيقة يخدمون القضية الملكية. في أحد الأيام ستُكتب قصتها. وكم كانت بارعة في معظم الأحيان! استخدمت شبكة من الأغاني سافرت في الأميركيتين بأسرع من وميض البرق لترسل إلينا الأنباء، مستفيدة من قصة حب روجتها الشائعات بينها وبين ضابط كريبولي من بوينس آيرس.»

«أيها الأب، أنا هو الضابط والأغاني تذكر اسمي فلا تحاول خداعي.»

«لا تتفوه بكلمة أخرى يا بالتاسار. أمرت بطلاً آخر من أبطال الاستقلال أن يرسل إلى هنا، كان رجلاً، تظاهر مثلها بأنه ملكي، ليجمع معلومات وينشر شائعات مزيفة. أرادت ذلك البطل، الذي هو أنت، أن يتولى مسؤولية ابنها. لهذا السبب كتبت لصديقتها لوث ماريا في مراكيبو، طالبة منك أن تأتي.»

رمى كينتانا ذراعه حول كتفي أوفيليا.

«الآن هي مريضة جداً ولا تستطيع العناية بالصبي أو أن تعمل لدينا. وافقت على أن يعود ولدها معك إلى الأرجنتين. أفترض أنك...»

قال بالتاسار ببساطة: «نعم، أنا أوافق أيضاً.»

اقترب النقيب الذي من بوينس آيرس تماماً حين غادرت أوفيليا سلمنكا من جانب كينتانا. فقدت توازنها، وساعدها بالتاسار كي تنهض على قدميها. كانت هذه هي المرة الأولى التي لمسها فيها. قالت بصوت ضعيف: «شكراً لك.»

انفصلا فوراً. لم تنظر إليه أبداً. لم يرغب برؤية الحزن المميت في تلكما العينين اللتين عبدهما بتوتر شديد. وضع ذراعاً حول كتفي الصبي وقال:

«ما تحتاجه هو حمام جيد. سترى، سوف تحب السهول. من الآن فصاعداً ستكون أخي الأصغر...»

كان بالتاسار يحمل في قبضته المشدودة الشريطة الحمراء التي ارتدتها أوفيليا سلمنكا في تلك الليلة من شهر أيار حول عنقها، وكان الشاب الحسير قد سرقها من المركيز دي كابرا في ليلة موت آخر في ليما.

أحب أن يعيدها إلى أوفيليا، أن يعلقها على صدرها، لكن النظرة المنذهلة للمرأة جعلته يتراجع.

الفصل التاسع

الأخ الأصغر

(1)

وقفنا على رصيف المرفأ لننتظر بالتاسار – صديقاه خابيير دوريغو وأنا مانويل فاريلا – كنا نحمل له الكثير من الأنباء ذلك لأننا لم نلتق به منذ أحد عشر عاماً! قدمنا له ملخصاً مقتضباً لما كان يحدث في الأرجنتين. كانت جميع الأعين على برناردينو ريبادابيا، رئيس الوزراء الشاب الذي كان يقاتل من أجل المبادئ الليبرالية، والتعليم المجاني والاتصالات المفتوحة واستعمار الداخل، ببيع الأراضي التي يمتلكها العامة بالمزاد العلني، خلق مكتبة عامة، نشر الكتب وتشجيع الموهبة المحلية... وبدا أن عبارة له تلخص كل شيء: «نحن نعجل في حدوث المستقبل...»

لكن لم يبد أن بالتا كان يصغي إلينا. حدق بنا بجدية متوترة قارئاً التغيرات في ملامحنا وربما مخمناً التغيرات في أرواحنا.

حسناً، سرعان ما وجد أن خابيير دوريغو لا يزال فيلسوفاً يعقوبياً راسخ الجذور على الرغم من أن ميراث عائلته أجبره على أن يكون محافظاً في الاقتصاد، رغم إيديولوجيته مضادة للإكليروس.

أصبح شعر دوريغو القصير جداً شائباً بسرعة، مانحاً صبغة محمرة للون جلده الخزفي. لكن بدا أكثر تماشياً مع الموضة في قبعته الحادة من الشعر القصير. كان تخلياً زهدياً جذرياً عن عصر اللمات المستعارة. لن نراها أبداً بعد الآن.

أنا، على أي حال، تابعت مهنة الطباعة وسوف أتابع ذلك طيلة حياتي. وأصبح من الممكن نشر كتب لمؤلفين حديثين دون خوف من الرقابة، فبذلت جهوداً كبيرة في ذلك الاتجاه. وبينما انتظرت بزوغ مؤلفين خاصين بنا، كانت أمامي حياة المحرر سيمون بوليفار، وهي مخطوطة ملطخة بالمطر ومربوطة بشرائط ثلاثية الألوان، أرسلها إلي المؤلف الذي يلقب نفسه أوريليانو غارسيا من بارانكويلا. كانت تأريخاً حزيناً، على أي حال، وكالقصة التي عن عازف الكمان الأعمى من تاباي التي كتبها بالتاسار لي، تنبأت المخطوطة بنهاية سيئة للمحرر وأفعاله. فضلت أن أتابع نشر كتب فولتير وروسو. (كانت هليوس الجديدة الحدث الأدبي الأعظم في تاريخ أميركا الجنوبية) وتركت إلى وقت آخر النبوءة الكئيبة لبوليفار مريض ومهزوم كحلمه بالوحدة الأميركية والحرية المدنية في بلداننا.

مع ذلك، منح اجتماعنا معاً مرة أخرى ثلاثتنا متعة كبيرة. كان بالتاسار يعرف أنه كتب قصة عن تلك الأعوام، تلك التي أحملها بيدي الآن، والتي يوماً ما، ستحملها بيديك أنت أيضاً أيها القارئ، في جدول الرسائل التي بعثها لدوريغو وفاريلا، (لقد بدأنا نبدو كرفيقين).

أقنعنا بالتاسار أن يأخذ الصبي إلى مزرعة خوسيه أنطونيو بستوس القديمة كي يقابل سابينا. وجدها مجنونة قليلاً. اعتراها هوس بالنوم في غرفة نوم مختلفة كل يوم: غرفة نوم والدها خوسيه أنطونيو وغرفة أمها مايته، التي ماتت منذ سنوات عديدة، غرفة الغائب بالتاسار، وعلى سبيل الافتراض غرفة المعلم اليسوعي المنسي جوليان ريوس، لكي تجعل جميع الغرف دافئة.

لم تكن هناك فائدة. لم يستطع الأخ والأخت أن يتفاهما أبداً، وسابينا، كما أخبرنا بالتاسار حين عاد إلى بوينس آيرس، لم تملك الجرأة للعثور على رجل، رغم أن – ابتسم بمكر غير مألوف فيه – قوانين ريبادابيا التحديثية استأصلت رعاة البقر الجوالين في المزارع وأجبرتهم على أن يصبحوا عمالاً في الزراعة ومرابي الماشية واحتياطاً للتجنيد الإلزامي.

قال الأخ الأصغر متنهداً: «لا شيء يحدث لسابينا إلا في حنينها. إنها اتهام مضاد حي.»

وباجتماع غريب للمصائر، لم يتزوج دوريغو ولا أنا مفضلين أن نطيل من حياتنا كفساق بوينس آيرس قدر الإمكان رغم أن كلينا كنا نقترب من الأربعين. وكانت الحقيقة أن احتفالات الإسراف في تناول الخمر كانت حجتنا، وهي حجة بوينس آيرسية، بالتأكيد، لأن مدينتنا كانت تعج دائماً بالأطفال العجائز الذين لن يتوقفوا عن منح أنفسهم الحرية المثيرة لشبابهم. وبما أن بوينس آيرس كانت مدينة مصائر عابرة حيث قطاع الطرق من رعاة البقر، الهاربين من التجنيد الإلزامي، يقفزون عن أحصنتهم تتبعهم فتيات ريفيات عاشقات لهم ويسقطون كما اعتادوا القول في هلاك أبدي، لكنها أيضاً كانت مدينة الإسبان الذين جاؤوا من أجل التجارة، والإنكليز الذين جاؤوا ليؤسسوا أعمال الهندسة المدنية. التقينا جميعاً في المواخير والبارات والدساكر. رقصنا وشربنا وعشقنا مدركين أن مدينتنا، بوينس آيرس، كانت مدينة أسس، أسست مرتين في البداية ثم ثلاث وأربع مرات وحتى مائة مرة وكانت تؤسس كلما جاء أجنبي من أوروبا أو الداخل ليعيش هنا.

لم نستطع أن نجر بالتاسار إلى مواخيرنا ونحن أنفسنا بدأنا نهجرها. أدركنا أن السبب الحقيقي لمجوننا هو أننا كنا ننتظر عودة شقيقنا الأصغر لنر ما الذي سنفعله سوية. من الذي كان سيفكر بذلك؟ في عقد مشاركتنا في الثورة، شجعناه من بوينس آيرس، فرضنا عليه تلك المهمة إلى البيرو العليا ليتبع خطى كاستيي ورميناه في حياة من الأخطار والمغامرات التي لم نجربها أنا ودوريغو أبداً. وحالاً تبدد وهمنا حيال السياسة الثورية وعدنا إلى عاداتنا الوراثية: دوريغو يعيش من تأجيره وأنا من الطباعة. لكن ريبادابيا كان يعيد الحياة إلى آمالنا.

كان هناك المزيد أيضاً. القصة الرومانسية المثيرة لبالتاسار بستوس وأوفيليا سلمنكا، التي غنيت من طرف الأميركيتين إلى الطرف الآخر،

أدخلتنا أنا ودوريغو في حالة تشويق لأسباب مختلفة. لم نستطع أن نتخذ أية قرارات متعلقة بالزواج إلى أن عرفنا كيف انتهى الأمر.

لم يكن على بالتاسار أن يخبرنا من هو الفتى. قبل أي شخص آخر، عرفنا ما حدث في تلك الليلة، 24-25 أيار، في القصر المحترق للمحكمة الملكية. أمطرنا الصبي بالرقة لأننا بدأنا نعامله كأخ رابع، هذا الأصغر بيننا. كان الصبي ذكياً على الرغم من كآبته وكان يتحدث باللهجة الساحرة لساحل خليج المكسيك. لم يذكر أمه أبداً، وكأنه قد أدى قسماً من أجل ذلك. لكنه تحدث الإسبانية في النهاية واستطعنا أن نفهم بعضنا.

كان دوريغو يمتلك عزبة صغيرة في أطراف بوينس آيرس، باتجاه سان إسيدرو، قرب النهر، وغالباً ما كنا نؤم المكان أيام السبت والأحد. بدأنا ندعو أنفسنا بالمواطنين ثانية متذكرين مجادلاتنا أيام الشباب في مقهى دي مالكوس العاري، لكن المكتظ، حيث بدا أنه سواء أصبحت أفكار روسو وفولتير واقعاً أم لم تصبح فقد كان الأمر يعتمد علينا حصراً.

كان دوريغو يحمل ساعاته غدواً ورواحاً بين بوينس آيرس وسان إسيدرو وكان الصبي مسحوراً وهو يراقب تلك المجموعة من الأشكال الفنتازية المتنوعة – المدافن، الطبول، العربات، العروش، الخواتم والبيض – بينما كنا نتساءل إن كان الزمن بالنسبة إلينا قد توقف بمعنى ما. لكنه كان بالنسبة إلى الفتى الجميل متنوعاً كتلك الساعات التي سيرى فيها قياساً للشموس المختلفة، البعيدة عن بعضها والتي حددت حياته.

تبنى بالتاسار الطفل الذي أصبح اسم أسرته بستوس، ولكن أقسم بشرفي أن بالتاسار سماه مانويل مستبدلاً اسم لوكاديو الذي أطلق عليه أثناء التعميد. لم نشبه أنا والطفل بعضنا في أي شيء. وكانت شعراتي الشائبة الأولى قد أضفت نعومة على وجهي الداكن على الرغم من أن وحشية شاربي لم تخفف العيب السري في وجهي: شفتي العليا الكبيرة جداً. لكن لا الظلال التي تحت عيني ولا نحولي تكررا في هذا الصبي الذي يعكس بدلاً من ذلك أمه: الفاتنة أوفيليا.

كنا نراقبه في أيام الأحد تلك التي أمضيناها سوية في الريف. كان يحب أن يعصب عينيه ويلعب لعبة الغميضة. وبعد أن رأيناه أنيقاً هكذا ورشيقاً وسعيداً تجاسرنا أخيراً أن نسأل والده بالتبني عن رسالته، تلك التي لم يرسلها أبداً بعد أن وصل فيراكروث والتقى بالأب كينتانا وأوفيليا والصبي.

حدق بالتاسار طويلاً بالنهر الذي كان يتدفق ببطء أكثر من تلك الأعوام التي كانت تبدأ بالنسبة إلينا في تلك اللحظة، النهر الذي ليس لديه ما يفعله بصحن فضي، والذي بدا، بالأحرى، مجروراً ضخماً للغابات وللمناجم الواقعة في داخل القارة.

قال لنا إنه كل ما كتبه لنا كان صادقاً ويرى من الصعوبة الآن أن يكذب علينا. عرفنا سابقاً من الجرائد الرسمية أن الأب كينتانا أعدم تماماً بالطريقة التي تنبأ بها، أطلقوا عليه النار وهو راكع على ركبتيه ثم قطعوه وعرضوا رأسه في قفص في ساحة فيراكروث.

كان كينتانا خلاسياً مكسيكياً غامضاً مستغرقاً في التفكير، كما أضاف بالتاسار لكنه كان يملك عبقرية تلقائية شقت طريقها عبر الاستياء المريع لتلك السلالة. كان لديه حس بالدرامة التي كان يعيشها وبالقرار العسكري الذي توحي به، وباللغة التاريخية. ولكن، قبل كل شيء، كان فعلاً يؤمن بالمسيح وبإمكانية تأسيس علاقة مع الله بواسطة اللغة.

انتزع بالتاسار نظارته وأغمض عينيه.

أسروه وحيداً في تلال قرب كويرناباكا، وسط هرب قواته المهزومة ورعب قطيعه من المحامين. كان يصيح بهم جميعاً: لا تهربوا! لن تشاهدوا الرصاصات التي تخترقكم من الخلف.»

طلب أن يعدم في ردائه الأكثر أناقة. بحثوا عبثاً عن اسم الخياط لكي يعاقبوه.

قال بالتاسار في نهاية بعد الظهر الذي انعكست لطخه الذهبية على العشب المظلم قرب الريو دي لا بلاتا: «كان كينتانا آخر ثائر حقيقي. الآن سيتحقق ما توقعه الجميع في المكسيك حين أبحرت من فيراكروث.

التسوية، الحرية في القانون وحسب، انهزام الأمة وتقطيعها... هل يمكن أن يكون هناك حرية دون مساواة؟» هذا هو سؤال الأب كينتانا الملتهب، وكرره بالتاسار الآن. ونحن، صديقيه، ضحكنا: «لا تبدأ ثانية، وإلا فسوف تخطف أطفالاً مرة أخرى. لم نعد صغاراً كما كنا. اهدأ...»

غمغم بالتاسار: «يجب أن تكون هناك مشكلة، يجب أن تكون هناك مشكلة دائماً.»

سألته لأن دوريغو لم يعد يريد أن يسمع: «ماذا تقول؟»

أجاب بالتاسار: «لا شيء،ولكن بما أنني وصفت بالتفصيل كل شك مر في روحي أعتقد أنه ينبغي علي أن أخبركم أن الشيء الأسوأ هو عدم معرفة إن كان كينتانا قد أخبرني الحقيقة في بعد الظهر ذاك في المصلى.»

سألته مرعوباً: «لماذا تظن ذلك؟»

«من المحبذ جداً أنه كذب بدافع من الإحسان ولكي يتولى مسؤولية ذكرى أوفيليا سلمنكا كما قال. من الصعب علي أن أصدق تلك القصة عنها كعميلة لحركة الاستقلال. كانت سمعتها سيئة من تشيلي إلى فنزويلا، وكانت الأدلة على جرائمها ساحقة...»

طلبت منه ألا يعذب نفسه وأن لا يكون أقل إحساناً من القس المكسيكي. بالإضافة إلى ذلك، ينبغي أن يفكر بالطفل. كان الطفل بالتأكيد هو طفل أوفيليا سلمنكا. وعلى الأرجح ماتت المرأة. وهو،بالتاسار، يجب أن يقبل راحة من الهيام الذي عذبه طويلاً.

لكن أخانا الأصغر قال لنا آنذاك بصوته الإيقاعي الحزين: «لكن ذلك الهيام كان سببي في الوجود.»

ولم نمرضه بالمواعظ أو نحاول أن نستخرج خاتمة نهائية من تجربته. وجاءتنا فكرة متألقة لدعوة السيدات الشابات من نخبة مجتمع بوينس آيرس ترافقهن أمهاتهن أو وصيفاتهن إلى نزهاتنا عند النهر لكن لم يحدث أي شيء خارج حدود الإتيكيت العادي.

لم يحدث أي شيء، عدا أن بالتاسار بدأ يزعج التوازن الذي حققه دوريغو بتسويته المريحة بين الثروة واليعقوبية وأنا بأعمالي كناشر ذي مشاريع، وبمجوننا أيضاً، في بوينس آيرس، حيث كان الاستقلال قد تدعم بينما كانت الحملات العسكرية لا تزال تشن في البيرو.

أعتقد أن بالتاسار أدرك ذلك وأرادنا أن نكون هادئين، لكن دون أن يكذب علينا.

«فقدت أشياء كثيرة. كان إيتشاغوي وأرياس صديقين جيدين مثلكما. وأنا بالفعل أفتقدهما. صدقاني. لقد قضينا وقتاً جيداً معاً ونحن نحضر لحملة الآنديز. لم تكن هناك أبداً لحظة أخوية أو أكثر متعة في تاريخ الأميركيتين. وكم أنا ممتن لأنني شاركت معهما. لا، لا أشعر بالمرارة، رغم أنني عانقت الموت مرات عديدة. لكنني أعتقد أنني عرفت نفسي. أصبحت المبادئ متجسدة بالنسبة إلي. الحرب والاستقلال، احترام الآخرين، العدالة والإيمان. أعرف ما تعنيه تلك الأمور. وأعرف أيضاً أنني بعد أن خضت كل ذلك، أنني معكما، يا صديقي، ومعكما، ربما أعرف تحالف جميع الأرواح، وقد وحدتها الخطيئة والنعمة اللتان شغلتا الأب كينتانا. ولكن ما أريد منكما أن تعرفاه هو أن يكون المرء مخلصاً بشكل كامل، هو أنه لا يزال هناك مسافة جيدة للعبور من ما قد عشته سابقاً إلى ما سأعيشه. فقط أريدكما أن تعرفا. لن أعيش ذلك الوقت بسلام. لا أنا، ولا الأرجنتين، ولا كل أميركا.»

توقف ومرر أصابعه في شعره المتموج والمتمرد.

«والآن وقد عرفتم ذلك لنصبح أصدقاء إلى الأبد.»

«ما الذي يقوله؟» سأل دوريغو هذه المرة بعد أن فقد صبره من صديقنا.

«لا شيء»، قلت له، لكننا رأينا شرارة جنون في عيني بالتاسار مرة أخرى. قال لي دوريغو فيما بعد أنه لاحظ - «هل لاحظت؟» - أن صديقنا بدا شبه مجنون، لكنني قلت إنه لم يكن، وإن هذا كان حماسة. كان أخونا الأصغر متحمساً، هذا كل ما في الأمر...

«وآمل ألا يتوقف أبداً عن ذلك...»

سيفهم القارئ الأخير لهذه الأوراق، والتي أمتلك وحدي الحق في قراءتها الآن لماذا لا أستطيع أن أكون محسناً إلى الأبد مع صديقي بالتاسار بستوس وأخبره: نعم، لم يكذب عليك الأب كينتانا. كانت أوفيليا سلمنكا دائماً إلى جانب الاستقلال، منذ زمن الأب كاميلو إنريكويث والأخوة كاريرا في تشيلي، ثم هنا معنا في بوينس آيرس – حسناً، فقط معي، تمرر إلي المعلومات عن نشاطات زوجها العجوز،المركيز دي كابرا، أثناء العام الذي أمضياه في قصر المحكمة العليا في بوينس آيرس بين 1809 و 1810، حين أنا وهي وقعنا في الحب، وكنت أتسلق الدالية وأدخل إلى تلك الغرفة ليلة بعد أخرى، وعرفت نشوة جسدها وتمتعت بها إلى أن حملت بطفلي. ومع ذلك لم يمض يوم واحد دون أن تجد شيئاً مفيداً للقضية، وترسله إلينا وأدى هذا إلى نجاح انتصارات أيار.

والآن أكتب هذا، كقصة الكاتب من بارانكويلا، يجب أن تنتظر مخطوطتي وقتاً طويلاً قبل النشر،طيلة حياة صديقي بالتا وابني مانويل، الذي أنجبته من أوفيليا سلمنكا، البطلة المجهولة لحروب الاستقلال، التي ماتت من السرطان في يوم منسي في الميناء الذي أصيب بالملاريا، كوتثكولكوس في ولاية فيراكروث.

ليس عندي أحد لأكتب هذا الطلب: ضع خمسة وعشرين شمعة حول تابوتها البائس، بنفس عدد الأعوام التي عاشتها حين ولد طفلنا، السن نفسه الذي ستكون فيه أوفيليا الجميلة دائماً في ذاكرتي.

وعاشت أسطورة أوفيليا وعاشقها الأفلاطوني، صديقي بالتاسار، في الأغاني والألحان والرقصات.

أخبأت تلك المخطوطة وأقفلت عليها، وخرجت أنا ودوريغو إلى مرج العزبة على طول النهر.

وكان الطفل الذي أنقذته، منذ عشر سنوات، ضربة حظ من ألسنة اللهب ومن الاستبدال مع ولد غفل، يلعب الغميضة، وحيداً وعيناه معصوبتان.

وكان والده المتبني، أخونا بالتاسار، يراقبه صامتاً، دون أن يبتسم، يداه مضمومتان تحت ذقنه، سبابتاه تغطيان شفتيه المزمومتين ولحيته الطويلة البنية الفاتحة. كان يجلس على كرسي أبيض مريح مصنوع من الأغصان، بينما كانت أضواء الصيف تلمع على الأعشاب.

وقلت لنفسي: كان الأمر وكأن بالتاسار حقق رغبته المتأججة لتناول العشاء الرباني مع الطبيعة، ولكن ليس في سهول أبيه وأخته المتوحشة، وليس في منبسطات الرمل الخطيرة وأدغال ميغيل لانزا، وليس حتى في عبور الآنديز مع سان مارتن أو في الميناء المحاصر مراكيبو، وليس في المعسكر النهائي للأب أنسيلمو كينتانا، وإنما هنا فقط، في هذه الزاوية المتحضرة من العزبة، في سان إسيدرو، مواجهاً النهر الذي يعكس التموجات البطيئة لقمم أشجار الصفصاف التي يشوشها نسيم الصيف الخفيف. ومن خلال تلك الأشجار، كانت الشمس النظيفة والقوية تتصفى من خلال ألف درع لا يلمس.

«إن ساعات الوحدة والتأمل هي الأوقات الوحيدة... أنا نفسي بشكل كامل، دون تحويل، دون عوائق... ما أرادتني الطبيعة أن أكونه.»

«أكان هناك أي سبب يمنعنا من قبول ما قاله روسو: *إن السعادة الحقيقية هي في داخلنا*؟»

نظرنا إلى مانويل، الطفل مانويل بستوس، الذي كان يلعب بسعادة، وتذكرنا ثلاثتنا: خابيير يهجر ساعاته ويسير إلى المرج، أنا أنظر بحب أخوي إلى أخي الأصغر بالتاسار، الذي شق طريقه بهيام، عبر قارة بأكملها، بالتا نفسه الذي لم يلمس أوفيليا سلمنكا إلا مرة واحدة، ثم لكي يساعدها على النهوض، تلك الليلة المريعة في 24 و25 أيار من عام 1810، حين اعتقدنا أننا فقدنا الطفل إلى الأبد بعد أن بحثنا عنه إلى الفجر في المواخير وأمكنة تجفيف اللحوم والأكواخ ذات السقوف القشية على طول النهر. والآن رمى بالتاسار في النهر نفسه خيطاً أحمر نحيلاً.

دار الطفل عدة مرات وهو يلعب وحيداً، ثم، دون أن ينزع المنديل عن عينيه، مد ذراعيه أمام حائط في الحديقة وأصدر أمراً بإطلاق النار وصاح: بانغ، بانغ، بانغ. سقط على الأرض، واضعاً يديه على قلبه.

كنا على وشك أن نضحك من هذه المزحة حين أوقفتنا صدمة. سمعنا رفرفة تنورة ورأينا في ضوء الصيف امرأة تجري نحو الطفل، تمسك رأسه، وتضمه إلى صدرها، وكانت امرأة جميلة ترتدي ثياباً حريرية رمادية، بقفازين ومرنة. رأيت أنا ودوريغو، من خلال حجابها الخفيف، واستطعنا أن نتعرف على الملامح الفاتنة للممثلة الشابة التي حققت نجاحاً كبيراً في ليالي بوينس آيرس، التي نألفها كثيراً أنا وخابيير: الخليلة الصغيرة كما سماها الجميع.

ولكن في الحقيقة، كان اسم تلك الممثلة الذكية والجميلة هو غابرييلا كو. بزغت بشكل مفاجئ في حديقتنا، قاذفة إلى أحد الجوانب مظلتها الملونة بالرذاذ لكي تركع قرب ولدي، ولدي وولد أوفيليا، ابن بالتاسار بستوس بالتبني، واستدارت تلك السيدة الصغيرة، لتنظر إلينا بعينيها السوداوين من تحت حاجبين كثيفين وشهيرين، وغير مراقبين، إلى أن توهجت ابتسامة على شفتيها الحمراوين، وثبتت نظرها على وجه صديقنا، أخينا الأصغر بالتاسار بستوس.

وأخيراً انتهت الحملة.



(كرمى لله لا تضع في كل هذا يا بالتاسار . كل ما أردت أن أقوله لك هو أنني أنا و أنت نشبه بعضنا . نحن نقاتل معا من أجل روحينا ، رغم أنك تخلط بين الروح و المادة ليس لهذا أهميـة . يمكن أن تكون محقا . الروح هي شكل الجسد . لكن أنت و أنـا ... فيما بعـد ، أولئك الـذين يقاتلون من أجل النقود و السلطة سيجينون . هذا ما أخشـاه ، و هذا سيسبب فشل الأمة . و عندئذ أنت و أنا ـ أو ما أتركه أنـا و أنت في هذا العالم ـ سوف يسـاعد اللصوص لاسـتعادة أرواحهم . هـذا جوابي لأولئك الذين يغفرون لي بعد مئتي عام من الآن .)

دار الطليعة الجديدة
للطباعة و النشر و التوزيع
دمشق ـ ص.ب 34494 ـ تلفاكس 2775872